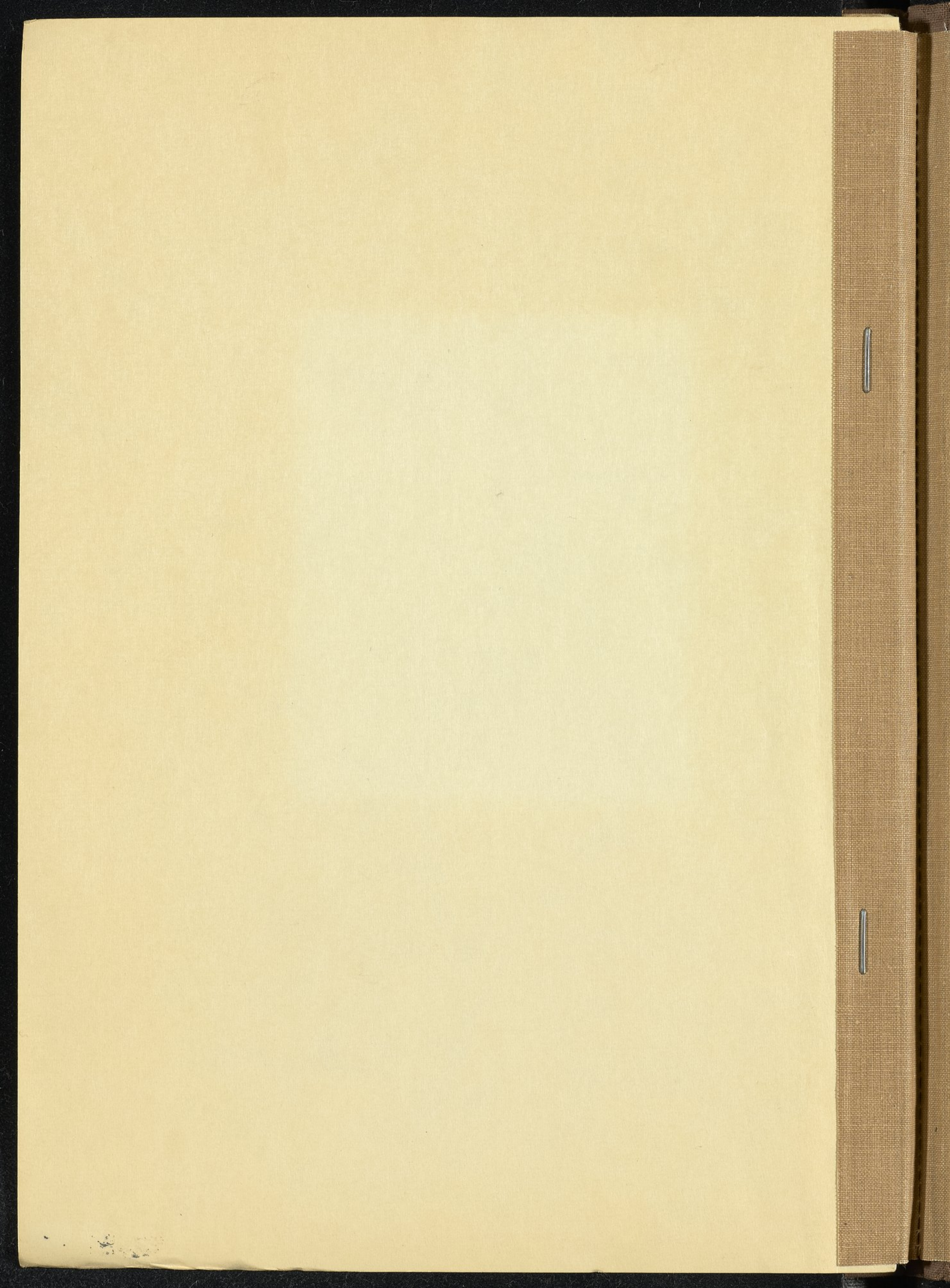
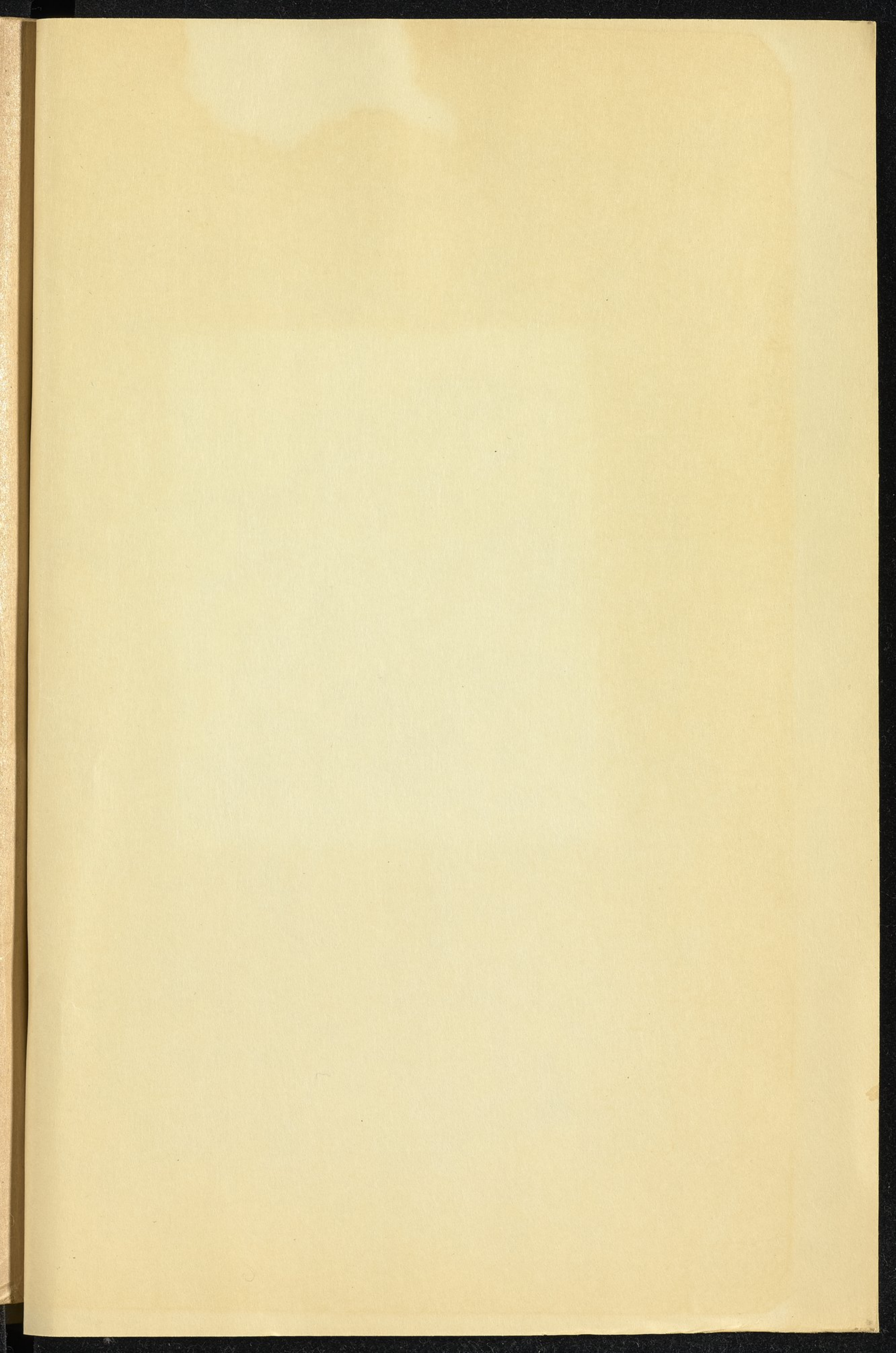






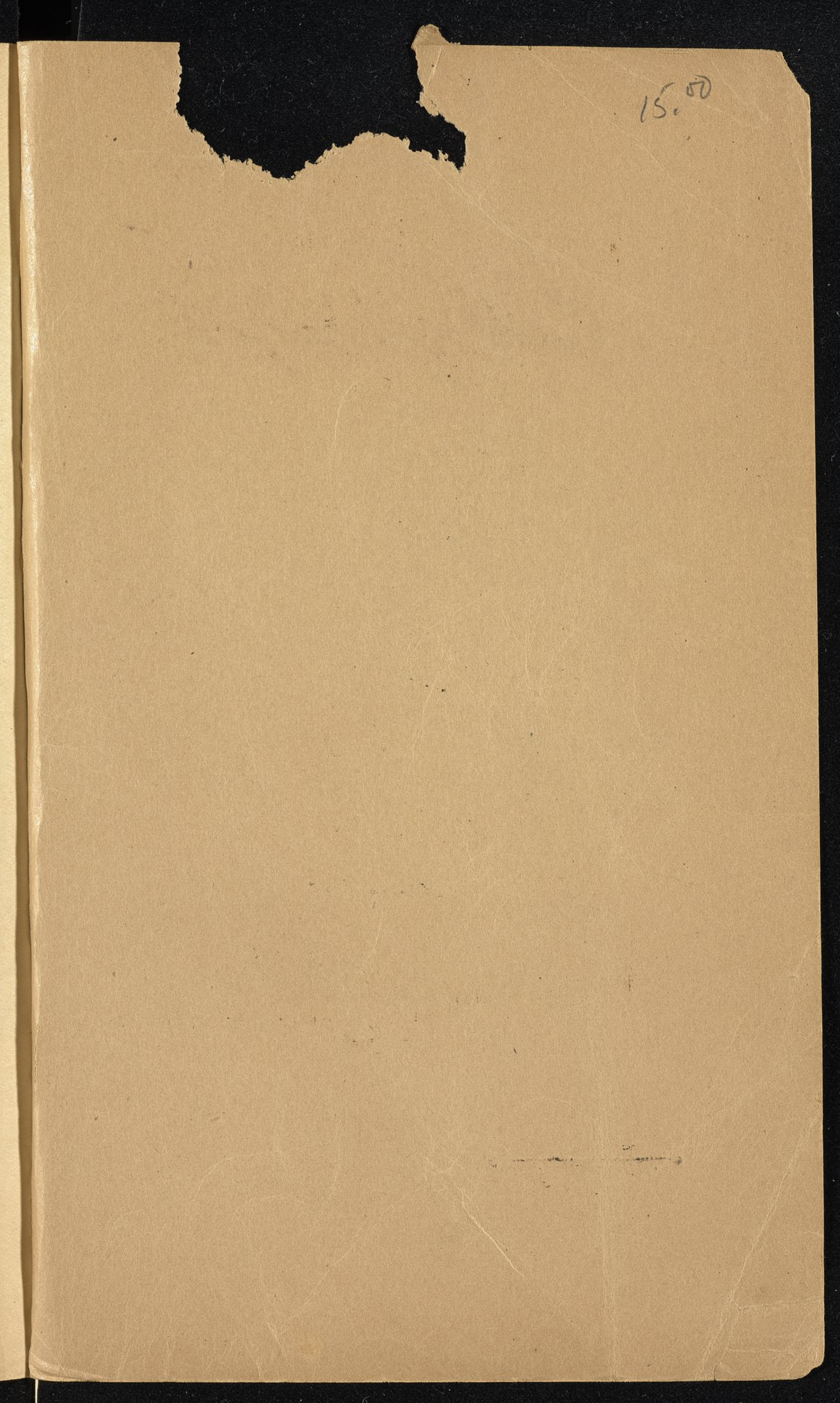
ما رأيت وما سمعت

« من دمشق الى مكة
« عشرون يوماً في الطائف
« تسعون ليلة في ضيافة الملك
« جولة في البادية
« أدب البداة
« من مكة الى هليوبوليس

تأليف

خير الدين الزركلي

المطبعة العربية بمصر


15.00

هدية [illegible] الى الفاضل السيد محي الدين رضى المحترم
خير الدين الزركلي

ما رأيت وما سمعت

« من دمشق الى مكة

« عشرون يوماً في الطائف

« تسعون ليلة في ضيافة الملك

« جولة في البادية

« أدب البداة

« من مكة الى هليوبوليس

خير الدين الزركلي

عنيت بنشره

المطبعة العربية ومكتبتها

بمصر

سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٣ م

من دمشق الى مكة

« ليلة ميسلون . في القطار . في حيفا . من حيفا الى القاهرة . »

« من القاهرة الى السويس . في جدة . الى مكة . في المخلوان . »

ليـلة ميسلون :

أنا لا أشكو ونىً في أمتي ... وبقومي كان إدلال الفخور !
إنما توشك أن تبكيني ... غفلة القادة فينا والصدور !

رحماك اللهم ربي ! ورأفتك ، بامة أسلمت زمامها المقادير الى زعماء خبطوا بها خبط عشواء ، وقادة كانوا حطاب ليل ، ونذر ويل ، نقمحوا بها مجاهل الأمور على غير هدى ، تسـيرهم الاهواء والنزعات ، وتلعب بهم الأغراض والنزغات ، طالب منصب ، وعابد درهم ، وعاشـق تاج ! لايبالون من أية الطرق كان لهم مايبتغون ، أو يكون !

قضي الامر ، وأراد التردد والضعف وعمى البصيرة أن تتفق وزارة الشام مع ملـكها فيصل بن الحسين على تسريح الجيش إجابة لرغبة القائد الفرنسوي الزاحف على ميسلون ، ونزولا على حكمه ، واستشعر أهل دمشق في حكومتهم اذعاناً للطارق الداهم ، فأنفوا الاستسلام وأبوا إلا أن يتركوا أثراً من الدم في صحيفة ذلك اليوم .. فثاروا !

واضطرب المتربعون على كراسي الحـكم في دمشق ، فعمدوا الى قمع الثورة بالعنف ، فسادت الفوضى ظلام ليلة ٢٠/٢١ يوليو (تموز) ١٩٢٠ وأقبـل الجند المسرحون ، منتشرين في احياء دمشـق ، يهتفون للاسـتقلال والدفاع ، تحت رصاص الرشاشات التي كان يطلقها رجال الامن في المدينة ، وانصرف الغوغاء الى نهب مافي مستودعات الحـكومة من أرزاق وذخائر وعتاد ، وأصبح الناس فجر يوم الخميس (٢١ يوليو) والقتلى ممددة في الشوارع والازقة ، والجرحى محمولون الى بيوتهم ومستشفياتهم .

ذلك حديث الأهلين . وأما الحكومة ، وكبيرها الملك فيصل ، فقد حسبت انها أحسنت الصنع بتفريق ما كان مجتمعاً لها من قوة الجيش ، وسارعت الى إعلام المعتمد الفرنسوي في دمشق (الكولونيل كوس) بقبولها ماأراده لها الجنرال غورو .. إلا أنها لم تلبث أن تلقت جواب خطابها على غير ماكانت تخال .. كان الجواب تقدم القوة الافرنسية المعسكرة في « مجدل عنجر » على مقربة من « رياق » الى الشرق . وعلمت حكومة الملك فيصل أن زلفاها من المغير ، لم تعد تنفعها ، فبادرت الى استماع ما يقوله الملك فاذا هو يعلن الحرب .. !

أعلنت الحرب بين دمشق والجيش الافرنسي .. وليس في ساحة ميسلون ، جبهة الدفاع ، غير مئة وستين جندياً لم يبرحوا أماكنهم حين تسريح الجيش العربي السوري ، ترافقهم كوكبة من الهجانة ، ومعهم ستة مدافع من عيار ٧٥ ورشاشات لايزيد عددها على الأربع .. !

هذه هي القوة التي اعلن بها الملك فيصل حرب سورية على الافرنسيين ، وهي القوة نفسها التي ثبتت في خنادقها ست ساعات أمام الجيش الزاحف المؤلف من أربعة آلاف جندي افرنسي وبين يديه ما استطاع نقله من عدد وذخائر !

اللهم ، وما أنس لاأنس اندفاع جماعات الاهلين ، هذا يحمل زاد يومين ، وذاك جعبة رصاص ، وذلك رافع علماً يقسم به أن سيموت دونه !

كانت وقعة ميسلون ، وتغلب الاكثرون ، واصبح يوم الاحد (٢٥ يوليو ٩٢٠) وقائد الحملة الافرنسية (غودن) يستعرض جيشه في شوارع دمشق وساحاتها !

ليس من شاني هنا أن أعدّد مااقترفه قادة ذلك الجيش من قتل الأسرى صلباً على جذوع الشجر ورمياً بالرصاص وما حاولوا أن يكذبوا به على الخلق من بثهم صنائعهم في بعض الفنادق ليرشقوهم بالرياحين ، فيقال : دمشق تفتح صدرها للمستعمرين .. !

وليس من شاني ايضاً أن اسرد تفاصيل تلك الفاجعة ومقدماتها ونتائجها في هذا الكتاب . ولكن حسبي أن اقول : إن صديقاً لي لاأسميه الآن ، رآني عصر ذلك اليوم ، وقد خرجت لابصر مااستقرت الحال عليه ، فاخبرني بان قائمة اسماء اطلع

عليها خلسة ، يريد المحتلون سوءاً بمن فيها ، وأنه قرأ اسمي في منتصفها . وحذرني ان ابيت تلك الليلة في منزلي . . فشكرته ، وأطعته !

في القطار :

أصبحت يوم ٢٦ يوليو (تموز) ٩٢٠ متهيئاً للسفر ، اخشى أن تقع علي عين واش فيصدني عن سبيلي ، فبعثت بحقيبتي الى القطار ، وأقبلت ـ وهو على وشك السير ـ فلم يكد يهتز اهتزازة الانطلاق حتى كنت فيه ، وفي الصدر وساوس وفي النفس اضطراب ، لولا أن هوّن عليّ علمي بان يد الغاصب لم تزل بعيدة عن ادارة تلك السكة ـ سكة الحجاز ـ وأن المحطة لم تبرح في مأمن من سيطرته حتى تلك الساعة .

شعر بي شاب ، أذكر أني رأيته قبل ذلك ، فأقبل عليّ مسلماً ، والقطار يجري متجهاً نحو « محطة القدم [1] » فعرّفني أنه احد موظفيه ، ودعاني الى الطمأنينة ! فعجبت لامره وتظاهرت بان ليس هناك مايدعو الى الاضطراب . . ولكن سرعان ماأدركت أنه واقف على دخيلة أمري ، وأنه أخوف عليّ مني ، فنبهني الى أن ضابطاً وافراداً من الافرنسيين قد نيط بهم النظر في راكبي هذا القطار ، وأنهم ربما كانوا ينتظرونه في القدم . وأردف ذلك بقوله : أما أنا فقد هيأت لك مكاناً تختبيء فيه . قلت : اين ؟ فأشار الى موضع الفحم في القاطرة . . وانصرف بعد ان شكرت له غيرته .

كنت لابسا في ذلك اليوم بذلة بيضاء ، فجعلت أنظر اليها وأتساءل في نفسي : كيف تكون هذه بعد دخول بيت الفحم ؟ ! وغرقت في بحر من الخواطر والهواجس فاذا القطار يصفر ، فنظرت ، فاذا نحن على مقربة من محطة القدم . . فعاودني الذعر !

تخطينا المحطة وليس فيها أفرنسي . وجاءني ذلك الشاب يهنئني . فسألته عن اسمه ، فلم يكتمه ، واطرد لنا السير في سهل « الكسوة » [2] الرحيب ، الى أن

---

(١) أول محطة بعد دمشق في خط دمشق ـ حيفا (٢) بين دمشق وحوران جنوباً تبعد محطتها عن دمشق ٢٥ كيلو متراً .

قاربنا « المسمية » [١] فلاح لنا عن بعد شبح جمع كبير من الخيالة قد اكتنفوا الخط الحديدي من جانبيه ، ودنونا ، فشهدنا بنادقهم ، وهدفها القطار ، فعلا ضجيج الركاب من الخوف ، وكان الى جانبي ضابط عربي — من جيش الشريف — حوراني الأصل ، رأى ما رأى الناس فألقى « فيصليته [٢] » عن رأسه ، وظهرت وفرته وجدائله [٣] وأطل من النافذة يصيح بلهجة القوم ، مشيراً لهم — والقطار متثاقل في سيره — : أن كفوا ! فتعادى بعضهم نحونا ، وقد عرف صاحبنا أحدهم فناداه باسمه ، فاجابه ذلك صائحاً « وايش جابك [٤] معهم ؟ » فصاح به : « ماهنا أحد ! » — وكنا قد بلغناهم . فأمالوا أفواه بندقياتهم واكتفوا بنظرات كانوا يلقونها على كل عربة من عربات القطار .

وعرفنا بعد ذلك أن جمهور « الحوارنة [٥] » كان قد علم بما صارت اليه حال دمشق ، وأصبح يترقب زحف الافرنسيين الى احتلال حوران ، فتهيأوا للدفاع ، وأزمعوا اعتراض قطار هذا اليوم إن كان فيه أحد منهم ، ووصلنا بعد نحو ساعة الى « أزرع [٦] » وقد بدأت مخاوفنا تتبدل أمناً وهواجسنا تنقلب اطمئناناً ، فجدّدها حادث لم يكن في الحسبان !

ذلك أن خصاماً قديماً كان بين طائفتين من قاطني بلاد حوران ، اتفق أن رجلا من احداهما كان راكباً معنا فنزل يريد دخول القرية فاعترضه آخر من الطائفة الثانية ، فتنازعا وتلاطما ، وعمدا الى السلاح ، فانتصر للاول فتى كان لم يزل في القطار فشهر مسدسه واطلق منه بضع طلقات تهديداً لخصم رفيقه ومن كان قد انضم اليه يعينه ، فتألب عليهما جمع ، فاستدبر الرجلان القطار ، وتتابع اطلاق الرصاص حولهما ، وارتفع الصراخ وخشي الراكبون . وصاح صائح فينا : « يارا ياط [٧] ياشباب ! » .. فرأينا الحكمة في ما رأى ، فأهوينا منبطحين ، نعفر ثيابنا

---

(١) محطة في جنوب دمشق تبعد عنها ٥٦ كيلو متراً . (٢) الفيصلية : قبعة كالخوذة كان يلبسها ضباط العرب في سورية أيام امارة فيصل (٣) الجديلة في عرف بادية الشام اليوم : الضفيرة . وفي اللغة : جدله أحكم فتله . (٤) أى شيء جاء بك (٥) سكان حوران (٦) محطة في حوران تبعد ٩٦ كيلو متراً عن دمشق (٧) لفظة تركية أصلها « يره ياط » أي « نم على الارض » ويريد بها العسكريون الانبطاح على البطن .

بتراب الاقدام ! خشية أن تعلق بأحدنا رصاصة طائشة تلدها الفوضى العمياء ! .
وانحدر أناس من القطار ، لايهتدون الى أين يغتدون ! ومضى آخرون الى سائقه
فهددوه بالنار اذاهو لم يمض بقطاره ، فاضطر الى موافقتهم وبرح بنا موقف الفتنة ..

كل هذا حدث في بضع دقائق وكان الوقوف المعتاد في هذه المحطة ربع ساعة
لحمل مايراد نقله من حبوبها . ولم نبتعد عنها مسافة ٣٠٠ متر حتى رأينا دخاناً كثيفاً
تصاعد من خلفنا وسمعنا دوياً لم نعرف حقيقته إلا بعد أن بلغنا المحطة التالية « خربة
الغزالة [١] » وتقاطر علينا من بها مبتهجين بنجاتنا قائلين : ان لغماً قد انفجر بعد
مضيكم فنسف خط المحطة . فحمدنا الله وذكرنا فضل حادثة الخصام التي فررنا منها
وتمثل أكثرنا بقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » !

واستأنفنا المسير فبلغنا « أذرعات [٢] » وأهل الشام يسمونها « درعا » وأهلها
والبداة يقولون « درعاة » فاذا مطعمها غاص بطائفة من أحرار سورية . علمت
منهم أن الملك فيصلا عاد صبيحة اليوم نفسه الى دمشق بعد أن كان قد انسحب
منها الى درعاة (أذرعات) فقلت : لعل له عذراً وأنت تلوم !

تناولت طعام الظهر مع طليعة المهاجرين .. وحدثت بعضهم بما شاهدته في
طريقي من دمشق . فلم يشك أحد منهم في أن فوضى حوران ستتصل بأذرعات .
فاتفق أكثرهم على الرحلة الى حيفا . فقصدناها يزيد عددنا على العشرين بيننا
خالد الحكيم وأمين معلوف وسعيد حيدر وفؤاد سليم وبهجة الشهابي وتوفيق
اليازجي ورياض الصلح وتوفيق مفرج ومعين الماضي . ومضت لنا ساعات في
القطار الى أن بلغنا « سمخ » وهي الحد الفاصل بين المنطقتين الشرقية والجنوبية من
سورية المجزاة . وان شئت فقل الحد الفاصل بين مستعمرتي فرنسا وانكلترا في
سورية الممزقة .. !

طال وقوف القطار في « سمخ » المحطة الجافة القاحلة ، فانتظرنا مكرهين ، مع
المنتظرين ، وجاءنا بالاخبار من لم نزوّد .. فعلمنا أن حكومة حيفا قلقت لدنوّ هذا

(١) على ١١١ كيلو متراً من دمشق جنوباً . (٢) على ١٢٨ كيلو متراً من
دمشق جنوباً

الوفد الكريم من ارضها . . فلم يسرها ان يسرح في مغانيها ثوار فوضويون هائمون مطاردون منكوبون . . والتمست وسيلة للخلاص من شرهم . . فلم تجد ، فأوفدت لاستقبالهم سبعة من عيونها وارصادها يقال ان احدهم مدير شرطة (بوليس) حيفا لا وفد ترحيب وتأهيل وتسهيل ! بل وفد استراق حديث والتماس هفوة وتجسس خبر !

قدم الوفد أفراداً غير مجتمعين ، وقد تهيأنا لاستقبالهم بانقسامنا الى أربع جماعات لكل جماعة منا عمل ، فريق يمثل فصلا من رواية « العدل أساس الملك » من روايات كشكش . وفريق يتناشد الاشعار . وفريق يتغنى بأنواع الغناء « البلدي » . وفريق يراقب حركات الوفد القادم . وجعلنا آية دخول « أحد القادمين » في احدى جماعاتنا أن ترتفع أصواتها بما كانت عليه . .

وكان الظن أن سنلقى رجالا من ذوي المظاهر الخداعة يندسون بيننا ، فرأينا عمالاً مساكين أحدهم مشقوق القميص وليس على منتصفه الأعلى سواه . والثاني منتفخ البطن وقد لبس سروالا رمادي اللون رث الشكل . وبقية الجمع على هذا النمط البديع . . فاستمررنا في أعمالنا . وهم مبهوتون متحيرون . ولو نطقت ألسنتهم لسمعناهم يقولون : أيطرب هؤلاء بالتمثيل والغناء وقد ذهبت بلادهم وضاع طارفهم وتلادهم ؟ أم تراهم كسواهم من فوضويي هذا العالم لا نظام يجمعهم ولا قانون يردعهم ؟ أم هم قوم لا يشعرون !

لم تكن مدة السير من سمخ الى حيفا أكثر من ساعتين . ولقد برحنا الاولى منذ صعد الينا أضيافنا أو مضيفونا . فبلغنا الثانية والليل ينتصف ، بتنا بقيته في بعض الفنادق . ثم تفرقنا في الصباح ، زائرين ومزورين ، وجائلين ومنزوين

في حيفا :

رافقني في حيفا صديق حميم ! مغرم بمحادثتي ! مغرى بملازمتي ! مولع بمماشاتي زعم أن صداقتي معه غير حديثة العهد بل ترجع الى تاريخ طويل سرد لي مبادئه وخواتيمه .. ولكن ، قبح الله ذاكرتي فقد خانتني . فكأني لم أعرفه ولم أره قبل رحلتي هذه . وقد حاولت كثيراً ، وكثيراً حاولت — كما يقول بعض كتابنا

اليوم ـ أن أذكر شيئاً عن هذا الصديق العتيق في أيامي الخالية فلم ألهم . فعدت الى تقدير أن اجتماعنا كان في غير هذا الجيل ولعله في صورة غير صور البشر على رأي القائلين بالتناسخ . . !

رأيت في هذا الصديق حباً للأدب واكراما للضيف عجيبين . فقد بلغني وأنا لا أزال في حيفا أن معروفاً الرصافي الشاعر المشهور قد أرست به احدى البواخر في ذلك الثغر وأنه لا ينوي النزول به . فعزمت على زيارته . فنهضت باكراً . ومشيت متوارياً أريد الشاطيء فكأني والصديق العتيق على ميعاد ! ...

قال : اين وجهتك ? فقلت البحر ! قال : وما تصنع ? قلت : ازور صديقاً لي فقال : ومن هو ? قلت الرصافي — وما أتممتها ، حتى صاح صيحة خلت أن الله قد اراحني منه بالاغماء عليه فيها . . وأردفها بقوله : الرصافي ! الاديب ، الشاعر هنا ? هلمّ الى زيارته . . فلنخض البحر للتمتع بأدبه . . فمضينا . .

ووقفنا على الشاطيء فاردت أن نركب مع جماعات الراكبين . فأبى عليّ ذلك وأسرع فنادى صاحب احدى السفن الشراعية قائلا : الانفراد أفضل ! تفضل ياسيدي ! ليس من الجائز — وأنت ضيفي ! — أن اوافقك على الجلوس في ذلك المزدحم . فتمتمت كلمات ، ونزلنا بعد أن دفعت الاجرة جنيهاً . ولقينا الرصافي ، فسلمنا وتكلمنا والتحفظ ملء افواهنا . . !

سألني معروف عن بيت قلته في دمشق :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله   إن لم يحلّ وثاقه وعقاله

فقال : لقد سمعت هذا البيت وعجبت منك كيف لم تردفه بثان ، فقلت : بل هو مطلع قصيدة . قال لم اسمع غيره وقد زدت عليه هذا البيت :

ملك نزا نزو الغراب وإنما   في الرأس لا في رجله عقاله !

فضحكت لما في بيته من النكتة وانصرفت مع صاحبنا .. مودّعين !

الصديق العزيز لم يكتف بأن لازمني بضعة عشر يوماً في حيفا بل أراد أن يخدمني في غيرها أيضاً . . وهذه غاية الوفاء والاخلاص في الود ! !

علم مني أن في نفسي الرحيل الى مصر فوثب متطوعاً فكتب رسالتين الى

رجلين زعم ان له بهما صلة ودّ في مصر ، اوصاهما بي ! فتناولت الرسالتين متظاهراً بالشكر . ولم ألبث أن مزقتهما بعد أن قرأتهما . .

وفي حيفا علمت أن الملك فيصلا ما كاد ركابه العالي يهبط دمشق آيباً اليها من « درعاة » حتى تناول في قصره بأقصى « المهاجرين [1] » كتاباً بالافرنسية هذه ترجمته :

« دمشق في ٢٧ يوليو ٩٢٠

« من الكولونيل تولا [2] رئيس البعثة الفرنسوية الى صاحب السمو الملكي
« الامير فيصل بدمشق :

« أتشرف بابلاغ سموكم الملكي قرار الحكومة الفرنسوية وهو أنها ترجو
« منكم مغادرة دمشق باسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وبطانتكم
« وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يبرح محطة الحجاز غداً
« ٢٨ يوليو الساعة الخامسة . وارجو ياصاحب السمو الملكي ان تقبلوا مزيد احترامي
— تولا —

ولما لم يكن لجلالته مناص من الموافقة ، اذعن مضطراً ، وبرح دمشق ، صباح ٢٨ يوليو متجهاً الى درعاة حيث تلقى من رئيس وزارته (قبل ثلاثة ايام) علاء الدين بك الدروبي برقية يقول فيها :

« ان السلطة العسكرية تبلغ جلالتكم أنها تطلب خروجكم من حوران ،
« وأنها وضعت تحت أمركم قطاراً فاذا لم تفعلوا ذلك ضربت قنابل طياراتها
« قرى حوران . . »

فرد عليه رئيس أمناء جلالته قائلا :

« إن جلالة الملك لا يريد أن يصيب الاهلين ضرر ما بسببه »

وتبع ذلك تحليق عدد من الطيارات الافرنسية في سماء حوران ألقت على أهلها منشوراً تنذرهم فيه بوجوب رحيل (الامير) فيصل قبل انقضاء عشر ساعات

---

(١) من احياء دمشق . — (٢) كان تولا مرافقاً (ياوراً) للملك فيصل

وإلا أصلتهم نارها الحامية وخربت قراهم وبيوتهم . . فأبرق جلالته الى حكومة دمشق بعزمه على مغادرة حوران مساء السبت (٣١ يوليو سنة ١٩٢٠) وأصبح يوم أول أغسطس (آب) في حيفا .

أخبرني من لا أشك بصدقه أنه رأى الملك فيصلاً يتمشى في منزله بحيفا ويتمثل قائلا :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته   وكل من لا يسوس الملك يخلعه .. !

من حيفا الى القاهرة :

عز على حكومة حيفا بعد أن وقفت على حقيقة وفدنا الكريم واختبرت أخلاقه وآدابه بما نقله اليها أمثال صديقي – العتيق – أن تأذن لنا بالانصراف والبراح . وأبت إلا التعلق بأذيالنا واستبقاءنا الى حين فكان مثلها معنا مثل الانسان يبكي يوم يرى العالم ويبكي يوم يفارقه !

ألححنا بسؤالها الاذن فلم يجد الالحاح ، وتوسط في الأمر ناس فلم ينفع التوسط ، قلنا : ومتى يحلّ الدقال ؟ فقالت : حتى يأذن الله والنبي [1] . . فعمدت الى الحيلة ، وقد سئمت الانتظار والتريث ، ورأيت من آثار برودة الدم الانكليزي مالاطاقة لي به ولا صبر عليه . . فتهيأ لي بعد التفكير والكدّ ، والتشمير عن ساعد الجدّ أن أختلس السفر خلسة والقوم في غفلاتهم ، فكتمت الأمر الى قبيل نصف الليل ، وحملت حقيبتي مهرولا الى موقف القطار ، فقطعت جوازاً بالركوب (تذكرة سفر) في الدرجة الاولى ، وما كانت عادتي ان اركب في غير الثانية ولكن خلوّ الثانية من سرير للنوم ألجأني الى اختيار الاولى . . فنمت !

واستغرقت في النوم – او في السرير – حتى اصبح الصباح واستوى المسافرون على مقاعدهم في القطار ، وأنا مزمّل بدثاري اراقب الذاهب والآيب أكاد أحلم يقظاناً كما يقول السيد البكري [2] شفاه الله :

(١) اللورد اللنبي المندوب البريطاني السامي بمصر ، وكان حاكم حيفا قد كتب اليه يسأله عما يصنع بالقادمين مع الملك فيصل (٢) السيد توفيق البكري شاعر فحل وأديب كبير أصيب بمرض في أعصابه فكان هذا البيت آخر ماقاله من الشعر قبل دخوله مستشفى « العصفورية » في بيروت حيث لايزال الى اليوم .

قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا !

تظاهرت بالنوم خشية أن يراني من يعرفني ولا سيما الصديق العتيق . . فيستوقفني قبل أن أستلم الطريق !

وتحرك القطار فتحركت . ومشى فجلست . وليس في خبر الرحلة من حيفا الى القاهرة مايجدر بي أن آتي عليه إلا وقفة صغيرة في القنطرة :

للحكومات حق في أن تسأل الركاب عن الاماكن التي سينزلون بها . وفي عملها هذا فائدة للامن وللصحة العامة . ولكن القوانين قد لاتراعي الاحوال التي يسمونها « الاستثنائية » فهي تعتبر كل قادم على بلد عارفاً بمحله ومرتحله منظما برنامجه ، حاسباً حسابه . . ولا تلتفت الى أن عدداً يكاد يبلغ حد الوفرة من المسافرين ، يضربون في البلاد ضرب المقامر ، همهم ان يلقوا عصا التسيار ويبلغوا وجههم من الديار ! وهناك لا يبالون اين ينزلون . يأتون المدينة فيعترضهم صاحب فندق فيمضي بهم او صاحب بيت فيمضون معه أو يلتمسون في فجاجها مأوى يؤويهم ما داموا فيها .

ولقد كنت لسوء الحظ من الفريق الثاني في رحلتي هذه ـ فقط ـ فأقبل المفتش يسألني أسئلته المعتادة حتى انتهى الى السؤال عن المكان الذي أنوي النزول فيه . فحرت بماذا اجيبه . . وترددت قليلا . . ثم لاح لي أن أحد من أعرف في حيفا كان قد سمى لي فندقاً بالقاهرة اسمه « ناسيونال » وآخر سمى لي فندقاً ثانياً اسمه « الكلوب المصري » فذكرتهما للمفتش . فعجب ثم ابتسم ! فسألته عن سبب عجبه فقال : لقد سميت لي فندقين مختلفين في حالهما كل الاختلاف . وأبان لي ما بينهما من الفرق في عرف المسافرين وأهل مصر فاعتذرت اليه بجهلي المكان الذي أختاره بعد بلوغ القاهرة . فقبل عذري ولكنه (مراعاة للاصول) قيدني في زمرة من سينزلون في « ناسيونال » وإن لم أزمع ذلك . .

وليست هذه الأحدوثة وحدها مما يدل على طرائق الموظفين في تطبيق النظم والقوانين فان أمام الباحث مواقف كثيرة يعلم منها أن معظم ما بين أيدي الناس من أنظمة الحكومات إنما وضع ليكون دليلا للموظف لا قانونا . . وأن باب الاجتهاد

واختيار الاصلح لا يزال مفتوحاً على مصراعيه أمام الموظفين

ومن هنا يتبين ما على رؤساء الاعمال من الواجب الكبير في اختيار ذوي النظر والدراية والامانة من جمهور المتقدمين لتسلم الوظائف وتسنم المناصب، وفي صغار الامور صور من كبارها.

اجتزت القنطرة . وأقبلت على القاهرة . والدهشة من مناظرها الاولى قابضة على مقاليد عقلي . واذا بصوت يرتفع منادياً باسمي . فانتبهت وأطللت من النافذة محدقاً في من أرى . فسرّى عني بعض ما أنا فيه لقاء صديقي" نصوحي البخاري معتمد حكومة سورية التجاري بمصر وأمينه (سكرتيره) عابدين الحشيمي . فلم أرفع عنهما بصري حتى قرقرار القطار . واعتنقنا ـ على العادة ـ تسليما وتقبيلا !

بت تلك الليلة في الطبقة الخامسة من الفندق الخديوي (كيديفيال) ونهضت في الصباح عاشر أغسطس (آب) سنة ١٩٢٠ فتجولت في ما حول ذلك النزل من الشوارع والاسواق أرى ما يراه كل غريب مثلي هبط مصر قبل أن يعرف غيرها من كبريات المدن والعواصم . والخوف من أن أضل الطريق يشغلني عن رؤية كثير مما أنظر اليه . .

في القاهرة :

ليس التعريف بالقاهرة مما يستطرفه القارىء فأفرد له جانباً من هذا الكتاب. وله أن يطلع إن شاء على الوف المصنفات في لغة العرب وغيرها ، مما اشبع القول فيه بحثاً وتحقيقاً في تاريخ حلقة الاتصال بين مدنية المشرق والمغرب في عصرنا الحاضر، ووصفها والتغني بجمالها والاشادة بذكرها . أما انا فما يعنيني إلا أن انقل عن « مفكراتي » بعض ماشتملت عليه مما يلذ غيري ويفكهه وقد يفيده !

المطاردة :

نادى باعة الصحف في القاهرة معلنين عما في صحفهم باصواتهم المختلفة : « حكم الاعدام بالشام » فدعوت احدهم فتسابقوا الي ، ديدنهم في كل يوم ، فتناولت احدى تلك الصحف من احدهم وأجلت فيها نظري فاسمع — أيها القارىء الكريم — ماقرأت :

دمشق في ١٢ اغسطس ٩٢٠

تناقل الناس يوم أمس نبأ فزعوا منه بآمالهم الى الكذب ، ومالبث هذا النبأ أن اذيع حتى اخذ الناس يزدحمون أمام الجدران ليقرأوا اعلاناً علق عليها وفيه :

« قرر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثه من الجيش الافرنسي في الشرق »
« والمنعقد في دمشق في ٩ أغسطس أن الاشخاص الآتية اسماؤهم مجرمون »
« بالاتفاق والتحريض ، لكونهم عملوا الدسائس والتفاهم مع اعداء الحكومة »
« الافرنسية لتسهيل مقاصدهم . لذلك حكم عليهم غيابياً بالاعدام ومصادرة املاكهم »
« ويعتبر هذا الحكم نافذ الاجراء منذ ١٠ أغسطس ٩٢٠ »

وهنا اورد الكاتب اسماءهم وأعقبها بقوله :

تلا الناس هذه الاسماء فتولاهم الوجوم ، واخذوا يتعجبون لتقلبات الايام وعبر الزمان ، ويعملون الفكرة في ماهم مقبلون عليه من الحوادث الجسام . وقد عقد المجلس العسكري جلساته في دار المؤتمر السوري . وليس اصحاب هذه الاسماء هم المطلوبون وحدهم بل هناك أسماء اخرى تعد بالمئات ، فيها الدنادشة والعامليون وغيرهم اه .

واليك الاسماء مرتبة كما جاءت في الأصل مع التعريف بأصحابها :

١) الشيخ كامل القصاب : من علماء الدين الناهضين وعضو في اللجنة الوطنية بدمشق
٢) علي خلقي : من ضباط الجيش التركي ثم العربي
٣) احمد مريود : شاب متعلم ناهض من زعماء الوطنيين
٤) الامير محمود الفاعور : زعيم عشيرة الفضل في بادية الشام
٥) فؤاد سليم : من ضباط الجيش العربي
٦) صبحي الخضرا : من ضباط الجيش العربي
٧) صبحي بركات : من زعماء سورية الشمالية
٨) منح هارون : مندوب اللاذقية في المؤتمر السوري
٩) عوني عبد الهادي : أمين خارجية الحكومة السورية العربية

١٠) شكري الطباع : تاجر . ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق

١١) سليم عبد الرحمن : من أهالي طول كرم بفلسطين

١٢) عمر البهلوان : تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق

١٣) عثمان قاسم : كاتب صحافي جريء

١٤) سعيد حيدر : من علماء الحقوق ومندوب بعلبك في المؤتمر السوري

١٥) عبد القادر سكر : تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق

١٦) خليل بكر ظاظا : من ضباط الجيش العربي

١٧) حسين رمضان : من زعماء الاكراد في دمشق

١٨) الامير عادل ارسلان : مستشار الملك فيصل . وأحد الزعماء المعروفين

١٩) محمد اسماعيل : قائد فرقة حلب في الجيش السوري العربي

٢٠) رشيد طليع : مدير داخلية الحكومة السورية العربية ثم والي حلب

٢١) إحسان الجابري : رئيس أمناء الملك فيصل

٢٢) احمد قدري : طبيب الملك فيصل الخاص

٢٣) رفيق التميمي : مؤرخ . ومن أعضاء المؤتمر السوري

٢٤) توفيق اليازجي : صاحب جريدة الدفاع

٢٥) رياض الصلح : وجيه متعلم من المشتغلين في القضية العربية

٢٦) توفيق مفرج : كاتب . من اعضاء المؤتمر السوري

٢٧) خير الدين الزركلي : صاحب جريدة المفيد ـ ومؤلف هذا الكتاب

٢٨) محمد علي التميمي : من كبار المحامين

٢٩) بهجة الشهابي : مدير شرطة دمشق

٣٠) نديه العظمة : مدير شرطة حلب

٣١) شكري القوتلي : من وجوه دمشق ومتعلميها

٣٢) خالد الحكيم : مهندس . وعضو في المؤتمر السوري

٣٣) ياسين دياب : تاجر . ومن اعضاء اللجنة الوطنية في دمشق

واليك اسماء من تناولهم الحكم نفسه ممن لم يذكروا في هذه القائمة :

٣٤) احمد سامي السراج : صاحب جريدة العرب في حلب

٣٥) منيب الناطور : صاحب جريدة الراية في حلب

وشمل الحكم نفسه الآتية أسماؤهم من أهالي جبل عامل :

٣٦) صادق حمزه
٣٧) محمود احمد بزي
٣٨) رياض محمد حسن فرحات
٣٩) عبد المجيد محمد بزي
٤٠) محمود فرح سليمان
٤١) موسى بوزقلي
٤٢) الشيخ عبد الله عز الدين
٤٣) طرفه حاج فياض شراره
٤٤) محمد سويدان
٤٥) أدهم خنجر
٤٦) علي حرب
٤٧) محمود قاسم
٤٨) عبد الحسين سرور
٤٩) نمر بليوز
٥٠) محمد تامر
٥١) سعيد يوسف تامر

وحكم بالحكم نفسه على زعماء الدنادشة من سكان « تل كلخ » :

٥٢) مصطفى العبد الله
٥٣) اسعد الفياض
٥٤) خالد الرستم
٥٥) عبد الله الكنج
٥٦) حسن الابراهيم
٥٧) اسعد الابراهيم
٥٨) ذباج الاحمد

وهناك أحكام بالنفي والمصادرة كثيرة ، أتى على بعضها مكاتبو الصحف ، حسبي أن أشير اليها .

جن جنون الافرنسيين في سورية ! فلم يكفهم أن كانوا الجناة على استقلالها ، القاتلين حريتها ، الوائدين نهضتها ، العائقين لها عن السير في سبيل الحياة ، الباذرين في قلوب بنيها بذور البغضاء والشحناء . . بل زادوا على ذلك كله مطاردة من شاء لهم الهوى أن يطاردوه من شبان سورية واحرارها ، فاعلنوا أحكامهم الجائرة !

ليت شعري ! أذلك مصداق البلاغ المشترك الذي اذاعته الحكومتان البريطانية والفرنسوية يوم ٧ نوفمبر ٩١٨ - ونصه :

« إن الغرض الذي ترمي اليه فرنسا وبريطانيا العظمى بمواصلتهما في الشرق تلك الحرب التي أثارها الطمع الألماني هو تحرير الشعوب التي طالما ظلمها الترك . تحريراً نهائياً . وتأسيس حكومات ومصالح أهلية تبني سلطتها على اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم . وتنفيذاً لهذه النيات قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح اهلية في سورية والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما في البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها . وعلى مساعدة هذه الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلاً . . والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من النظامات . . وانما همهم أن يحققوا بعونهم ومساعدتهم النافعة . . حركة الحكومات والمصالح التي ينشئها الاهالي لانفسهم مختارين حركة منتظمة . وأن يضمنوا لهم قضاء عادلا واحداً للجميع . وأن يسهلوا انتشار العلم في البلاد وتقدمها اقتصادياً بتحريك همم الأهالي وتشجيعها . وأن يزيلوا الخلاف والتفرق الذي طالما استخدمته السياسة التركية . . ذلك هو ما أخذت الحكومتان الحليفتان على نفسيهما مسؤولية القيام به في البلاد المحررة . » اه

ليت في الناس من يستطيع التوفيق بين مواد هذا البلاغ — على ما فيه من عرج وعوج ! — وبين ماتقوم به احدى تينك الحليفتين في ارقى قطر سمتاه محرراً ؟

لندع هذا وذاك . ولنعد الى ما كنا فيه . فمجال الجدال واسع وميدان المناقشة فسيح . وفي مساوىء الحليفتين هنا وهناك ما فيه الغنية عن الاسهاب .

قرأت خبر الحكم بالاعدام . وتأملت في أسماء المحكوم عليهم . ورجعت الى ذاكرتي أسألها عمن بقي في قبضة المحتلين ومن كتبت له النجاة . فابتهجت بالنازحين وأشفقت على الباقين وأدركت أن هذه القائمة هي التي اطلع عليها من أوعز إلي بالرحلة يوم احتلال سورية . فهنأت نفسي بالسلامة اذ كنت من الناجين !

الحكم الغيابي بالاعدام رهيب الوقع على بعض النفوس . مثير لكامن الضعف فيها . ولكن سرعان ما يعلم المحكوم به عليه أن للوهم صولة وتضمحلّ . وللارهاب دولة وتدول . زد على ذلك أن السوري بعد أن عرضت أمامه المشانق أربع سنين متواليات ، وصلب عليها من اخوانه واخدانه العدد الوفير لم يعد حكم

الاعدام مما يخيفه أو يثبط عزمه . فليلتمس محتلو سورية طريقة ثانية لبث الرعب في الا فئدة ، وإماتة الشعور الحساس في النفوس ، وقتل الايمان الوطني في القلوب . . ليلتمسوا أسلوباً آخر لا يصيب الأجسام فانها ذرات تفترق وتجتمع ، ولكن يصيب الارواح فان فيها المقاتل . . وهيهات ! عبثاً يحاولون وسدى ما يعملون . . !

***

اقمت في القاهره نيفاً وشهرين توافد في خلالهما عليها اكثر من برح سورية إثر احتلال الافرنسيين لها . واتفق أن خطر لي ولزميل لي في الصحافة أن نكتب خطاباً الملك حسين ، نعرفه فيه ببلوغنا مصر ونسأله عما هو مزمع عمله لمقاومة ما احدثه الاحتلال في سورية من سوء المغبة . فكتبنا . .

ومضت ايام يسيرة فاذا بصديق لي يخبرني أن معتمد حكومة الحجاز في مصر يبحث عني ويريدني . ولم اكن ممن زاروه قبل ذلك اليوم . فذهبت اليه ، فعلمت منه أن الملك حسيناً يدعوني لضيافته ويسألني هل أقبل الدعوة ام اوثر الاقامه بمصر . فاجبته بالانشراح الى مشاهدة الاماكن المقدسة وزيارتها . فأبرق اليه بذلك منبئاً جلالته بأن سفري سيكون في الباخرة « منصورة » وأنني سأبرح السويس في ٢١ سبتمبر (ايلول) ٩٢٠ وقال : تهيأ . .

لم اكن أجهل أن اول شيء يجب على مزمع السفر أن يفكر فيه هو الحصول على جواز يبيح له الخروج من بلاد حكومة والدخول في ثغور سواها ، وما كنت لا طمئن الى الجواز الذي تخطيت فيه حدود فلسطين . فراجعت معتمد الحجاز واوضحت له أن اضطراري للاسراع في مغادرة دمشق والخوف من أن ينالني اذى حكومتها قبل السفر . قد حالا دون الفوز بالجواز المقبول . ورجوت منه ان يحشرني في سواد التابعين لحكومته الهاشمية . فأشار إشارة السرور والرضى . وأمر فأخرج لي جواز دل على أنني حجازيّ النسبة (التابعية) دمشقي المولد ، سعيت به الى دار الجوازات في القاهرة فلم تسعفني بتصديقه وإمضائه . وحجة موظفها في ذلك ادعاؤه المعرفة الخاصة بي . فعاقني عمله يسيراً وهيأ الله لي فرجاً اجتزت به المضيق فلم أبرز الجواز إلا في جدة !

من القاهرة الى مكة

هممت أن أبرح القاهرة صباح ٦ محرم سنة ١٣٣٩ هـ (٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ م) لادرك الباخرة « منصورة » قبل موعد سفرها ، وكنت مقيما يومئذ في مصر الجديدة « هليوبوليس » فدعوت من حمل لي حقيبتي وخرجت أريد القطار الكهربائي (المترو) حتى بلغته وهممت بصعوده فأبى مفتشه عليّ أن أصحب معي الحقيبة ، معرضاً عن كل تصريح وتعريض ورجاء وتوسل وبذل وعطاء . وضرب جرسه ، فهب هبوب الريح وأنا أنظر اليه وللغيظ والحنق في نفسي مالهما .. فأرشدني مقبل علي لتوديعي الى أن هناك على مقربة من موقف « المترو » سيارات اعتاد أصحابها أن يقفوا بها ، وأسرع فعدا ، ثم عاد فبدا راكبا سيارة قفزت اليها ، وطارت بنا تعصف وتقصف حتى أقبلنا على محطة القاهرة ، ودخلنا ، فاذا دخان القطار مرتفع ، فشيعناه بالنظرات والحسرات .. ! !

أصبحت شديد الحرص على ألا تفوتني هذه الباخرة ، لثلاثة أسباب ، الاول : أن معتمد الحجاز قد أبلغ جلالة مليكه أن حضوري سيكون فيها . والثاني : أنني ودعت الاصدقاء وودعوني . والثالث : أنني كنت قد أهملت حلق لحيتي نحو أسبوع فان ظللت في القاهرة ذلك اليوم أضطررت الى ازالة ما توفر منها ! . وليس بالسهل تجديده !

فانطلقت الى سيارة كانت على باب المحطة . فطلبت من صاحبها أن يسافر بي إلى السويس . فنظر اليّ . . وكأنه أدركه العجب من هذا الطلب !

فقلت : كم تريد من الاجرة ؟ فقال : عشرين جنيهاً . . ؟ ـ قلت : ويحك ! عشرة تكفي . فلم يعبأ بجوابي . فانصرفت الى غيره و بذلت اثنى عشر جنيها فلم أفلح . وعسر علي أن أفتتح الرحلة بمثل هذه النفقات الباهظة . فحوقلت وسبحلت وعدت أدراجي !

كدت أيأس من سفري هذا في يومي ذلك لولا أن شجعني معتمد الحجاز على المضي في قطار الظهر فمضيت ، وأنا على مثل اليقين من أن الباخرة ستفوتني لعلمي بأن القطار يبلغ السويس بعد ربع ساعة من إقلاعها . ولم أدر ما ينتظرني في

محطة « النمسا » آخر محطة قبل السويس للذاهب من القاهرة . .

وصلت الى محطة النمسا ، ففاجأني انسان يحمل ورقة كتب اسمي بها يسأل عني . فكدت انكر نفسي ثم رأيت أن ألبيه ، فاجبته . فبادر الى حقيبتي – ولا اعلم مايريد منها – فانتزعها من القطار انتزاعاً واسرع قائلا : الحقني ياسيدي ! فنزلت اعدو خلفه . فبصرت بسيارة ينتظرني فيها أحد تجار السويس فركبتها . وانطلقت بنا انطلاق السهم من بين قابين . ثم اخبرني التاجر أن معتمد الملك كلمه بالهاتف (التلفون) وانبا بركوبنا السيارة سندرك الباخرة قبل مسيرها . وكان الامر كذلك

اخترقت بنا « المنصورة » أمواج البحر الاحمر – وان شئت فسمه بحر القازم كما كان أسلافك يسمونه – وكانت هذه أول مرة ركبت بها البحر ، فجعلت أنظر يمنة ويسرة نظر الواله الحائر المشدوه . التمس مسافراً تطمئن اليه نفسي ولكن كان موسم الحج قد انتهى ، وكانت البواخر تذهب فارغة من مصر لتحمل من بقي من الحجاج في جدة . فأوحشتني العزلة وكنت آنس بها . وضاق صدري وما كنت لأعهده يضيق . فتناولت كتاباً ادخرته لمثل هذه الليالي فجعلت أقلب صفحاته لا أفهم ماذا أقرأ . وعدت الى المشي سبهللا في طول الباخرة وعرضها ، والقمر المتلألىء في كبد السماء ، سمير من لا سمير له وانيس من فقد الالف والخليل !

مضى بعض الهزيع الاول من الليل وكأن الله ارسل اليّ انساناً لم اعرفه ولكني ملت اليه مقبلا عليه ، فحييته . فاجابني . وحادثته فلذ لي حديثه . وما مر على اجتماعنا بضع دقائق حتى اخذت اسمع منه شعراً وأدباً فازددت به أنسا . وسررت حين علمت أنه أحد المشتغلين في الأدب واسمه « حسني العامري » وله كتاب مطبوع في أخبار شعراء العصر . وهو يحفظ كثيراً من شعر البدو وقصصهم . وسألته لعل وجهته جدة . فأجابني أن موعد نزوله من البحر الصباح . فأسفت !

اصبح اليوم الثاني فمررنا بالطور . وفي الثالث اجتزنا ينبع . واخيراً ، بلغنا جدة (بضم الجيم) فارست بنا الباخرة في مكان بعيد عنها وأقبل عمال المرفأ واصحاب الزوارق متسابقين . فجعلت أنظر لعل أحداً اعرفه فاذا بقسطنطين يني من أدباء

سورية يرحب بي . فنزلت . وكنت بعد عشرين دقيقة في الشاطئ حيث انصرفت الى دار ضيافة الملك ، والقيم عليها يومئذ قسطنطين .

تجردت في دار الضيافة من ثيابي وتلفعت بحرامين قطنيين وتوضأت ناويا الاحرام واحتذيت قبقاباً حجازياً لا يدخله من الرجل غير باهمها وتمشيت الى السوق أتعثر وأتسكع الى أن بلغت دائرة المكوس (الجمارك) ولقيت مديرها فسلمت عليه فعرفني وكان قد علم بوصولي ، فبادر الى هاتفه فضرب جرسه وتسمع ثم نهض قائما يردد كلمة : لبيك ! لبيك ! فلم أشك في أنه يحادث جلالة الملك ، فصبرت الى ان انتهى وقد أخبره بحضوري فأبلغني أن جلالته يأمر أن أبرح جدة في ذلك المساء متوجها الى مكة وانه قد أمره بالمحافظة على راحتي والعناية بي ، فقلت في نفسي : كانت راحتي تقتضي أن أبيت في جدة ولكن هكذا أراد الملك ولا مرد لارادته في الحجاز !

وبعد ساعة واحدة كانت الشمس قد مالت للغروب وكان مدير المكوس قد أعد لي ركوباً يعرفه كل من يجتاز هذه المرحلة بين الثغر وأم صبح [1] فركبت يصحبني خادم أو دليل — لا أدري ! — وعهدت الى قسطنطين بارسال ثيابي وأمتعتي الى مكة مع الجمالة !

تنقلت في ذلك الوادي المكفهر بين رمال وتلال ، وقد أثر بي تتابع السير بحراً وبراً حتى كان منتصف الليل فنزلنا في قهوة — أو مقهى كما يسميها بعض كتابنا — وراودت نفسي على الطعام فأبت إلا كأسين من الشاهي (الشاي) واستلقيت أهم بالنوم ، وطائي الأرض وغطائي السماء . فلم يعلق في جفني أثره حتى كان الخادم يوقظني . فسألته عما بدا له . فقال : الراحة هنا ساعتان ! فنهضت متلكئا متكسراً ، أتوكأ على رفيق الطريق ، وأمسك لي رقبة البهيم ليمنعه من الجري اذ كان عنانه حبلاً لففناه على عنقه ! فركبت واستأنفنا السرى

بزغت الشمس ، ومكة منا على قاب قوسين — في ما تراءى لي — أو أدنى .

---

(١) من اسماء مكة و يقال لها ايضاً : بكة وام القرى والبلد الامين وغير ذلك .

فالتمست ممن معي أن يأذن بالراحة قليلا فأقنعني بأن ما بيننا وبين مكة لا يقل عن ساعتين وخوفني مسّ حرارة الشمس اذا هي قاربت كبد السماء . فاستمر بنا السير متصلا بالسرى الى ان كنا على أبواب أم القرى . . وهنا سألني الدليل : أين تريد النزول ؟ فتذكرت ساعة القنطرة .. وسألته : أليس بمكة فندق ؟ فقال : لا ! فقلت : لننزل في الحرم !

واخترقنا منازل مكة والضحى في رأده . فبلغنا الحرم وأكرمت الدليل فانصرف بعد أن حملته ورقة كتبتها الى مدير صحة الحجاز الطبيب نديم صلاح وكان قد سمي لي في جدة

دخلت الحرم من أقرب أبوابه اليّ ودنوت من الكعبة فاستقبلني أحد الجالسين حولها وقد رآني محرماً فسألني هل أريد الطواف . فقلت : أما الساعة فلا . . وسقطت على حصباء البيت العتيق والألم من متاعب ليلتي آخذ من جسمي مأخذه

أجلت النظر في ذلك البناء المقدس فراقني مشهد الطائفين حول قبلة عالم الاسلام . ولذني مرأى الحمائم تزدحم وتقتحم وتروح وتغدو آمنات كل أذى راتعات في كل جانب . حرم الله صيدها فتوالدت وتكاثرت وأنست بالانسان فمنعها الله كيده وشره . وقديما ضربت العرب أمثالها بأمنها وألفتها فقالت « آمن من حمام مكة » و « آلف من حمام مكة » . وقال النابغة شاعر الحجاز :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها   ركبان مكة بين الغيل والسند !

وبينا أنا مستلق على الصعيد . أتقلب ذات اليمين وذات اليسار إذ طلع علي شاب في رداء أبيض ملتف بعباءة رقيقة اسود اللحية لم أعرفه الا بعد أن رفع صوته بالترحيب . فأجبته والدهشة من لقائه ملء نفسي : يوسف ! يوسف ! [1] أأنت هنا ؟

واعتنقنا فكانني أنسيت كل ما لقيت وجلس الى جانبي فحدثته بخبري منذ

---

(١) يوسف ياسين من أدباء سورية ، لاذقي المولد . سكن الشام . وفارقها يوم الاحتلال

برحت دمشق وحدثني بخبره منذ برحها . ثم أعلمني انه اطلع على ما كتبته الى مدير الصحة فسبقه الي . و لبثنا نتجاذب أطراف الحديث والحديث شجون فقال : هلم لنطف حول الكعبة . فنهضت وقد قل ما كنت أشعر به من الألم . فلم نخط خطوات حتى سمعت زمجرة وتمتمة فالتفت فرأيت أحد المطوفين ـ وهم كثيرون ـ وسمعته يقول : يريد هؤلاء أن يقطعوا أرزاقنا ! ففهمت أن نفسه حدثته بأن يوسف سيقوم مقامه في الطواف بي حول الكعبة . . فضحكنا منه وأسرعت الى نقده ما تيسر من النقد فقفل شاكراً !

في المخلوان :

قال يوسف وقد انتهينا من الطواف وعدنا الى الاستراحة والحديث : ألا تزور سيدنا ؟ فقلت : وعلى هذه الحال ؟ قال : نعم ! فقلت : لنفعل . وقمت وليس علي غير لباس الاحرام ، فمشينا دقائق معدودات انتهت بنا الى « دار الحكم » وهي قصر فخم قديم البناء دخلناه وصعدنا درجاته ثم جلسنا في بهوه وبادر المضايفي (١) واسمه سعد فقصد « المخلوان » حيث كان يخلو جلالة الملك بنفسه وزواره ، فأنبأه بنا فخرج الاذن بالدخول فدخلنا .

المخلوان غرفة صغيرة في جانبها الايسر هاتف (تلفون) وفي وسطها بضعة كراسي خيزران ، ينحرف داخلها الى يساره فيرى أمامه دكة مستطيلة ، في صدرها نافذة كبيرة تطل على الشارع ، وعلى تلك الدكة يجلس جلالة الملك وبين يديه منضدة صغيرة عليها دواة بلورية وقلم من نوع القصب المعروف في بعض سورية باسم « الغزّار »

دخلت على جلالة الملك فنهض قائماً فأقبلت على يده لأقبلها فبسط يديه قابضاً بها وجهي فقبلتهما من باطنهما وما كنت عالماً بشيء من اسرار تقبيل اليد في ذلك القصر . وكان اول ما كلمني به جلالته قوله : بلادكم يا ابني ! هذه بلادكم يا ابني ! فدعوت له . وامرني بالجلوس فجلست ، وهممت بالاعتذار لحضوري بثوب الاحرام فادرك ذلك مني وقال : إن لباساً يختاره الله لحجاج بيته لهو أفضل اللباس !

---

(١) المضايفي في عرف أهل الحجاز كرئيس التشريفات ، وهو الحاجب .

وأخذ يسألني عن حالي وحال بلادي وراحتي في طريقي . فكنت اجيبه . ثم انتبه الى ما انا في حاجة شديدة اليه من الراحة فصفق بيديه فسمعت صائحاً من خارج الغرفة يقول : خير [1] ! ودخل المضايفي ، فسأله الملك : هل هيأت كل شيء ؟ فقال : نعم . فنظر الي قائلا : ستر تاح اليوم في غرفتك ونجتمع في المساء . فقمت الى يده فقبلتها مودعاً وهو يقول : مرحباً مرحباً !

وتوجه بي المضايفي الى مكان في القصر نفسه مؤلف من غرفتين وبهو . احدى الغرفتين للنوم والاقامة والثانية للأمتعة . وجدار غرفة النوم مشرف على الشارع لابناء فيه وانما هو نافذة واحدة كبيرة ذات تقاطيع خشبية لم أر من نوعها في غير الحجاز . وأهل مكة لايكثرون من البلور في نوافذهم بل لايكادون يعرفونه لاستمرار الحرّ عندهم صيفاً وشتاء . وكلّ جدران الغرف ، المطلة على الشوارع ، نوافذ من هذا الطراز .

القيت بنفسي على مقعد في الغرفة فنمت ساعات متتابعات . وصحوت بعدها فاذا الشمس قد دخلت الكوى وبلغت موضع نومي فكانت هي التي أيقظتني بلذعات وهجها

في القصر :

ذلك هو المكان الذي ظللت فيه مدة مقامي بمكة . اتناول فيه الفطور صباحاً وانام الظهر بعد تناول الغداء واقصد جوار « المخلوان » في وقت الغروب . فأصلي المغرب مع الملك وحاشيته وعبيده ومن حضر من أبنائه واحفاده في مصلى خاص . يؤم بنا إمامه الشيخ ياسين البسيوني وهو مصري الأصل مكي المولد والاقامة طاعن في السن رضي الاخلاق والصفات . وبعد الصلاة نجلس للطعام على سفرة جلالة الملك فيترأسها أحد أبنائه أو أحد قدماء أضيافه أو كبير من رجال دولته . وأما الملك فيأكل في المخلوان منفرداً إلا في الولائم الكبيرة الجامعة . وبعد العشاء

---

(١) يستعمل الحجازيون هذه الكلمة بدلا من « نعم » المصطلح عليها في غير الحجاز جواباً من المنادى للمنادي . وهذا التعبير في الحجاز أصح وضعاً وأرشق بيانا .

ننصرف الى ردهة القصر فيتوافد زوار جلالته بينما يكون هو قد أخذ نصيبه من الراحة . ويدعونا فنذهب اليه فيستقبلنا جالساً ونقبل يده ونمكث نحو الساعتين ثم نعود أدراجنا

وداع الامير :

كان الملك حسين كثير التفكير في أمر سورية وما صارت اليه أحوالها بعد رحيل ابنه الملك فيصل عنها. فرأى أن يوفد الى جوارها أحد ابنيه عليّ وعبدالله وعرف ابناه ذلك فتقدم كل منهما الى من يألف من جماعة السوريين المقربين من ابيهما ، يرغب اليه أن يحسن لجلالة الملك ايفاده وإيثاره على اخيه . وهكذا تردد الملك قليلاً ثم كان لالتماس الملتمسين بعض الأثر في نفسه فاختار ابنه عبدالله واوعز اليه بالتهيؤ وأعلمه انه سيكون وكيل اخيه فيصل في ماحول سورية من الاراضي التي لم يحتلها الافرنسيون . وأعلن جلالته ان عبدالله سيكون أمير معان . وهي آخر حدود الحجاز الشمالية . وأصبحنا يوم ١٦ المحرم ١٣٣٩ فنزلنا في موكب حافل يتقدمنا جلالة الملك الى ظاهر مكة حيث ضربت الخيام وتقاطر الناس للوداع من كل ناحية وصوب .

وهناك على منبسط من الارض أمر الملك فمد بساط جلس عليه بعض حاشيته وضيفانه وكنت في جملتهم وابتدأ الحديث فتكلم عن جبل « ثور » وكان قريباً منا وأفاض في أحاديث مختلفة الى أن أقبل ابنه الامير عبد الله مودعاً يصحبه نحو مئة وخمسين جندياً من بدو الحجاز واليمن . ناشرين لواء احمر انتبه اليه الملك فقال مازحاً : غداً يقولون انا بلشفيك !

وتكلم أحد الجالسين فقال : ان العلم الاحمر اللون ، شعار قديم للاشراف سبقوا به البلاشفة وغيرهم . وختم الاحتفال بسفر الامير ومن معه ركباناً على الابل وهو أمامهم ممتطياً جواداً أصهب . وتفرقنا آيبين الى منازلنا . داعين له ولمن معه بالتوفيق ، معللين الانفس باللحوق به ولو بعد حين !

ذكر الطائف :

لم تكن تفوتني الفرصة كلما سنحت لي فأزور المعالم الاثرية والشعاب المعروفة في تاريخ هذه البلاد . حتى كانت احدى ليالي السمر في مخلوان جلالة الملك فعرض ذكر مدينة الطائف وماهي ممتازة به عن سائر بلدان الحجاز . فتمنى أحد السامرين لو يتاح لي ولبعض من هناك من شبان سورية أن نراها . فصادف ذلك قلباً خالياً في الملك ، فتمكن . وكأنه كان يحدث النفس في إراءتنا أجمل بقاع قطره وأفضل كور ملكه ليجمع بين الفضيلتين ، يرينا الطائف زهرة الحجاز ، ويريحنا أياماً مما نعانيه من لفح الحرّ ولذع القيظ ، فارتاح للاجابة وسألني وسأل يوسف ياسين وغيره عن رغبتنا فاجبناه بالامتنان . فصفق بيديه اولا وثانياً . . فلباه المضايفي . فاستدناه ، وأمره أن يهيء لنا في الغد بغالا شداداً . وأخبره بازماعنا الرحلة الى الطائف وعدّد له كل ما يجب إعداده حتى انواع الطعام وأكواب الشاهي! وقال : موعدكم بالرحيل منتصف الليلة القادمة . فأثنينا ودعونا . واتممنا حصتنا من الليل في الكلام على الهدة ووادي نعمان وكبكب وسمار ووج وغيرها مما سنراه ونمر به في رحلتنا هذه ، مبتهجين مغتبطين !



بين مكة والطائف

« بدء الرحلة . في عرفة . الى شدّاد . الى الكر . جبل كرا »

« في الهدة . الى الطائف »

بدء الرحلة :

المنحنى ، غار حراء ، العقبة ، منى ، مسجد الخيف ، غار المرسلات
المزدلفة مضيق الاخشبين ، مضيق المأزمين ، مسجد نمرة

ودعنا ابا قبيس وقعيقعان (١) ، واستقبلنا المحصب (٢) والمنحنى ، قبيل فجر الاربعاء ثامن صفر سنة ١٣٣٩ لاقمر ولا هلال ، ننظر ولا نبصر . حتى اذا اجتزنا منازل ام القرى ، واتسع امامنا رحب المنحنى ، كان لنا من نور الكواكب هدى . ونجوم السماء يعرف من ضيائها ابن البادية وساكن الصحراء ، مالا يعرفه ابن الحواضر والمقيم بين المنازل المتراصّة والدّور المتلاصقة .

بلغنا المنحنى بعد دقائق معدودات ، وهو واد بين جبال ، أول ما يراه بارح مكة ، يستقبل منه جبل النور كما يسمونه اليوم ، او جبل حراء كما كانت العرب تدعوه ، وهو الجبل الذي كان النبي (ص) يتعبد في غاره قبل النبوة وقد صعدناه منذ أيام فاذا هو رفيع الذروة ، عالي القمة ، مشرف على كل ما حوله من جبال مكة وهضابها واوديتها وشعابها ، وفي اعلاه قبة مشيدة (٣) غير قديمة البناء ، ودون ذروته ذلك الغار المهيب الذي سماه احد رفاقنا بالمدرسة الالهية اشارة الى ان النبي (ص) تلقى به الحكمة ، وأنزلت عليه اول آية من آي القران الحكيم فيه . ولقد دخلنا الغار وهو لايزيد عن مترين طولا ومتر واحد عرضاً — خلافاً لما قاله صاحب الرحلة الحجازية (٤) من انه متران مربعان — وأعجبنا آنئذ بناء الغار

---

(١) جبلان متقابلان في مكة . (٢) هو بطحاء مكة بينها وبين منى .
(٣) من قولهم شاد البناء : اذا طلاه بالشيد (٤) هو محمد لبيب البتنونى ، وضعها وصفاً لرحلة عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر الاسبق

على حاله في ترابه وحجارته لم يصبه ما اصاب اكثر الاماكن القديمة من التحوير والتغيير بل هو لم يزل كما كان منذ أربعة عشر قرناً ، غاراً في جبل يمتاز عن أشباهه بارتفاع الجبل الذي هو فيه بحيث لا يرى المستتر به من حر الشمس وتساقط الغيث غير ما حوله من جبال لا تبين إلا كالشعاب واودية لا تلوح إلا كقطع السحاب ، يشعر المقيم فيه بلذة الوحدة وصفاء الانفراد ، ولا يتمالك من الاغراق بالتفكير في عجائب ما تحمل الارض من طود شاهق ، وماء دافق ، وقفر سبسب ، ومرج أعشب !

وكان حراء عن يسارنا في هذه الرحلة ، فواصلنا السير من المنحنى مارّين بالعقبة وهي على نحو ميلين من مكة ، بويع عندها النبي (ص) سنة ١١ للنبوة أي قبل الهجرة بعامين ، وعند العقبة مسجد ، ومنها يرمي الحجاج جمرة العقبة بالحصيات السبع . وما وخط الشيب رأس الظلام حتى كنا على ابواب منى

اخترقنا منى ، والناس على أهبة النهوض من الهجود ، ولم ننزل بها غير أن آثارها كانت تترجم لنا عما لهذه البليدة من الشأن في أيام موسم الحج ، فرأينا مناخ المحملين الشامي والمصري ، ورأينا مقر الاسرة المالكة في أيام الحج ، ولاحت لنا منازل منى عامرة إلا من السكان فانها تناهز الفاً وخمس مئة دار لا تسكن في غير مدة الموسم ، وفيها مسجد الخيف ويسمونه مسجد الحسين .

قال النابلسي في رحلته [1] : قال القطب المكي في كتابه الاعلام عند ذكر السلطان قايتباي من ملوك الجراكسة : « وفي اواخر سنة ٨٧٤ هـ والتي قبلها بنى السلطان المذكور مسجد الخيف بناءً عظيما محكماً ، وجعل في وسط المسجد قبة كبيرة هي حد مسجد رسول الله (ص) في خيف منى ، وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبي (ص) وجعل للمسجد خوخة صغيرة الى الجبل الذي في سفحه غار المرسلات ، وهو الموضع الذي انزلت فيه سورة المرسلات ، وفي هذا الغار مكان غائص في الصخر يضع الناس رؤوسهم فيه — قال النابلسي

(١) الرحلة الكبري التي سماها « الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز »

عند ذكر وصوله اليه : فوضعنا رأسنا لاجل البركة ، وكذلك الجماعة . . - وقال المكي في الاعلام : « ذكر الحافظ ابن الجوزي أن في مسجد الخيف على يمين الذاهب الى عرفات في هذا الغار - غار المرسلات - تجويفاً ، في سقفه ، تزعم العامة أنه لان لرسول الله (ص) فأثر فيه تجويفاً . فيضع الزائر رأسه فيه تيمناً وتبركاً بموضع رأس النبي (ص) . ولم اقف على خبر أعتمده في ذلك غير ماورد في الاثر من نزول سورة المرسلات فيه .. » اه

وفي منى مذبحان كبيران تذبح فيها الضحايا في أيام منى احدهما للأبل والبقر والثاني للضأن والمعز وفيها صهاريج تمتلىء من ماء زبيدة ، يسمونها البازانات (الواحد بازان)

وللشعراء في منى شعر كثير ، يعجبني منه قول العرجي :

نلبث حولا كله كاملا　　لا نلتقي إلا على منهج
الحج إن حجت ، وماذا منى　　وأهله أن هي لم تحجج !

مررنا بمنى ووجهتنا المزدلفة فاجتزنا بمضيق بين جبلين متوازيين يسمونه « المهرول » لهرولة الحجاج به و « وادي النار » لانه الموضع الذي رجم أصحاب الفيل فيه [١] . ولم نبتعد قليلا عن هذا المضيق حتى لاحت لنا المزدلفة فاخترقناها وشهدنا

---

(١) خبر الفيل مشهور ، وخلاصة مايروونه فيه أن ابرهة ملك اليمن بنى كنيسة بصنعاء وأراد تحويل العرب عن كعبة مكة اليها وهم بهدم الكعبة فجهز جيشاً من الحبشة تتقدمه الفيلة وسار به حتى بلغ الطائف فبعثت معه ثقيف رجلا منها يدعى « ابارغال » يدله على الطريق فتقدمه حتى انزله على المغمس وبه مرض ابو رغال ومات فرجمت العرب قبره - ولا تزال ترجمه الى اليوم - وبعث ابرهة الى سيد قريش يومئذ (عبد المطلب) يخبره أنه لم يأت لحربهم وانما يريد هدم البيت فجاءه عبد المطلب فأكرمه أبرهة ونزل عن كرسيه احتراماً ، وكان جواب عبد المطلب « إن للبيت رباً يحميه » وأصر ابرهة على هدمه فانصرف عبد المطلب فجمع قومه واخذ بحلقة باب الكعبة يدعو الله ويستنصره على ابرهة ثم انطلق بمن معه الى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ماسيصنع ابرهة بمكة . واصبح ابرهة متهيأ لدخول مكة فدهمتهم من البحر طيور ابابيل (جماعات) ترشقهم بحجارة من سجيل (طين -

المشعر الحرام وهو مصلى الامام أيام الحج يصلي فيه العشاء والمغرب والصبح. والمزدلفة هي مبيت الحجاج ومجمعهم للصلاة اذا صدروا من عرفات.

وفي مزدلفة صلينا الصبح واتجهنا نحو مضيق الاخشبين فاجتزناه. والأخشبان اسم جبلي هذا المضيق، وفي معجم البلدان انهما جبلان يضافان تارة الى مكة (فيقال أخشبا مكة) وتارة الى منى (فيقال اخشبا منى).

ويلي مضيق الاخشبين مضيق آخر أوسع انفراجاً منه يسمونه المأزمين يقع بين المشعر الحرام وعرفة. وقد يجمع بعضهم بين المضيقين فيسميهما الاخشبين أو المأزمين..

وفي هذا المضيق المنفرج افترّ لنا ثغر الغزالة من وراء حجاب فتابعنا المسير الى أن مررنا بمسجد نمرة، وهو قبيل عرفة، وبموضعه ضرب رسول الله (ص) سرادقه في حجة الوداع. وأقبلنا على عرفة فنزلنا وتقيلنا [1]

في عرفة:

هنالك، حيث ترتفع أصوات الحجيج بالابتهال الى الله، أيام الحج، نزلنا فاذا السكون مخيم، واذا الجبال صامتة، والديار خالية، كأن لم تكن مشتبك الاقدام، وملتحم الأقوام، ومعترك الأجسام، من أهل الاسلام!

عكفنا على نزل هناك، كما يسميه بعضهم، وهو بناء صغير من حجارة مرصوفة، مسقوف بقضبان من الخشب تعلوها أغصان من شجيرات البر، وأبالات من نبات الجبال. وسرحنا الطرف في ذلك الوادي الانيق، وعلى مقربة منا سلسال صغير من ماء زبيدة أقبل عليه سكان عرفات يملأون قربهم ويسقون دوابهم

وعرفة كما يقول البشاري (معجم البلدان ــ مادة عرفة) هي: قرية فيها مزارع

— متحجر) واقبل عليهم سيل من ورائهم لم يطيقوا دفعه، فغرق منهم جمع كثير، ونجا ابرهة بجماعة ممن معه وقد أصيب في جسده فلم يبلغ صنعاء حتى هلك بها

(١) التقيل والقيلولة: النوم في نصف النهار. والحجازيون اليوم يقولون «قيل فلان» اذا نزل أو انفرد ليستريح وقت شدة الحر.

وخضر ومباطخ وبها دور [١] حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة ، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطئ وبها سقايات وحياض وعلم قد بني يقف عنده الامام . ويقال لها عرفة وعرفات ، وكلاهما صحيح ، والثاني ليس بجمع وان كان على صيغة الجمع . »

ونقل النابلسي عن الزركشي أن لعرفات أربعة حدود :

١ — ينتهى الى جادة طريق السرف (وهو موضع قرب التنعيم) .

٢ — الى حافات الجبل الذي وراء أرض عرفات .

٣ — البساتين التي تلي قرية عرفة (وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة اذا وقف بارض عرفة)

٤ — ينتهي الى وادي عرفة .

قال : وليس من عرفات وادي عرفة ولا نمرة ولا المسجد الذى يصلي فيه الامام المسمى بمسجد ابراهيم . بل هذه المواضع خارج عرفات على طريقها الغربي مما يلي مزدلفة ومنى ومكة . اه .

الى شداد :

شجر الطلح ، وادي سمار ، وادي نعمان ، عين زبيدة ، جبل كبكب ، قهوة شداد .

مكثنا في عرفة الى أن بردت جمرة النهار ونهضنا قبيل العصر فجرينا في واد فسيح تكتنفنا من جانبينا اشجار الطلح وأغصان السلم ، وقد قيل لنا ان السلم مادام دون الشجر فهو سلم فاذا ارتفع سموه طلحاً ، وهو المعروف في بلاد الشام بشجر العنبر والمسك ، كثير الشوك ، زهره اصفر مستدير كالاكر الصغيرة زكي الرائحة ، وورقه القرظ الذي يدبغون به .

ذلك الوادي الخصيب هو « وادي نعمان » الذي أكثر الشعراء من ذكره ، لم نكد نزجي اليه الرواحل صادرين عن عرفة حتى لاح لنا عن أيماننا واد آخر عريض الجانبين يسمونه « وادي سمار » وهو كثير الخير ، فيه قصر فخم للاشراف

---

(١) لم نر هذه الدور ولا آثارها فلعلها كانت في زمنه واندرست

من ذوي زيد ، وفيه آبار كثيرة ، وكانت به عين جف ماؤها منذ سنين قلائل . وقد أخطأ صاحب الرحلة الحجازية اذ عد سماراً بين عرفة ونعمان في طريق الذاهب الى الطائف ، وسمار لايفصل بينهما انما هو على مرمى بندقية من جنوب عرفة يلمحه السائر منها الى نعمان عن بعد ولايمر به .

وتوسطنا وادي نعمان فاذا بئر يقولون انها مبدأ عين زبيدة [1] والحقيقة ان ماء هذه البئر يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعاً من الامطار والسيول ، وقد جعلت بين هذه البئر وعين زبيدة قناة هي إحدى القنوات التي تصب في العين ويتألف منها ماؤها بمكة . وقد أقيمت فوق بئر نعمان قبة يراها السالكون والماء منخفض عن الارض نحو ثلاثين متراً .

---

(١) عين زبيدة اشهر عيون هذه الديار وأكبرها . افرد لها العصامي — المؤرخ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي العصامي المولود بمكة سنة ١٠٤٩ هـ والمتوفى بها سنة ١١١١ هـ — فصلا خاصاً في جزء اطلعت عليه مخطوطاً بمكة وهو المجلد الثاني من كتابه « سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي » ومجمل ماقاله في شأن هذه العين أن السيدة زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد العباسي رأت مايعانيه حجاج بيت الله الحرام من قلة المياه فصرفت همها الى شراء مزارع ونخيل في أرض حنين كانت تسقى بمياه عدة عيون هنالك منها « عين مشاش » و « عين ميمونة » و « عين الزعفران » و « عين البرود » و « عين ثقبة » فابطلت المزارع ووصلت بين هذه الينابيع وساقتها بأقنية الى عين نعمان وهذه منبعها ذيل جبل كرا فينصب الماء من ذيله في قناة الى موضع يقال له « الأوجر » من وادي نعمان . ثم امرت بايصال قناة نعمان الى جبل الرحمة محل الموقف وجعلت الماء ينصب الى البرك في عرفات ثم مدت الماء من مزدلفة ومنها الى بئر عظيمة تسمى بئر زبيدة ، ثم كانت تتخرب مجاري هذه العين فعمرها مظفر الدين صاحب اربل سنة ٦٠٥ هـ وعمرها بعده الشريف حسين بن عجلان . ثم ذكر العصامي اسماء من تداولوا عمارتها الى عصره

واطلعت على رسالة للسيد عبد الله الزواوي ثم المكي المدرس بالمسجد الحرام ورئيس لجنة عين زبيدة سماها « بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الامين فيما يتعلق —

ووادي نعمان خصيب التربة كثير السيول ، وفي سفوح جباله زروع مختلفة تسقى بماء المطر منها المباطخ (جمع مبطخة : وهي مزرعة البطيخ) وأهل الحجاز يسمون البطيخ الاخضر « الحبحب » ويسمون البطيخ الاصفر « الخربز » وهو المعروف بالشمام في مصر وفلسطين ، إلا أنه من النوع المستدير لا المستطيل وقل أن يكبر حجم الواحدة منه كما في الشام وغيرها ، ولا يكثر فيه الشديد الحلاوة بل يلتون بالسكر أو يذرون السكر عليه ليحلو طعمه . ومن زروع هذا الوادي مايسمونه « الدبّة » وهو المعروف في بلاد الشام باسم « القرع » ومنها الكوسى والخيار والقثاء والبندورة (القوطة) وماشابه هذه الانواع من المزروعات الضعيفة

ـ بعين الجوهرة السيدة زينب أم الامين » في ٥٠ صفحة ذكر بها عناية الملك حسين منذ ولايته امارة مكة المكرمة بهذه العين وأتى على تاريخها ، فقال مامحصله : أول من عثرت عليه ممن اعتني بامر مياه مكة المكرمة معاوية ، وكان أهل مكة قبل ذلك يشربون من الآبار الموجودة بها وحواليها ، فأجرى معاوية عشر عيون في الحرم . ثم جاء عبدالله بن عامر بن كريز فجمع العيون وصرفها في عين واحدة وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها ماء العين . ثم تخربت هذه العيون وأصيب الناس بشدة الى ان كانت دولة بني العباس فعنيت زبيدة باجراء عين حنين الى مكة وانفقت على ذلك ألف ألف وسبع مئة ألف مثقال ذهباً (١٫٧٠٠٫٠٠٠) قال : ومنبع هذه العين في ذيل جبل شامخ يقال له « طاد » وهو من جبال الثقبة في طريق الطائف يجري ماؤه الى أرض يقال لها حنين ـ وهو واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ـ ثم أوصلتها الى مكة . وأمرت أيضاً باجراء عين وادي نعمان الى عرفة ، وهي عين منبعها ذيل جبل كرا ينصب منه في قناة الى الاوجر في وادي نعمان . فأجرتها الى عرفة وأقامت لها أحواضاً وقنوات . ثم كانت تتخرب الاقنية بعد ذلك فيتعهدها الخلفاء والسلاطين . فممن عمرها المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم على أثر زلازل سنة ٢٤١ هـ التي غارت بها عيون مكة فأرسل المتوكل مئة ألف دينار أجريت بها عين عرفات الى مكة . ومنهم مظفر الدين صاحب اربل عمرها سنة ٥٩٤ هـ ثم المستنصر العباسي سنة ٦٠٥ هـ ثم الامير جوبان نائب السلطنة بالعراقين أرسل الامير بازان بخمسين ألف دينار فعمرها سنة ٧٢٦ هـ ـ

التي تنمو مسرعة بقليل من ماء السماء . وأكثر حاصلاته « الدخن » لعناية البدو المقيمين في أطرافه بأكله وهم يرون فيه خواص أعظمها أن قليله يشبع ويسمونه «مزاحم الجنبية» اشارة الى إشباعه حتى يضيق زنار آكله فلا تعلق به الجنبية !

وهذا الوادي عظيم الشبه على ما ذكر لي بوادي سمار في بقاعه ، وزراعته ، وأكثر حاصلاته .

سلكنا وادي نعمان الفسيح ، والشمس آخذة بالانحدار ، والنسائم تحمل الينا شذى نبته العطر فتذكرنا بقول شاعر زينب :

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت	به زينب في نسوة عطرات
وليست كأخرى أوسعت جيب درعها	وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفاً مرجلا	على مثل بدر لاح في الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت	برؤيتها من راح من عرفات !

— وعمرها بعد ذلك سنة ٨١١ الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد الاسرة الهاشمية المالكة ثم عمرها الملك المؤيد أحد ملوك الجراكسة وتطوع لها بالفي مثقال ذهباً سنة ٨٢١ هـ ثم عمرها الملك الاشرف قايتباي الجركسي سنة ٨٧٥ هـ وعمرها آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغوري سنة ٩١٦ هـ وعمرها السلطان سليمان سنة ٩٣١ هـ وعمرتها فاطم هانم كريمة السلطان سليمان سنة ٩٦٩ هـ وانفقت عليها مبالغ طائلة من بيت المال تنيف على خمس مئة ألف دينار ذهباً استمر وكلاؤها يشتغلون في عمارتها الى سنة ٩٧٩ هـ ثم عمرت على يد حسن باشا المعمار سنة ١٠٢٠ هـ ثم على يد محمد بك صاحب جدة سنة ١٠٦٦ هـ وعمرها الشريف بركات بن محمد بن ابراهيم سنة ١٠٩٢ ثم عمرت سنة ١١٠٥ هـ وهنا انقطع خبرها الى سنة ١٢١٩ هـ فتخربت فعمرتها الحكومة ثم عمرها محمد علي باشا والي مصر سنة ١٢٤٢ ثم أصلحت سنة ١٢٧٨ هـ على اثر سيل عظيم . ثم بدأ باصلاحها محمد شرواني باشا والي الحجاز سنة ١٢٩١ وعاجلته المنية فاتم العمل الشريف عبدالله باشا ، ثم تداول اصلاحها اهل الخير والاحسان برئاسه امراء مكة ، وألف لها الملك حسين سنه ١٣٢٦ هـ لجنة للنظر في اصلاحها كلما طرأ عليها طاريء . وقد تخربت عدة مرات بعد ذلك وأصلحت وزيدت فيها احواض ومبرك . اه

وفي أواخر وادي نعمان أو بعد منتصفه رافقنا عن يسارنا جبل قيل لنا : هذا كبكب !

عادت لنا الذكرى ، ذكرى العصور الاولى ، أيام كانت هذه الهضاب والآكام ، والبقاع والتلاع ، مسرح أنظار شعراء الجاهلية والاسلام ، يروحون فيها ويغدون ، بين غزل يطير في عالم الخيال ، وشجٍ يندب الآثار والاطلال ، وفخور يرى النجم دونه ، ويحسب الناس يعبدونه !

على مقربة من ذلك الجبل الشامخ تمثل لنا امرؤ القيس وقد خيره أبوه بين الشعر وتاج الملك ، فأبى التاج ، وانفرد بعصائب التفت حوله ، يشبب ويتغزل ، ويحن ويفاخر ، ويذكر أحباباً له انفردوا الى ظلال كبكب فيقول :

تبصر خليلي ، هل ترى من ظعائن سوالك نقباً بين حزمي شعبعب

فريقان : منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم : جازع نجد كبكب !

وسواء أكان يعني كبكب هذا أم يريد كبكباً آخر (كما يقول ياقوت في معجمه) فقد دانينا نجد كبكب وتمثلنا بقول حامل اللواء !

وسمعت أحد فضلاء الحجاز يقول : ان كبكب هو أحد الجبلين المعنيين بقول الشاعر :

أيا جبلي نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص الىّ نسيمها !

وفي ذروة كبكب قبيلة معروفة يدعونها به فتسمى الكباكبة (وواحدها كبكبي) وهي مشهورة بقص الاثر وسيأتي ذكرها في الكلام على الفراسة في البادية . وفي كبكب هذا يقول ساعدة بن جوية الهذلي :

كيدوا جميعاً بأناس كأنهم أفناد كبكب ذات الشثّ والخزم [1]

وما كدنا نبلغ آخر كبكب حتى بدت لنا عن يميننا إمارة عمران حديث فعلمنا اننا وصلنا قهوة شدّاد . وشداد اسم مناخة — اونزل كنزل عرفات — يأوي اليها الصاعدون الى الطائف والمنحدرون الى مكة وهي على نحو ثلاث ساعات من

---

(١) الافناد : جمع فند وهو طرف الجبل وما تدنى منه . والشث : نبت طيب الريح يدبغ به . والخزم : نوع من الشجر .

عرفات ، وست ساعات من مكة للراكب . وفيها مركز للهاتف (التلفون) يربط الطائف بمكة وهو مفيد لتوطيد دعائم الامن في تلك المسالك .

نزلنا شداداً والشمس تميل الى الغروب فودّعنا بها ذلك الالق المتورّد وأرحنا داوبنا حتى عاود الظلام كرّته ، وحيانا هلال التسع بمحياه الباسم ، فصلينا المغرب ونهضنا للسرى ، وعن يميننا الى جنوب شداد جبل يسمونه « دماغة » وعن يسارنا الى شمال شداد اواخر كبكب وامامنا الى الشرق جبل يدعونه « تفتف »

من شداد الى السكر :

خريق الرأس ، الجرف أو أبو الحراجل ، حراجل السكر
كلمة في أسماء المواضع ، قرية الكر

سرينا ، والليل رضيع ، والفصل ربيع ، آخذين الى اليمين قليلا ، فاخترقنا بعد اليسير من المسير ، وادياً يدعونه « خريق الرأس » بالقاف لا بالفاء ـ خلافاً لما في الرحلة الحجازية ـ وهو واد متسع تكثر فيه اشجار الطلح ولكنها لاتعوق السالك . اجتزناه بنحو ساعة وارتفعنا قليلا الى واد آخر يسمونه « الجرف » وفيهم من يسميه « ابو حراجل » وقد تبادر الى ذهني عند سماعي لفظ الحراجل ان أصلها الاحراج ـ لكثرة ماهناك من أحراج الطلح والسلم ـ وزيدت في آخرها اللام إلحاقاً ، ثم علمت أن الحراجل في عرفهم جمع حرجلة وهي عندهم الحجارة المتراكمة [1] وفي هذا الوادي وما يليه كثير من هذه الحجارة في الطريق وعلى جانبيه . ولفظ « الجرف » أصح تسمية لهذا الوادي لما جاء في معجم ياقوت من قوله : « الجرف موضع قرب مكة كانت به وقعة بين هذيل وسليم » ـ تخطيناه في نحو نصف ساعة وانتقلنا منه الى واد آخر صعب السلوك ، كثير « الحراجل » عبثت فيه يد السيول يسمونه « حراجل السكر » إضافة الى المكان الذي هو وجهتنا في هذه الرحلة وقد عانينا الصعاب في اجتياز هذا الوادي ، المشتبكة اشجاره الشائكة ، بحيث كان يتعذر على الراكبين منا ان يتجاوروا في طريقهما . وللبغال عادة سيئة في مثل هذه المضائق فانها تزدحم متسابقة وهي تتكسع في الوعر فيصطدم الراكب بالراكب

---

(١) والحرجلة في اللغة : الأرض الحرة .

وكثيراً مامزق الشوك اطراف ماتحتنا من فرش وضعت لننام عليها اذا مسنا النعاس ولولا شدة التحفظ والاحتياط والانتباه للعبت ايدى الاشواك باطراف ثيابنا وبصماداتنا [١]

وليس في طريقنا من شداد الى الكر ما يجدر بالوصف لان اكثره على نسق واحد رمال وحجارة واشجار شائكة ، وتنقل من واد الى واد يفصل بين احدهما والآخر فارق لايشعر به غير الخبير بتلك المناهج ممن اعتادوا سلوكها وسمعوا من افواه البدو اسماءها .وهؤلاء يطلقون على كل جبل وثنية وتلعة وسبيل اسماً يعرفونها به ولم ار كبير فائدة في تتبع اسماء لا اذكر شاعراً متقدماً اشار اليها ولا مؤرخاً ذكرها بل يمكنني ان اقول انها اسماء غير ثابتة لانك بينما تعرف هذه العقبة تدعى بكذا اذ تجدها بعد اعوام قد اختلف اسمها بحادث يطرأ عليها او وحش يظهر فيها او واقعة قتال تحدث بها . ولا ينحصر هذا الحكم بهذا المكان ، بل يراه متعقب الاخبار والاسماء يصح على اكثر اماكن البادية في الحجاز وغيره ، اللهم إلا في المواضع الكبيرة المشهورة التي يعسر فيها تغلب الاسماء الحادثة على اسمائها المعروفة بها فهي تثبت طويلا محفوظة بينهم بالتداول والتوارث . والمسافة من اول هذا الوادي «حراجل الكر» الى قرية الكرّ تقرب من ساعة

أقبلنا على الكر بعد سرى ساعتين ونصف من شداد فاذا هناك بضعة بيوت كلها على نسق ماوصفناه في عرفة . والكر قرية على سفح جبل كرا ، ماؤها لابأس به . اوينا الى احد اكواخها الحجرية أو أعشاشها البشرية ! فبتنا تلك الليلة وللتعب في اجسامنا أثر زال في الصباح

جبل كرا :

نهضنا صبيحة يوم الخميس تاسع صفر ، نرفع أبصارنا الى جبل كرا ، لنبصر ذروته فلا نرى !

---

(١) الصمادة بضم الصاد في عرف اهل الحجاز اليوم : مايوضع على الرأس دون العقال ويسميها أهل الشام الكوفية او الكفية . وفي اللغة الصماد ـ ككتاب ـ مايلفه الانسان على رأسه من خرقة او منديل دون العمامة .

وركبنا باديء ذي بدء نحو نصف ساعة ترتفع بنا الدواب صعداً في طريق وعرة وعثة كانت قد جددت عمارتها عام مقاتلة الوهابية في أيام محمد على باشا المصري ثم خربها السيل فبقيت آثار العامر منها وهو حجارة ملساء لاتملك الدابة حافرها ولا الانسان قدمه في سلوكها إلا بشق النفس. وأما الخرب فحجارة وصخور متراكمة على غير نظام . وقد حاول بعض الرفاق أن يكابر فيصبر على الركوب فقلت له : لاتنس ان روحك الساعة في حافر بغلك : إن زلق هويت ، وان هويت فانت ميت ! ـ فنزل ، وأخذنا نصعد ذلك الطود المتعلق بقرص الشمس يداعبها وتنفر منه ! تارة نتسلق ، وطوراً نحبو ، وآونة نجلس ثواني أودقائق حتى بلغنا منتصفه وقد تغير الهواء فرقّ وأنعش ، ورأينا شجر العرعر وهو من فصائل الصنوبر ، والاثب وهو أشبه بشجر الكينا ، والتين البري . وقلّ السلم والطلح .. وفي هذا الجبل نمور وضباع وذئاب لمزرها — والشكر لله — وتقل فيه السباع ، وتكثر القردة (السعادين) وقد رأينا في طريقنا سرباً منها . ونباتاته كثيرة الانواع منها العطري والصباغي .

وواصلنا الصعود حتى جاوزنا ثلثيه ، واشتد بنا الظمأ فأبصر بعضنا عيناً من الماء تنبع على يسار الصاعد يسمونها « المعسل » قيل لنا انها دائمة النبع لاتجف صيفاً وشتاء فنزلت اليها أبل الصدى ، فرأيت ماءاً يسيراً بارداً فيه أثر من طعم الطحلب ، وهي صغيرة لاتتجاوز دائرتها المترين . وعدنا الى الصعود فرأينا قبل ذروة الجبل حوضاً غير كبير يجتمع فيه ماء المطر منحدراً مما فوقه من معلاة الجبل وهو جاف لا أثر للماء فيه . وما بلغنا قمة كرا إلا بعد ثلاث ساعات من ابتداء صعوده أى من مغادرتنا السكر وقد يخيل للانسان أن نزوله عن كرا أسهل من صعوده والحقيقة انهما سواء لان المصعد يتسلق ، والمنحدر يزلق ، ومدة اجتيازه واحدة صعوداً وانحداراً .

وللشعراء والادباء لطائف في وصف كرا منها قولهم « صعود كرا يحرم من الكرى ! » ولم أجد في مابين يدي من كتب التاريخ وصفاً مسهباً لهذا الجبل إلا ان ياقوت يقول : « كرا ـ مقصور ـ ثنية بين مكة والطائف » وقال في موضع آخر :

«وبالطائف عقبة وهي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط الى مكة، عمرها حسين بن سلامة وهو عبد نوبي وزر لابي الحسن ابن زياد صاحب اليمن في حدود سنة ٤٣٠ هـ فعمر هذه العقبة عمارة يمشي في عرضها ثلاثة جمال بأحمالها..» اهـ ولعل هذه العقبة هي عقبة كرا وماقبله فان فيها طريقاً تسلكها الجمال أظنها هي التي عمرها حسين بن سلامة وقد خربت فجدد عمارتها محمد على (كما تقدم) ثم خربتها السيول الآن إلا قليلا منها.

وكرا، مقصور في رواية ياقوت وأما الشعراء فيمدونه، قال أحدهم وهو من مروياته أيضاً من أبيات:

كاغلب من أسود (كراء) ورد يشد خشاشه الرجل الظلوم

في الهدة:

قبائلها، فواكهها، مولد الحجاج، بنو صخر، جبلا الخبل وشعار.

ولما بلغنا قمة كرا، ظهرت امامنا قرى الهدة فاتجهنا الى احداها على غير تعيين فنزلنا للراحة وتناول الطعام وأجلنا النظر في ذلك السهل المرتفع فاذا سكانه من متحضرة البدو يعمل بعضهم في زراعة أرضه وبعض يؤجر نفسه لنقل أكياس الحبوب وغيرها. وقرى الهدة سبع على عدد القبائل النازلة فيها وتسمى باسماء قبائلها وهي: الغشامرة. وبنو صخر. والقصران. والاغربة [١] والاخولة [٢] واللمضة. والبني.

والهدة مرتفعة عن سطح البحر ٦٥٠٠ قدم وفي الرحلة الحجازية ١٧٦٠ متراً. ولاعتدال مناخها يكثر فيها شجر التين والرمان والسفرجل والصبير (ويسمونه البرشوم وهو التين الشوكي) واللوز. وفيها كثير من الورد يستخرجون ماءه على طريقة التقطير. وماؤها عذب بارد لم نشرب مثله في مكة ولا جدة. وأمطار قرى الهدة قليلة جداً فقد عرفنا عند نزولنا بها ان السماء لم تمطرها من عامين الا رذاذاً أو رشاشاً.

---

(١) وهم يلفظونها «لغربه» بكسر اللام وسكون الغين وكسر الراء.

(٢) ويلفظونها «لخولة» بكسر اللام وسكون الخاء وفتح الواو واللام الثانية.

ومن غريب الصدف أن نزولنا كان في قرية بني صخر تلك القرية التي لايزال بعض العارفين يتناقلون أن مولد الحجاج بن يوسف الثقفي كان فيها وهذه القرية بضعة بيوت قديمة ، ولكنها ليست بأثرية . وقد سألنا من بها عن علاقتهم ببني صخر القاطنين في بلاد الشام فقالوا انهم أبناء أعمامنا وكانت هذه منازلهم وقدنزحوا منذ عهد طويل على أثر قتال نشب بيننا وبين مجاورينا ولم يبق منهم هنا غير رجل وعائلته فأنسل أسرتنا التي ترونها الآن . ولا ريب في أن قلة عدد بني صخر في الهدة تدل على قرب عهد بني عمهم بالجلاء فانهم هنا قد لا يزيدون عن الخمسين رجالا ونساء فلعل بني صخر الشاميين هاجروا منذ مئتي سنة أو نحو ذلك . وهم يسقون أراضيهم بماء الينابيع والآبار ، يستخرجونه الى سطح الارض بالثواني : وهي أبقار تربط بحبال وتربط في تلك الحبال قرب فتذهب الابقار خطوات وتعود ، فاذا أقبلت على البئر نزلت القرب فيه فامتلأت ، وبذهابها تصعد القرب فتفرغ ماءها في حوض على طرف البئر .

وفي جوار الهدة جبلان شاهقان يسمون احدهما « الخبل » والثاني « شعاراً » ويؤكد الخبيرون أن البحر الاحمر يرى بالعين المجردة من « شعار » صباحاً وكذلك سهول تهامة ، وبين البحر وشعار مسيرة يومين ونصف .

وقد سمى القلقشندي في صبح الاعشى الهدة وادياً ، قال : ومن اودية مكة « الهدة » وهي واد على القرب من بطن مر ، على مرحلة ونصف من مكة وهي بيد بني جابر (؟) — وبطن مر واد في شمال مكة على مرحلة منها يمر به حجاج مصر والشام وبه عيون ومياه تجري ونخيل كثيرة ، وفواكهها وبقولها تحمل الى مكة اهـ

وقال ياقوت : الهدة موضع بين مكة والطائف وهو ممدرة أهل مكة ، والمدر طين ابيض يحمل منها الى مكة تأكله النساء (كذا) ويدق ويضاف اليه الإذخر يغسلون به أيديهم . وقال في موضع آخر : هدى منقول عن الفعل الماضي من هدى يهدي اذا أرشد : موضع في نواحي الطائف . اهـ

اقول : والشائع اليوم على ألسنة مجاوري الهدة هو تسميته « الهدى » بالقصر

والتعريف وليس في كلام ياقوت ما يفهم منه تعريفه بأل مقصوراً ، كما ان ثقات المؤرخين لم يذكروه بغير التعريف وهاء ساكنة في آخره اوتاء معقودة .

الى الطائف :

كرا الصغير ، وادي المحرم ، جبل مسرة الطائف

نهضنا من الهدة بعد صلاة الظهر نتابع السير ووجهتنا الطائف . فلم نجتز مسافة تذكر حتى انحدرنا قليلا ثم اخذنا نصعد جبل كرا الصغير (كما يسمونه) وهو ذروة شاهقة في طريقنا ، وشتان ما الكبير والصغير ! ومنه عدنا الى الانصباب فانحدرنا نزولا : اضطررنا في أوله ان نترجل عن دوابنا مسيرة ربع ساعة نزلنا بها نحو ثلاث مئة قدم عن ارتفاع الطائف وركبنا فاستلمنا واديا صغيراً انتهينا منه الى « وادي المحرم » وفيه مسجد خرب وابنية يسيرة ، ومن هذا الوادي يحرم القادمون على مكة من أهل الشرق واليمن وحضرموت وعمان حجاً او اعتماراً ، ولذلك سمي المحرم . ثم وصلنا الى جبل يسمونه « مسرة » وقد يعرّفه بعضهم فيقول « المسرة » وهو سلسلة جبال بلغنا اولها بعد مسيرة ساعة ونصف من الهدة . ولعلها جبال السراة المشهورة فاني لم اجد اسماً للمسرة في ما عثرت عليه بمكة من كتب تخطيط البلدان . ومن أحد منعرجات هذا الجبل ظهرت لنا اعالي منازل الطائف ، فلم نفتأ مواصلين السير بين الجد والمهل حتى بلغنا الطائف ونزلنا في دار مدير شرطتها .

الأمن :

عشية الثلاثاء ١٤ محرم ١٣٣٩ بينما كانت الشمس تلقي على المشرق نظرات الوداع رأى اهل جدة (على ساحل البحر الاحمر) شابين يبرحان مدينتهم ووجهتهما مكة . احدهما مكتس برداءي الاحرام ، حاسر الرأس ، تعبث النسمات ببرديه ، وقد ركبا حمارين شديدين فمضيا مستظهرين المدينة ، مستقبلين الجبال والرمال . سأل المحرم رفيقه بعد أن ابتعدا عن جدة مسيرة نصف ساعة : ماسم هذا الجبل الذي نراه اول جبال طريقنا ؟ فقال : الرغامة . واستمرا في مسيرهما

لم يجريا أكثر من ساعتين في ذلك القفر الخالي ، والليل باسط جناحيه ، حتى لاح لهما بدويان يحملان بندقيتين ، يمشيان الهوينا ، مقبلين عليهما ، فجزع المحرم في نفسه وأوجس خيفة ، وجعل يستعيذ بالله ويتلو ما تيسر له من آي الكتاب . ومرا بالبدريين ففاتاهما مئة متر أو أكثر والمحرم يترقب رصاصة من أحدهما تتناقل صوتها الاطواد الثابتة والاودية الرحبة ولكن البدويين اخترقا سبيلهما مكتفيين بنظرتين القياهما عليه وعلى رفيقه ، ولم ينبسا ببنت شفة .

وبعد أن امتدت مسافة الشوط بين الفريقين تحرك لسان المحرم في حديثه مع رفيقه يعرّض له بذينك المسلحين اللذين كانا يستطيعان سلبه واياه ما معهما من نقود ومتاع ، فأدرك رفيق المحرم ما داخله فدعاه الى الطمأنينة وقال : ثق ياسيدي انك آمن حيث سرت . قال المحرم : اذاً فما شأن هذين ؟ — قال : هما عسس في هذا البر !

فعجب المحرم من أمر لم يكن يتوقعه ، واستمر في حديثه فقال لرفيقه : وهل عهدكم بمثل هذا الضبط بعيد ؟ فهز رأسه قائلا : منذ حكم سيدنا ! ..

لم تبرح ذكرى هذه الساعة نفسي منذ أول ليلة دخلت بها الحجاز محرما . ولقد ذكرتها حين كنا نخترق — في رحلتنا هذه من مكة الى الطائف — الاودية والهضاب ليلنا ونهارنا . وكنت ارى كثيراً من امثال ذينك — من العسس — فآنس بهم ! وأذكر كلمة الرفيق الاول : ثق ياسيدي أنك آمن حيث سرت !



الطائف

« نظرة الشاعر والباحث ، تسميته ، فتحه ، خروج الترك ، آثاره ، أعلامه ، داخله ، طرقه الى مكة ، عكاظ ، خلاصة ، ما حوله ، قبائله ، الرحلة الحجازية . »

اذا جال الشاعر جولته الاولى في الطائف . ورأى ماحول مدينته من ربيع ونبات . وينابيع وجداول . وفواكه وازهار . وحدائق وبساتين . لم يشك بصدق ما يتلوه في مقدمات تواريخ الفاكهي (١) والعجيمي (٢) والميورقي (٣) . واشباههم ممن نقل هؤلاء عنهم ، كياقوت (٤) وابن ابي الصيف (٥) اونقلوا عن هؤلاء وأولئك ، كالقاري (٦) وغيره اذ يراهم متفقين . اويكادون يتفقون . على أن الطائف

---

(١) عبد القادر بن احمد بن علي الفاكهي المكي المتوفى في أواخر القرن العاشر له كتاب في الطائف سماه « عقود اللطائف في محاسن الطائف » اطلعت عليه مخطوطا عند قاضي الطائف الشيخ عبد الله كمال ، وهذا الكتاب في أحدعشر كراساً ، وفي هذه النسخة نقص قليل ، كتبت سنة ١٢٨٦ ﻫ . (٢) امام الحرمين الشيخ حسن بن الشيخ علي العجيمي المكي من علماء أواخر القرن الحادي عشر له رسالة صغيرة ممتعة في الطائف سماها « اهداء اللطائف من اخبار الطائف » اطلعت عليها مخطوطة (٣) الشيخ احمد ابن علي العبدري ثم الميورقي المالكي الطائفي الوجي مسكنا توفي في آخر ذى الحجة سنة ٦٧٨ ﻫ . ودفن بمقبرة تجاه ركن المسجد العباسي من خارجه ، له رسالة في الطائف سماها « بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج » رأيتها مخطوطة

(٤) شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي صاحب « معجم البلدان » وهو أشهر من أن يذكر وله كتب كثيرة وليس هذا مكان الافاضة في ترجمته توفي سنة ٦٢٦ ﻫ (٥) مفتي الحرمين ابوعبدالله ابن ابي الصيف اليمني المتوفى سنة ٦٠٩ ﻫ له كتاب في الطائف سماه « زيارة الطائف » رأيت بعضهم ينقل عنه ولم اعثر على نسخة منه (٦) الشيخ عبد الحفيظ القارى من علماء الطائف المتأخرين له رسالة في تاريخ الطائف لم يزد فيها على ما في كتب سابقيه إلا بقوله عند ذكر ما كان في الطائف من المآثر والمزارات : وقداندرس اكثر المآثر التي ذكرها المؤرخون » . كتب هذه الرسالة سنة ١٣٠٨ ﻫ

قطعة نقلت الى الحجاز من الشام . وفيهم من يقول من اليمن . يستدلون على هذا بخصبها واختلافها عن غيرها من بقاع الديار الحجازية بطيب هوائها وعذوبة مائها وجمال نضرتها وحسن خضرتها .

لنفرض أن هؤلاء وفي جملتهم بعض اصحاب المعاجم العربية كانوا يعتقدون حقيقةً أن جبريل انتزعها من الشام أو اليمن وطاف بها على البيت الحرام ثم ألقاها في هذه البقعة بعد أن اقتلع البلدة التي كانت في موضعها وقذفها الى المكان المحمولة تلك منه ، فذهبت الأولى بحرّها وجفائها الموروثين عما جاورها من بادية الحجاز وأتت هذه بما كان لها من طيب المناخ وجمال المنظر وقوة الانبات !

ولنفرض أن القلقشندي كان على ثقة من أن الطائف انقطعت من الشام في طوفان نوح وحملها الماء وطافت بالارض حتى أرست في هذا الموضع ! . .

لنفرض انهم كانوا يعتقدون هذا الوهم حقيقة ، فلا يمنعنا ذلك من أن نراه اليوم خيالاً شعرياً جميلاً مقبولاً ! ومابين ايدينا وتحت انظارنا من آداب العرب والافرنج مفعم بانواع المجاز الجاري مجرى الحقيقة ، مملوء بضروب الامثال الموضوعة وضع التشبيه والتمثيل . فلنقل معهم إن الطائف من غير ارض الحجاز وان الملائكة قد حملوها من اقاصي الديار لتكون جنة هذه الاقطار !

ولنقل ونحن في هذه البقعة من بقاع الحجاز إننا في مصيف من مصائف الشام أو مخلاف من مخاليف اليمن أو جنة من جنان مصر . فليس على الخيال حرج . وللشاعر أن يشبه ماشاء بما شاء ما اتفق له وجه الشبه . .

وقد يأخذ الشاعر إخذ المؤرخ الافرنجي « سيديو » فيقول معه : « الطائف بستان مكة » ! وربما عاد الى دواوين الادب فأعجبه منها قول عروة بن حزام وقد خرج من سور الطائف ونظر الى واديه « وج » فاذا حمامة ترفرف على أحد أغصانه :

أحقًا يا حمامة بطن وجّ ... بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لان ليلي ... أواصـله وأنك تهجعينا
واني إن بكيت بكيت حقا ... وأنك في بكائك تكذبينا

فلست وان بكيت أشد شوقاً ولكني اسر وتعلنينا
فنوحي ياحمامة بطن وج فقد هيجت مشتاقاً حزينا !

ذلكم هو الطائف في نظر الشاعر المفتون بجمال الطبيعة المأخوذ بمحاسنها

∴

وأما الباحث فاذا عرف الطائف وأنعم فيه نظره رأى غير ما يراه الشاعر من شأنه وموقعه ومكانته

للباحث في الطائف كلمات ثلاث : الاولى في موقعه العسكري والسياسي . والثانية في مكانته الاقتصادية . والثالثة في شأنه التاريخي . ولا أرى بأساً في الاشارة بايجاز الى هذه الامور الثلاثة :

(١) موقعه العسكري والسياسي : غير خاف أن حكومة الحجاز الحاضرة والحكومات التي خلت من قبلها ، لم تختر الطائف ليكون مقر جيشها النظامي إلا بعد أن عرفت عظم شأنه بوقوعه الفاصل المدني بين سهول العراق من شرقه ، وديار الحجاز من غربه وأصقاع اليمن من جنوبه . فهو وما يليه من أراض واسعة وأودية وجبال وسهول يعد أمنع ثغور الحجاز البرية وأشدها حاجة الى ما فيه من قوة . وهو مجتمع القبائل ومحتشد العشائر . قال الفاكهي في تاريخ مكة : « كان لمدينة الطائف خطر عند الخلفاء في ما مضى وكان الخليفة يوليها رجلا من عنده ولا يجعل ولايتها لصاحب مكة » . وروى غيره من أصحاب التواريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان قد اتخذ الطائف معسكراً لجيشه في محاربته لعبد الله بن الزبير يرسل منه الجند الى مكة فصيلة اثر فصيلة .

ولامراء مكة واشرافها عناية خاصة به . فهو مصيفهم ومتنزههم يمكثون فيه شهرين أو ثلاثة أشهر من كل عام يبتعدون عن قيظ مكة . وينظرون في شأنه عن كثب . وكان الملك حسين قبل النهضة لا ينقطع في كل سنة عن الاقامة فيه أكثر الصيف تفد عليه به وفود القبائل فيتفقد أحوالها ويستميل شذاذها . حتى كانت النهضة فاكتفى بان يوفد كل سنة أحد أبنائه فينوب عنه هناك .

وفي أخبار جاهلية العرب أن الطائف لما عمرت ونمت كرومها وكثرت خيراتها

حسدت القبائل سكانها بني ثقيف . فشنت عليهم الغارات . وأقبل نحوهم الغزاة حتى اضطروا الى إحاطة مدينتهم بسور يمنع العادي ويصد المقتحم . فأقاموه واتقوا ما كانوا يحذرون . وضعفت عن قتالهم العزائم فتركتهم قبائل العرب وشأنهم حتى قيل انهم بمناعة بلدهم ووفرة خيره أغبط الناس عيشاً . وضربت الامثال بامتناع الطائف على من اقتحمه — قال ابو طالب ابن عبد المطلب :

منعنا ارضنا من كل حيّ كما امتنعت بطائفها ثقيف !
اتاهم معشر كي يسلبوهم فحالت دون ذلكم السيوف !

(٢) مكانته الاقتصادية : الطائف احد ابواب الحجاز التجارية الكبيرة . وارضه اغنى اراضي الحجاز بعد وادي فاطمة . يحمل مايزيد عن اهله من حاصلاته وفاكهته الى مكة وغيرها . ويكثر فيه السمن والصوف لكثرة القبائل الضاربة في قراه والمخيمة في اطرافه وكلها تعيش من اوبار إبلها وحليب نوقها . وللماشية والاذواد في هذه البلاد قيمة كبيرة لان ماتنتجه قد يعدل ما تأتي به المزارع الخصبة والبقاع المنبتة . ومتى كثر العاملون في تربية المواشي استفادت البلاد من خيراتها ، فكيف بالطائف واكثر قبائله لاعمل لها إلا إصلاح شأن ماشيتها واستدرار أخلافها والانتفاع من اثمان صوفها ووبرها . والعادة ان المدن القريبة من منازل البداة يعود عليها من التجارة معهم مالاتفوز به المدن البعيدة عنهم فالطائف من هذه الوجهة اكثر استفادة من غيره لان القاطنين حوله وفي قراه من ابناء البادية وارباب الماشية وأصحاب المزارع اكثر ممن حول سواه من مدن الحجاز وأوفر ثروة وأنعم عيشاً .

وللمؤرخين إعجاب شديد بكروم الطائف وزروعها وناهيك بمثل سليمان بن عبد الملك الاموي يدهش من كرم في قرية من قرى الطائف . نقل صاحب معجم البلدان في كلامه على الوهط (احدى قرى الطائف يأتي ذكرها) أن سليمان مر بها بعد حجه فاطال النظر اليها وسأل : لمن هذا الكرم ؟ فقيل : لعمرو بن العاص فقال : هذا أكرم مال وأحسنه ، مارأيت لاحد مثله ! !

وفي كتب السيرة النبوية ان المسلمين لما بلغوا أطراف الطائف مع النبي (ص)

ورأوا واديه « وجاً » أعجبهم سدره فلهجوا به وقالوا : ياليت لنا مثل هذا ! ثم قالوا : يارسول الله أفي الجنة سدر كسدر وج ؟ ! فأنزل الله تعالى : « .. وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود » أي لا شوك فيه !

ويدل ما ينقله المؤرخون أيضاً على أن أهل الطائف كانوا في جاهليتهم أهل قصف ولهو وغنى ويسار ، حتى ان النبي (ص) لما صالحهم اشترط عليهم (١) أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم (٢) أن لا يرابوا (٣) أن لا يشربوا الخمر

قال البلاذري في فتوح البلدان : وكانوا - أي ثقيف - أصحاب ربا . ونقل عن المدائني أنه كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا فيه للتجارة فوضعت عليهم الجزية . ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف .

(٣) شأنه التاريخي : وأما شأنه التاريخي فانه من أقدم البلاد العامرة في الحجاز حتى انك لترى المؤرخين وعلماء تخطيط البلدان يخبطون في تاريخه على غير هدى فياقوت يقول : ان الطائف كان يسمى وجاً باسم وج بن عبد الحي من العماليق ويذكر أن وجاً هذا هو أخو أجأ الذي سمي به جبل طيء وهما من الامم الخالية . وابن عباس ينقل عنه أن الطائف بني في زمن ابراهيم عليه السلام عصر بنيت الكعبة . وابن الكلبي يروي أن الطائف هي بلد الثمرات التي رزقها الله ابراهيم نبيه حين دعاه : « .. فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات » وأكثر المفسرين على أن الطائف هو أحدى القريتين الواردتين في قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يرون ان القريتين هما مكة والطائف . . الى آخر ما هنالك من أخبار وأقوال . . وسواء أصح ذلك كله أم اتفق حدوث بعضه فان للطائف شأناً في تاريخ الحجاز غير يسير . ولئن كان أكثر أصحاب الرحلات والخطط لم يسهبوا كل الاسهاب في الكلام عليه فذلك لان هؤلاء انما كانوا يكتفون من الحجاز باداء فريضة الحج في مكة المكرمة وأطرافها القريبة منها ويزورون قبر النبي عليه الصلاة والسلام . فيرون في مكة

والمدينة وما بينهما الغنية عن قطع المراحل وزيارة الطائف وما اليه من جهاته الاربع. خذ مثلا صاحب معجم البلدان وابن بطوطة وابن جبير وصاحب نفح الطيب وغيرهم من أكثر الرحالين وجوابي الآفاق والمؤلفين في هذه الابحاث فانهم لم يزوروا الطائف ولا عرفوه الا بما يسمعون عنه من الاقدمين أو ممن عاصرهم ، معرفة رواية لا شهادة ، وخبر لا اختبار .

اما مؤرخو الطائف المتأخرون كالفاكهي والعجيمي وامثالهما ، فانهم لم يجدوا بين ايديهم من المادة التاريخية مايزيدون به على مايتلونه في تواريخ سابقيهم إلا الاشذرات ونتفاً من أسماء بعض قرى الطائف وآبارها

هذه علة الغفلة من المؤرخين عن التعرض للطائف بالاطالة المعهودة فيهم عند الكلام على امثاله من البلاد التاريخية القديمة .

ولقد عانيت ماعاناه متأخرو الكاتبين عن الطائف بعد أن أندرس جلّ مافيه من آثار ومعالم فظفرت باليسير من الكثير وبالنزر من الوفر ولعل من سيكتب عنه بعدي يزيد عليّ مالم اعثر عليه فان البحث في الطائف مازال قاصراً عن التعريف بحقيقته . وليكشفنّ العلم للناس في الغد ، ماهم غافلون عنه اليوم .

تسمية الطائف :

لم أجد حتى الآن ما اعوّل عليه في تحقيق الباعث على تسمية هذه الديار بالطائف وأهل التاريخ يتناقلون اخباراً فيها ماهو أشبه بالاوهام منه بالحقائق ، ولعل اقرب ماينقلونه من الصحة رواية القلقشندي وياقوت أن اسمها القديم « وجّ » ثم اقامت بها جموع ثقيف وبنوا عليها حائطاً مطيفاً بها (هو مايسمونه الآن بالسور وقد جددت عمارته مؤخراً) فسميت الطائف من إطافة الحائط بها . ويوردون في اسم من ارتأى بناء ذلك الحائط قصصاً منها انه رجل من اهالي حضرموت من قبيلة اسمها الصدف يقال له الامون بن عبد الملك قتل ابن عم له يدعى عمراً وفر من حضرموت لاجئاً الى من يؤويه حتى بلغ وجاً ومعه مال كثير فاتى مسعود بن معتب الثقفي فقال : أحالفكم على أن تزوجوني وازوجكم وأبني لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لايصل اليكم احد من العرب فيه ؟ قالوا : فابن : فبنى بما معه من المال

طوفاً فسميت الطائف وتزوج اليهم الدمون فزوجوه . وفي معجم البلدان (ج ٦ ص ١٢) قصة يرويها عن ثقيف والنخع تنتهي بمثل ما انتهت اليه هذه القصة من شاء فليتلها فيه فاني لا اجد فائدة من الاطاله في مثل هذا .

فتح الطائف :

« بدء الدعوة الى الاسلام ، حصار الطائف ، إسلام ثقيف »

لا أريد الافاضه في الكلام على فتح الطائف في زمن النبوة لان هذا مما يجده المطالع في اكثر كتب السير والفتوحات ولكني سأوجزه في ايراد قصة وفود النبي على ثقيف قبل استفحال شأن الاسلام لما فيها من بيان ما عاناه رسول الله (ص) في بدء ظهور دعوته ، وأختمها بما انتهت اليه حال ثقيف في الاسلام :

قال علماء السير : لما انتهى رسول الله (ص) الى الطائف يلتمس من ثقيف[1] نصرته بعد أن اخرجه قومه من مكة (وذلك في شهر شوال من السنة العاشرة للنبوة) عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادات قومهم وهم ثلاثة اخوة : عبد ياليل ومسعود ، وحبيب : أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفي . وعند احدهم امراة من قريش من بني جمح . فجلس رسول الله اليهم وكلمهم فيما جاء به من طلب القيام معه على من خالفه من قومه . فقال له احدهم : أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك ! وقال الآخر : ماوجد الله احداً يرسله غيرك ؟ ! وقال الثالث : والله لا اكلمك ابداً ، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فانت اعظم خطراً من ان أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي ان اكلمك !

فنهض رسول الله وقد يئس من خير ثقيف ، واستكتم الثلاثة ما دار بينه

---

(١) ثقيف : أهل الطائف في العصر الاسلامي، واما اليوم فلا منازل لهم في بلده وانما ينزلون في بعض القرى المجاورة له كالمثناة والسلامة وقروة والعقيق والمليساء . وقد وهم صاحب « تاريخ سيناء » فضبط اسم القبيلة بالتصغير (ثقيف) والصواب فتح الاول وكسر الثاني .

ونقل صاحب « تحفة اللطائف » أن ثقيفاً بطن من هوازن من العدنانية ينسبون الى اب لهم لقبه ثقيف واسمه قيس بن منبه بن بكر بن هوازن .

وبينهم ، خيفة أن يبلغ ذلك قومه فيزيدهم عليه . فلم يفعلوا ، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه . فجلس – وابنـا ربيعة ينظران اليه و يريان ما يصنعه سفهاء أهل الطائف – فتحركت له رحمتهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا اسمه عداس فقالا : ياعداس خذ قطفاً من هذا العنب الى ذلك الرجل وقل له يأكل منه . ففعل عدّاس ما أمراه به . فلما وضع العنب بين يدي النبي (ص) ودعاه ليأكل مدّ اليه النبي يده قائلا : بسم الله الرحمن الرحيم . ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله ان هذا الـكلام لا يقوله أهل هذه البلدة ! فسأله رسول الله (ص) من أي بلدة هو وما دينه ؟ فتسمى له وقال : أنا رجل نصراني من أهل نينوى . فقال رسول الله : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ – قال عداس : أوتعرف شيئا عنه ؟ . قال : ذلك أخي كان نبيا وأنا نبي ! فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه ، وأسلم . وابنا ربيعة يبصرانه عن بعد ويعجبان من أمره . فلما جاءهما قالا له : ويلك ياعداس ! مالك تقبل رأس هـذا الرجل ويديه ؟ قال ياسيديّ ما في هذه الارض خير من هذا ! لقـد أخبرني بخبر ما يعلمه إلا نبي . فقالا له : ويحك ، لا يصرفنك عن دينك ! فثبت على إسلامه .

وهذه الزيارة هي أول زيارة قدم بها النبي (ص) الطائف ولا يزال المـكان الذي أسلم فيه عداس معروفا في المثناة يزار .

ثم عاد رسول الله من ليلته فبات في مكان يدعى « بطن نخلة » وانصرف من صبيحته الى مكة فدخلها بعد أن اجاره مطعم بن عدي . ولم يدخل الطائف بعدها حتى فتحت مكة وكانت غزوة حنين وفاز بها المسلمون فقصد الطائف ماراً « ببحرة الرغا » من « لية » ونزل أمام حصن الطائف ، فحصر ثقيفا أربعين ليلة وذلك سنة ثمان من الهجرة . وضرب سورهم بالمنجنيق وسير اليهم الدبابات فألقوا عليها سكك الحديد محماة بالنار فقتلوا بعض من بها لانها كانت تصنع من جلود الابل والبقر ويدخلون جوفها فتقيهم من السهام والحجارة ، كما رأيت في

هامش على كتاب تحفة اللطائف لجار الله المكي (١)

ولما لم يسلموا أذن رسول الله (ص) للجيش بالرحيل وعاد به الى أن بلغ الجعرانة (وهي قرب مكة) فقسم بها غنائم حنين وكانت الغنائم قد أرصدت بها .

ولما كان العام الثاني قدم على رسول الله (ص) وفد من ثقيف الى المدينة فأسلموا ، وفشا الاسلام في ثقيف . وكانوا بعد وفاة النبي عليه السلام من أثبت الثابتين على الاسلام حتى كانوا يقتلون من يرتد منهم !

خروج الترك :

« ثورة الحجاز ، مهاجمة الطائف ، الاستيلاء عليه ، عرب البادية في حروبهم »

لما اشتدت وطأة الترك على العرب وقام الشريف حسين بن علي بنهضته، مواليا للحلفاء ، ومعاهداً لهم ، على ماسأجمله في مايلي من هذا الكتاب عهد الى ثاني ابنائه الشريف عبد الله بمهاجمة الطائف وإجلاء الترك عنها ، فقصدها عبدالله يوم الخميس ٧ شعبان ١٣٣٤ هـ وتم له فتحها يوم ٢٦ ذي القعدة من السنة نفسها بعد أن قاومت ثلاثة اشهر وستة عشر يوماً . وآب الى مكة فنشر في جريدة « القبلة » (٢) حديثاً مع مديرها . هذه خلاصته :

قال الامير عبدالله : قصدت الطائف في ٧٠ هجانا عقيلياً ، فوصلتها يوم ٩ شعبان ١٣٣٤ وعلمت ان الترك قد شعروا بحدوث أمر في الحجاز فاستطعت أن امحو هذا الحس من نفوسهم بعد أن اجتمعت بغالب باشا (٣) في داره وابديت له سروري وشكري من حسن سلوكه معنا . . وتوجهت من داره الى معسكري في

---

(١) جار الله هو : محمد عبد العزيز بن عمر العلوي الهاشمي المكي . من علماء القرن العاشر . زار الطائف مع أبيه سنة ٩١٥ هـ والف كتابه هذا « تحفة اللطائف في فضائل ابن عباس ووج والطائف » وهو يقع في مئة صفحة قسمه الى أربعة أجزاء صغار رأيت منه نسخة مخطوطة في مكة وعلى ظاهرها : « هذا التاريخ غير المذكور في الكشف » يريد كشف الظنون

(٢) الجريدة الرسمية لحكومة الحجاز تصدر بمكة مرتين في الاسبوع .

(٣) والي ولاية الحجاز وقائد جيشها التركي يومئذ ، كان مصطافاً في الطائف .

« الوجريات » بجهة « القديرة » من قرى الطائف . وهناك اجتمع لي جمع قسمته الى ثلاثة اقسام أعظمها قسم قبائل « عتيبة » في الشمال الغربي للطائف ويدخل فيه الشرق كله ، والقسم الثاني وهو الجنوبي مؤلف من قبائل عوف وثمالة وبني سفيان وهذيل ، والثالث وهو الغربي مؤلف من قبائل قريش وطويرق والنمور . فقطعنا الاسلاك البرقية وهاجمنا الطائف صباح الاثنين ١١ شعبان ثم حاصرناها فخرجت قوة الترك الى جبال « أم الشيع » و« المداهين » و« شرقرق » في شمال الطائف ، وهضبة « أم السكارى » في الجهة الغربية . وبعد خمسة أيام وصلت الينا أسلحة جديدة من البنادق وخرجت قوة من الترك فاستولت على هضبة « الشهداء » شرقي الطائف وهضبة « دقاق اللوز » فوجهت اليهم ثلة من الخيالة بقيادة الشيخ فاجر بن شليويح الروقي فأخرجناهم بعد أن قتلنا منهم ٤٨ جندياً ، وأمرت قسماً من هذيل الطلحات وآل حجة من بني سفيان فاغاروا على هضبة « أم السكارى » وقتلوا حاميتها وضبطوها ، فانسحب الترك من جبال « أم الشيع » و « المداهين » و « شرقرق » الى هضاب « الشريف » وجبال « ابي صحفة » و « معشي » و « عكابة » وفي العشر الثاني من رمضان وصل الينا ستة مدافع وست رشاشات ثم جاءنا في العشر الثالث من شوال المدفع الضخم من طراز « هاوتزر » ويوم ٢٢ ذي القعدة اضطر القائد التركي للالتجاء الى بيت عربي في الطائف فاصلينا هذا البيت ناراً حامية فاضطر للتسليم وامضى بقبول الشروط في قرية « المليساء » على ان يخرج هو ومن معه من الضباط — وكانوا نحو خمسين ضابطاً — الى شبرة في ظاهر البلد ، ثم تذهب احدى القوى العربية الى الثكنة الكبرى في الطائف فينسحب جنود الترك من مواقعهم العسكرية ويدخلون الثكنة فيشبكون بنادقهم في أحد جوانبها ويجلسون في غرفها . وتم ذلك كله في اليوم التالي فكان دخولنا الطائف يوم ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ وقد حافظنا على عائلات الاسرى وبعثنا اليها بالمؤن الكافية ولم نجرد الضباط من سيوفهم ولم نأخذ منهم مسدساتهم وجيء بهم الى مكة ثم الى جدة حيث سيقوا الى معاقل الاسرى وكانت قوة الترك في الطائف ثلاثة آلاف مقاتل جرح منهم ٣٠٠ وقتل منهم ٧٠٠

ثم تكلم عن طرائق أهل البادية في حروبهم فقال : نشأ العرب في وسط السلاح ، ومهروا في أساليب الحرب وهم لا يحاربون الا متفرقين لئلا يؤذيهم رصاص البنادق وشظايا القنابل ، ومن أبهج أحوالهم انهم في أثناء نشوب المعارك يتفرغ بعضهم للقتال ويشتغل بعضهم بتهيئة الطعام ويجلس بعضهم لشرب القهوة ويتسلى بعضهم بألعابهم وأغانيهم ، حتى كأن هؤلاء الجماعات لا يدرون شيئاً من أمر المعارك الناشبة في جانبهم ، وبعد قليل يذهب المستريحون بسلاحهم الى ساحة القتال ويعود المحاربون الى المعسكر للاستراحة كأنهم لم يكونوا في حرب

ولهم في اثناء القتال مهارة عجيبة في الاختفاء وراء الحجارة الصغيرة ، والانبطاح على الارض ، والتقلب من مكان الى مكان دون أن يرى الاعداء أشخاصهم . ولهم في كل هذه الاحوال رشاقة وخفة يد في إطلاق الرصاص ، ولا تكاد رمية أحدهم تخطيء غرض صاحبها . والعربي وقت الحرب قائد نفسه ، له الحرية في اختيار المكان الذي يرى السلامة فيه ، من حيث ينال مآربه من عدوه . ولا يتقيد الا بالخطط العامة التي يعطاها . وكان الاعداء لا يستطيعون التفريق بين أحجار الاودية وأجسام العربان ، بل ربما كان يخيل لهم أن الرصاص يأتيهم من الصخور والاحجار لا من بنادق الرجال

وأكثر ما يحارب العرب وقت الظهيرة . واذا أرادوا الهجوم اختاروا له منتصف الليل ورجحوا وقت احتجاب القمر . ولهم حروب سهلية وحروب جبلية فالحروب السهلية يمتطون فيها الخيل والهجن لسرعة الانتقال ، وأكثر عربنا مهارة في ذلك قبائل عتيبة . وأما الماهرون في حرب الجبال فهم ثقيف وقريش وبنو سفيان والنمور وطويرق وهذيل وأشباههم من عرب الحجاز .

آثار الطائف

« مساجده ، المقابر والأنصاب ، الخطوط القديمة في جباله ، الأصنام »

الطائف قليل الآثار القديمة لكثرة ماطرأ عليه من نوازل الحروب والسيول وإني لذاكر ما رأيته تاركاً الزيادة عليه لمن يتوسع في بحثه عنه ويكون له من الوقت والوسائط والمعرفة بانواع الخطوط القديمة كالكوفية والمسمارية والمسند ما يكفي لتتبع كل أثر قديم فيه . أما الشاخص اليوم من آثاره فينحصر في ثلاثة مواضع : المساجد ، والمقابر ، والجبال . وإليك مجمل ماعثرت عليه فيها :

الاول — المساجد القديمة البناء : وهي في شكلها وحجارتها وهندسة بنائها جديرة في أن تؤخذ رسومها إلا انني لم يكن معي ما أصورها به كما انه ليس في الطائف رسام ماهر أعتمد عليه في هذا الشأن . فمنها :

١ — المسجد العباسي : وهو مسجد الحبر ابن عباس وله الشأن الاكبر في مساجد الطائف ومزاراته وقد دفن فيه جماعة (يأتي الكلام على بعضهم في ذكر اشهر المدفونين في الطائف) وهو متسع مستطيل ينسب الى ابن عباس لانه مدفون فيه . وقد كان ومازال موضع عناية زائريه ، كلما تخرب منه جانب عمر . قال العجيمي : ومن جملة من كانت لهم يد في عمارته الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي ابن رسول ، صاحب اليمن سنة ٦٧٥ هـ والمستضيء بامر الله العباسي سنة ٥٩٢ هـ وامير الحاج المصري رضوان بك سنة ١٠٤٧ هـ والشريف زيد بن محسن بن الحسن بن الحسين بن ابي نمي سلطان مكة (كذا) جدّد عمارته سنة ١٠٦١ هـ قال : وقد زادت القبور في المسجد العباسي وكثرت حتى امتلأ نصف صحنه بها ولولا نهي الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه لتواصل وصار جميعه مقبرة . وكانت صلاة الجمعة تقام في مسجد الجمعة في « السلامة » حتى اتفق في أيام هذا الشريف أن كثر القادمون على الطائف فأمر باقامة الصلاة في المسجد العباسي وذلك في ٣ جمادى الاولى سنة ١٠٥٤ ثم قال : وكانوا لايقيمون الجمعة فيه لاعتباره مقبرة لامسجداً .

وجاء في كتاب أشراف مكة وأمرائها [١] ان والي الشام محمد باشا العظم عهد الى الشيخ محمد العنتبلي سنة ١١٩٣ ﻫ بان يزيد في مسجد الحبر ، فزاد فيه ٣٢ ذراعا طولا ومثلها عرضا . وكان ذلك في أيام امارة الشريف سرور بن الشريف مساعد بن الشريف سعيد فلما اطلع على هذه الزيادة جدد في المسجد عقدين في العام نفسه . قال صاحب هذا الكتاب : وفي ٢٨ رجب سنة ١١٩٣ توجه الشريف سرور بأهله الى الطائف من مكة ونزل في قرية السلامة . وفي نصف شعبان أخرج له الهلال القديم الذي كان على قبة الحبر منذ بنيت هذه القبة على يد المستنجد بالله يوسف العباسي سنة ٥٥٥ ﻫ وكان الهلال صفراً مموّهاً بالذهب ، فوضع الشريف سرور بدلاً منه هلالاً أبدع في صنعته ، زنته ٦٠٠ أوقية من الفضة النقية ثم سوّده الندى فامر بتمويهه بالذهب ، وبعد زمن غير طويل أخرجه ووضع آخر اكبر منه يقارب وزنه قنطاراً وموّهه بالنضار سنة ١١٩٦ ﻫ

٢ — مسجد عدّاس في المثناة : ينسب لعداس أول من آمن في الطائف وقد مرّ ذكره في فصل فتح الطائف . وهو مدفون في هذا المسجد . وفي تاريخ الميورقي أن هذا المسجد أقيم في المكان الذي اوى اليه النبي (ص) وأسلم به عدّاس ودفن فيه . قال : ووقف له احد أهل الخير بستاناً لخدمته .

وفي اللطائف للحضراوي [٢] مايؤخذ منه ان هذا المسجد كان يعرف قبل زمنه باسم « مسجد السنوسي » وعرف في أيامه باسم « مسجد الريع » قال : وهو

---

(١) مخطوط ، فيه تراجم جماعة من اشراف مكة وامرائها ابتداء من سنة ١١٦٥ ﻫ الى سنة ١٢٢٠ ﻫ وهو مرتب على السنين ، بارد السجع ، ضعيف الانشاء ، وفي آخره اخبار كثيرة عن حرب الوهابية وكانت في أيامه كما يظهر من كلامه . رأيت منه نسخة في دار الكتب العامرة بمكة ، في نيف و٢٥٠ صفحة ناقصة الاول والآخر والوسط ، وليس فيها مايعرف منه اسم المؤلف .

(٢) الحضراوي : هو الشيخ احمد بن محمد بن احمد الحضراوى من علماء مكة المكرمة توفي بعد سنة ١٣٣٠ ﻫ بقليل . واسم كتابه « اللطائف في تاريخ الطائف » جمعه من عدة تواريخ ، وهو في خمسة كراريس رأيت منه نسخة مخطوطة بمكة ناقصة قليلا من آخرها .

مشرف على السلامة . اما اليوم فمازال الكثيرون يعرفونه بمسجد الربع وادباء الطائف محافظون على تسميته باسمه القديم «مسجد عدّاس» . وهو من قديم الآثار والمزارات .

٣ — مسجد ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم : اول من بناه عمرو بن امية بن وهب بن معتب بن مالك لما أسلمت ثقيف . ثم خرب فجددت عمارته زبيدة بنت جعفر العباسية . قال الفاسي في شفاء الغرام : وجدت بخارج الجدار القبلي من المسجد العباسي حجراً مكتوباً فيه : «امرت السيدة ام جعفر زبيدة بنت جعفر أم ولاة عهد المسلمين بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائة ١٩٢» وقال الحضراوي : المسجد المنسوب للنبي (ص) هو الآن (اي بعد سنة ١٣٠٠ هـ) تحويطة صغيرة طولها يزيد عن ذراع ملاصقة للجدار القبلي من القبة الاخيرة الواقعة في آخر المسجد العباسي على يمين الداخل من بابه الشرقي . اهـ - ولايزال الى يومنا على هذه الصفة .

هذه اشهر المساجد القديمة في الطائف .

∴

الثاني — المقابر والانصاب : وهنا يجد المنقب كثيراً من الخطوط القديمة منها الكوفي والنسخي وما بينهما . وجلها يرجع عهد كتابته الى القرن الخامس والرابع للهجرة وفيها ما هو قبل ذلك يدل عليه أنه مهمل من النقط وتقرأ في ظاهره صورة من مرور الاعصار والازمان . وأكثر هذا النوع بل كل ما رأيته منه عار عن تاريخ كتابته الا ما جاء فيه من اسماء الرجال المدفونين في تلك المقابر فان فيهم القديم والحديث ولم أر بين هذه القبور ما يرتدّ زمنه الى أوائل العصر الاسلامي لانهم في ذلك العصر لم يكونوا يعنون بنقش الأنصاب (وهي المعروفة الآن بالشواهد - جمع شاهدة) بل كانوا يدفنون الميت ويهيلون عليه التراب ويكتفون بوضع حجر عليه ، إشارة الى انه موضع دفنه ليزوره أهلوه وأقرباؤه . أما الاهتمام بشأن المدافن واللحود فقد حدث بعد الجيل الاول من أجيال الاسلام كما يظهر لمن تتبع آثار الرمم البوالي والعصور الخوالي

ولم تكن العرب في القرون الثلاثة : من أواخر القرن الاول الى أواخر القرن الرابع للهجرة تعنى بكتابة شيء على قبورها غير آيات من القرآن الكريم ، وتابعها على ذلك ابناء المئات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فجعل أكثرهم يكتب الآية ويتبعها باسم المدفون وفيهم من يكتب نسبه وشأنه وتاريخ وفاته إن كان من ذوي الانساب أو الزعامة والشأن . وفي ابناء هذه المئات من يضيف الى الآية والنسب والتاريخ أبياتا من الشعر الجيد يصح التمثل بها في باب الزهد بالحياة والحنين الى لقاء وجه الله

فمن نوع ما كان يكتب بعد القرن الاول نصب رأيناه خارج سور الطائف في المقبرة العامة استدللنا من خطه واكتفاء ناقشيه بالآية على أنه مما كتب بين المئة الثانية والثالثة

وأما ما كان يكتب بعد الرابعة فرأينا كثيراً منه . أحده : نصب في هذه المقبرة أيضاً نقشت عليه آية الكرسي وفي ادناه « هذا قبر يوسف بن الحكيم رحمه الله » وليس عليه تاريخ ولكن الخط جميل واضح على القاعدة الكوفية . وثانيه : نصب لم يكتب عليه شيء من آي القرآن الكريم بل اكتفي فيه بذكر الاسم والنسب والتاريخ وهو : « هذا قبر يحيى بن شجاع بن يوسف بن عبد الله ابن علي بن (غير واضحة لعلها الكبير) توفي سنة تسع عشرة وخمسمائة »

وفي مكة كثير من هذا النوع أجمله وأوضحه نصب رأيته محفوظاً في دار الحكم (قصر الملك) طوله شبران وعرضه شبر واحد كتب في أعلاه « بسم الله الرحمن الرحيم : قل ياعبادي الذين أسرفوا ـ الآية » وتحتها « هذا قبر الامير مفرج بن الحسين بن يحيى بن فليته بن القاسم ـ الى ـ ابن موسى الجون ـ الى ـ ابن الحسين بن علي . توفي يوم الجمعة الرابع من ربيع الآخر سنة ست وثمانين وخمسمائة » وعلى أطراف الآية والنسب أبيات يقرأ منها :

هي الحياة اذا سرت أوائلها ... ففي عواقبها التفريق والنكد
اذا الزمان بصرف الدهر مد يدا ... فمن له بتصاريف الزمان يد
والموت يخترم الاحياء عن أمم ... غصبا فلا دية فيها ولا قود

وبعد هذه الابيات بيتان أحدهما ممحوّ والآخر :

رحلت وكنت ما أعددت زادا   وما قصرت في زاد المقيم

وعلى جانب النصب من أعلاه هذان البيتان :

ترحم بفضلك يا واقفاً   وأبصر مكاناً دفعت اليه

تراب الضريح على صفحتيّ   كأني لم أمش يوماً عليه !

وفي أسفله : « عمل عبد الرحمن بن أبي حرمي عفى الله عنه »

ومن أراد مثل هذا في قبور الطائف ومكة وجد كثيراً من أشباهه تختلف خطوطها بين الوضوح والغموض والجودة والرداءة ، أكتفي منها بما قدمته.

∴

الثالث — جبال الطائف : وهنا ما تضيق الصفحات عن استيعابه فان فيها ما هو مليء بالكتابات القديمة والمتأخرة والحديثة . منها بالعربية ومنها بحروف أظنها المسمارية ومنها برسوم كأنها كتابة ولعل فيها ما كتب قبل الاسلام

من ذلك صخرة كبيرة مرتفعة تستقبل القادم عليها من الطائف وهي على مسيرة ثلاثة كيلو مترات من باب الحبر في الطائف ، صعدنا اليها فاذا كتابات ونقوش وفيرة قرأنا بعد الجهد من كتاباتها : « ان الله وملئكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما — وفي آخرها — محمد بن مهدن » وأظنها من آثار القرن الثالث أو الرابع . وهناك كتابات أحدث منها لم اتعرض لها أما القديم فيها فهو صور حيوانات متناسقة أوشكت نقوشها ان تزول ويغلب على الظن انها مما نقش أيام عبادة التماثيل والهياكل والصور والأصنام . منها صور لا نعرف لها حقيقة غير أنها أقرب الى صورة الفيل لولا ان شكل الخرطوم كنصف دائرة في رأسه منحنية الى الداخل من طرفيها . يجاورها غزال ووعل وفرس وربما تكررت هذه الصور

ومن الكتابات الكثيرة في هذه الصخرة وماحولها من الصخور الكبيرة الضخمة ما هو في سطرين اوعدة سطور ، وبعضها في دائرة ، وكثير منها لم نستطع قراءته ، وأما الواضح او الاقرب الى الوضوح ، فمن كتابة القرن الخامس او السادس

لمشابهته خطوط الانصاب السابق ذكرها المكتوبة في ذينك العصرين

وقبل هذه الصخور جبل يسمونه « ام السكارى » يزعمون ان سبب تسميته اتخاذ العرب اياه في الجاهلية موضعاً لاحتساء الشراب ويؤيدون هذا بكثرة ماحوله من الكروم في وادي المثناة والسلامة ولم اجد له ذكراً في المعاجم العربية القديمة. اخبرني قاضي الطائف بان عليه أسطراً تاريخها سنة ١٨٨ ﻫ فصعدته وهو على الجانب الغربي من المثناة فرأيت كتابات كثيرة ولم أر التاريخ الذي ذكره لي ولكنه يؤكد انه رآه. وعلى احدى صخور هذا الجبل رأيت كتابة تقرب حروفها من اللاتينية فنقلتها ولم أهتد الى من يترجمها لي

وهناك جبل آخر يبعد عن الطائف مسيرة ساعة الى جهة الغرب الجنوبي منه يسمونه « الردّف » ويعللون هذه التسمية بترادف حجارته وصخوره بعضاً فوق بعض، والكثيرون يسمونه « السداد » باسم القرية التي هو فيها وسميت بذلك لانه كان فيها ثلاثة سدود لمنع السيول خرب اثنان منها وبقي الثالث متداعياً

وفي هذا الجبل ما هو أكثر فائدة مما تقدم فقد رأيت فيه خطوطا متعددة أكثرها غير مقروء يلوح لي أنها من كتابة القرن الثاني أو بعده بقليل. وفيها ما هو قبل ذلك

ويظهر ان عبد الله بن علي بن أبي محجن الثقفي كان كثير الولوع بالنقش في هذا الجبل فقد رأيت له فيه أثرين غريبين، أحدهما هذا نصه :

« عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة »

ونص الثاني :

« عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله القتل في سبيله على بركته ». .

ومما قرأته في صخور هذا الجبل :

« عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن يشهد أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً »

وهذه الخطوط الثلاثة يظهر أنها من أواخر القرن الاول للهجرة أو أوائل الثاني

هذا ما رأيت إثباته مما اطلعت عليه من آثار الطائف القديمة وهناك أقوال في آثار أخر لم تصح عند الباحثين كصخرة خارج سور الطائف الى الجهة الغربية منه ، فيها حفر على نسق واحد يقال أنها مواطيء أقدام الغزالة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بثابت كما حققه الحافظ ابن الاثير ، وكخرق يسير في جانب صخرة بعد قصر « شبرة » للذاهب من الطائف شرقاً يقولون ان النبي (ص) أو علياً (رض) خرقها بأصبعه ليضع فيها زمام راحلته . . . وهذا غير صحيح أيضاً . وانما ننفي صحة هذين الأثرين - خلافا للشائع - لانهما بعيدان عن المعقول وغير ثابتين في المنقول . وفي كل بلد من امثالهما مايرده البحث فلا نتعرض للاطالة في وصفهما .

الاصنام :

وقد يلحق ببحث الآثار الكلام على اصنام العرب في الجاهلية وان كنت لم اعثر لها على أثر ، غير ما نقل لي وانا في الطائف عن هيكل « العزى » من أنه كان محفوظاً هنالك حتى كانت وقعة الوهابية ومحمد على باشا فعثر الوهابيون عليه فكسروا رأسه ومددوه في الطريق على باب المسجد العباسي الى أن زال منذ عهد قريب . وروي لي أن في طريق السيل (بين مكة والطائف) أثرا شاخصاً يراه المار به عن بعد في صورة انسان ، منقوشاً على صخرة ، وحين يقترب منه لا يشهد غير أثر تخطيط ونقوش هي أقرب الى الغموض

وقد كانت قبائل ثقيف قبل الاسلام تعبد صنمين احدهما اللات والثاني العزى كما كان لكل قبيلة في العرب صنم يعبده جهلاؤها ، ويتقرب فيه الى الله عقلاؤها ، واتماما للفائدة أذكر أشهر هذه الاصنام بايجاز ما استطعت :

(١) اللات : قال علماء التاريخ : هو صخرة بيضاء مربعة كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحجاج في زمن الجاهلية الاولى . ثم اعتقدت ثقيف أن إلهها دخل في تلك الصخرة ، فبنوا عليها بنيانا وعبدوها ، وجعلوا لها سدنة ، وطافوا حولها ، وضاهوا بها الكعبة ، وجعلوا لها كسوة ، وحرموا الصيد في واديها . فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله (ص) المغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها

بالنار وقال ياقوت : هي اليوم (اي في عصره) تحت مسجد الطائف . فلعل ذلك ما بقي من الصخرة بعد احراق البناء الذي فوقها وهدمه . وقيل ان أصل اسمها « اللاه » فأبدلوا الهاء بالتاء قبل الاسلام

(٢) العزى : تأنيث الأعز . يظهر من كلامهم انها كانت على شكل امرأة ، نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بانيابها . وكانت في واد من نخلة الشامية (على ليلتين من مكة) الى يمين المصعد الى العراق . اتخذها رجل يسمى ظالم بن أسعد فبنى عليها بيتاً ، وهي أحدث من اللاة ومناة ، وكانت أعظم الاصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون لهـا ويتقربون عندها بالذبائح . ويقال ان النبي (ص) ذكرها يوماً فقال : لقد اهتديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي . وكانت قريش تخصها بالاعظام وقد حمت لها شعباً من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة . وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر . وكان من الناصبين في عبادتها ابو احيحة سعيد بن العاصي بن أمية ـ وكان عزيزا في قريش يعتم بمكة فلا يجسر أحد أن يعتمّ بلون عمامته ـ ولما قوي ساعد الاسلام بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد الى العزى فكسر رأسها وقتل سادنها دبية بن حرمى السلمي

(٣) مناة : صنم كان بيثرب (المدينة المنورة) يقال إنه أقدم أصنام العرب . وكان أشـد الناس تعلقا به الاوس والخزرج ومن يحذو حذوهم من عرب يثرب وما جاورها ، فكانوا يحجون (الى الكعبة) ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فاذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنـده وأقاموا ، لايرون لحجهم تماما إلا بذلك . وكانت قريش وجميع العرب تعظم مناة حتى خرج النبي (ص) سنة ثمان للهجرة (وهو عام الفتح) فبعث ابا سفيان بن حرب فهدم مناة وأخذ ما كان لها ، ووجد عندها سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني أهداهما اليها ، احدهما يسمى مخذماً والثاني رسوباً ، وهمـا من أسياف العرب المشهورة . ولم أجد وصفاً لمناة

(٤) هبل : قيـل انه كان من عقيق احمر ، على صورة الانسان ، مكسور

اليد اليمني أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب ووضعته في جوف الكعبة . أول من نصبه خزيمة بن مدركة ، وقد يسمونه « هبل خزيمة » . وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها أعظمها عندهم هبل . وعبدته بنو كنانة — وكانت تعبد ما تعبده قريش — وقد كسر مع أصنام الكعبة يوم فتح مكة .

(٥) ودّ : تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، نقش عليه حلتان متزر بحلة ومرتد بأخرى ، عليه سيف ، قد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبل . كان لبني وبرة في دومة الجندل (المعروفة الآن باسم الجوف على شرق سورية الى الجنوب) . وكانت سدانته لبني الفرافصة بن الاحوص الكلبيين . هدمه خالد بن الوليد

(٦) سواع : صنم كان لهذيل في ينبع . سدنته بنو لحيان

(٧) يغوث : صنم قديم ، كان لمذحج على أكمة في اليمن تعرف بأكمة مذحج ثم نقل الى نجران

(٨) يعوق : صنم قديم أيضا كان لهمدان في اليمن قيل في قرية تدعى خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة . قال ياقوت : ولم أسمع لهمدان ولا لغيرها شعراً فيه وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير فدانوا معهم باليهودية أيام تهوّد ذي نواس فتهوّدوا معه

(٩) نسر : من الاصنام القديمة . كان في موضع من أرض سبأ في اليمن فعبدته حمير ومن والاها ولم تزل تعبده حتى تهودت مع ذي نواس .

(١٠) إساف : من قديم الاصنام كان بمكة على الصفا وكسره الصحابة يوم الفتح

(١١) نائلة : صنم قديم أيضا كان منصوبا على المروة بمكة وهو في شكل امرأة وكان اهل الجاهلية اذا سعوا مسحوا به . كسر يوم الفتح

(١٢) ذو الخلصة : صنم مشهور اختلف المؤرخون في مكانه وهيأته . ومن أقوالهم — ولعله الاقرب الى الصحة — انه مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيأة التاج

كانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة . وكان سدنتها بني أمامة من باهلة . وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة تعظمها وتهدي لها . هدمها جرير بن عبد الله واضرم في بنيانها النار بعد أن أسلم

اعلام الطائف

« شهداء وقعته ، بعض المعروفة قبورهم فيه ، رجال ثقيف ، نساء ثقيف »

تهاون المؤرخين المتقدمين في الكلام على الطائف أضاع على ابن هذا العصر تراجم كثير من ابنائه في الجاهلية والاسلام ومابعده الى يومنا . ولما كانت القاعدة المعمول بها أنّ مالم يكن كله فليكن جله او أقله ، رأيت أن اسمي هنا اشهر من ولدوا في ديار الطائف او دفنوا فيه ممن توصلت الى معرفتهم بالنقل أو بالأثر

شهداء وقعته :

يحسن بي ان ابدأ هذا الفصل بالكلام على من ثبت استشهادهم في الطائف من الصحابة رضوان الله عليهم في غزوة النبي (ص) لثقيف عام ثمانية للهجرة . وهم اثنا عشر رجلاً وبعض المؤرخين يضيف اليهم عبدالله بن ابي بكر الصديق لانه جرح في غزوة الطائف وتوفي في المدينة متأثراً من جرحه فيكونون ثلاثة عشر : سبعة من قريش ، واربعة من الانصار ، وواحد من بني الليث ، وآخر من ثقيف .

١ — عبد الله بن ابي بكر الصديق : لم يمت في الطائف وانما جرح في غزوته ، واندمل جرحه مدة حتى اذا كان في المدينة انتكث الجرح فتوفي بها .

٢ — سعيد بن سعيد بن العاص بن امية بن عبد شمس القرشي الاموي : امه صفية بنت المغيرة عمة خالد بن الوليد . أسلم قبل فتح مكة بيسير وقتل شهيداً يوم الطائف .

٣ — عرفطة بن عبدالله بن امية : احد ثلاثة كانوا يعرفون بزاد الراكب لان من سافر معهم كان زاده عليهم . توفي شهيداً في هذه الوقعة على الارجح .

٤ — السائب بن الحارث بن قيس القرشي : احد المهاجرين الى الحبشة قتل في هذه الوقعة .

٥ — عبدالله بن الحارث بن قيس : من المهاجرين الى الحبشة ايضاً . قتل في الوقعة نفسها وهو اخو السائب وبهما انقرضت ذرية ابيهما الحارث .

٦ — طلحة بن عبدالله بن ربيعة : قتل في وقعة الطائف بسهم من أحد أهلها .

٧ — ثابت بن الجزع ، ويسمى ثعلبة ، الانصاري الخزرجي السلمي : شهد العقبة وبدراً وقتل بالطائف شهيداً

٨ — الحارث بن سهيل بن أبي صعصعة الانصاري ، قتل في هذه الوقعة

٩ — المنذر بن عبد الله الانصاري من الخزرج : من شهدائها

١٠ — رقيم الانصاري : من شهدائها

١١ — رجل من بني الليث لم يذكروا اسمه : من شهدائها

١٢ — عروة بن مسعود الثقفي : من شهدائها

١٣ — عبد الله بن عامر بن ربيعة : من شهدائها .

وفي تراجمهم والمواضع التي توفوا بها خلاف لاحاجة بي اليه .

بعض المعروفة قبورهم فيه :

١) ابن عباس : أشهر من دفن في الطائف ذكراً . صاحب المسجد العباسي فيه ، الصحابي ، ابن عم صاحب الرسالة (ص) : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . جد الخلفاء العباسيين . قال صاحب دستور الاعلام : ابن عباس الهاشمي الفقيه المفسر ترجمان القرآن ورباني هذه الامة ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . وقال غيره : ابن عباس أحد الستة المكثرين من حفظ الحديث عن رسول الله الراوين الألوف ، وهم : ابو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وابن عباس ، وأنس ، وعائشة . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : ما رأيت أحداً أحضر فهما ولا ألب لبًا ولا أكثر علماً ولا أوسع حلما من ابن عباس . وكان علي يقول في ابن عباس : إنه لينظر الى الغيب من ستر رقيق !

وكان ابيض وسيما جسيما مشرباً بصفرة طويلا صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء ويلبس الخز ويعتمّ بعمامة سوداء يرخيها شبراً . توفي سنة ٦٨ هـ وقد كف بصره .

٢) عبد الله بن عون : أحد أمراء مكة وأشرافها من ذوي عون . الشريف عبدالله باشا بن محمد بن عبدالمعين بن عون . وبقية النسب معروفة . قال زيني دحلان في الجداول المرضية : ولي امارة مكة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٧٤ ﻫ وكان في الآستانة برتبة الوزارة فوصل مكة سنة ١٢٧٥ ﻫ واستمر الى ان توفى سنة ١٢٩٤ ﻫ وهو بالطائف في بستانه المسمى بشبرة وعمره سبع وخمسون سنة ومدة ولايته عشرون سنة إلا ثلاثة أشهر ، ونقل الى قبة ابن عباس فدفن فيها .

٣) الشريف جعفر : من امراء مكة أيضاً ، وهو الشريف جعفر بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن . ولي الامارة سنة ١١٧٢ ﻫ ثم تنازل عنها بعد شهر الى أخيه مساعد وتوجه الى الطائف فمكث به الى ان توفي سنة ١١٧٨ ﻫ

٤) ابن الحنفية : ابو القاسم محمد بن علي بن ابي طالب . المعروف بابن الحنفية نسبة لامه ، وتمييزاً لسبطي رسول الله (ص) من فاطمة عنه . كان عالماً ورعاً ، شديد القوة ، له فيها أخبار عجيبة (انظر وفيات الاعيان) ولد سنة ٢١ وتوفي سنة ٨١ ﻫ والمؤرخون مختلفون في موضع وفاته ودفنه . وأهل الطائف لا يشكون في انه بمقبرة ابن عباس . على ان في جملة الاقوال انه مات في الطائف .

٥) الميورقي المؤرخ : ابو العباس الشيخ احمد الميورقي ، توفي سنة ٦٧٨ ﻫ سبقت لنا كلمة عنه . دفن في مقبرة ابن عباس . قال ابن عراق في نشر اللطائف : وفي جبانة ابن عباس قبر الشيخ ابي العباس الميورقي ، وبقربها شجرة سدر تسمى الحدباء كانت قريش تعتمد الرأي تحتها (وقد زالت الآن)

٦) عون الرفيق : الشريف عون الرفيق (باشا) ابن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون . ولي امارة مكة في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ ووصل مكة يوم ١٠ ذي الحجة وظل متربعاً في دست الامارة الى ان توفي في الطائف عام ١٣٢٣ ﻫ فدفن في مقبرة الحبر بن عباس .

∴

وهناك آخرون من المعروفة قبورهم في الطائف ، أضربت عن ذكرهم إيجازاً .

٩ — ما رأيت وما سمعت

رجال ثقيف :

١) زياد : من أشهر المولودين في ديار الطائف زياد بن عبيد [١] وهو المعروف بزياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين في نسبته . كنيته ابو المغيرة ، وأمه سمية [٢] ولد سنة الهجرة . وأسلم في عهد أبي بكر وكان كاتب ابي موسى الاشعري في امرته على البصرة . ولما توفي علي بن ابي طالب كان زياد عامله على فارس فتحصن في قلعة وعصى معاوية . فألحقه معاوية بنسبه وأثبت أنه أخوه من صلب أبي سفيان . وصالحه على الفي الف درهم (٢٠٠٠٠٠٠ درهم) فجمع له زياد إمرة العراق . قال ابن حزم في الفصل : امتنع زياد وهو قفعة القاع لا عشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم فما أطاقه معاوية الا بالمداراة وحتى أرضاه وولاه ! وقال الذهبي : كان زياد لبيباً فاضلا حازماً من دهاة العرب بحيث يضرب به المثل وقال الشعبي : ما رأيت أحدا اخصب نادياً ولا أكرم مجلسا ولا أشبه سريرة بعلانية من زياد . وقال الاصمعي : أول من ضرب الدنانير والدراهم ونقش عليها اسم الله ومحا عنها اسم الروم ونقوشهم زياد . وقال العتبي : ان زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بحضرة السلطان . وقال الشعبي : أول من جمع له العراق وخراسان وسجستان والبحران وعمان زياد . وهو أول من عرّف العرفاء ورتب النقباء ومشى الأعوان بين يديه ووضع الكراسي وربع الارباع بالكوفة والبصرة وخمس الاخماس

وقال الاصمعي : الدهاة أربعة : معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلة وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

ولي العراق وحاول ضم الحجاز اليه فعاجله الموت سنة ٥٣ هـ ولم يخلف غير الف دينار وقميصين وازارين ، لا دار له ولا عقار .

٢) الحجاج : ومن مواليد ديار الطائف الحجاج الثقفي . قال الذهبي في تاريخه : هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي (أمير العراق) ولد سنة ٤٠ للهجرة . وروى عن ابن عباس وسمرة بن جندب واسماء

---

(١) عبيد مولى للحارث بن كلدة الثقفي (٢) جارية الحارث بن كلدة

بنت أبي بكر الصديق وابن عمر . وكان له بدمشق امر . ولي امارة الحجاز . ثم ولي العراق عشرين سنة

قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أحدا أفصح من الحسن والحجاج والحسن أفصحها . وقال يزيد بن أسلم الثقفي : كان الحجاج على مكة فكتب اليه عبد الملك بن مروان بولايته على العراق فخرج في ثمانية أو تسعة على النجائب . وقال عبد بن شوذب : ما رؤي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه . كان سفاكا سفاحاً للدماء . عاش خمساً وخمسين سنة وتوفي ليلة ٢٧ رمضان سنة ٩٥ هـ . قال ابن خلكان : مات الحجاج بواسط وأجري الماء علي قبره فاختفى واندرس ، والشائع اليوم أن مولده في قرية بني صخر من قرى الهدة وقد مرت لنا كلمة في هذا الشأن . وخطبه معروفة اشهرها البتراء

٣) ابن ابي العاص : ابو عبد الله عثمان بن ابي العاص بن بشر الثقفي أحد الوافدين على رسول الله من ثقيف وكانوا بضعة عشر رجلا هو اصغرهم سناً لايتجاوز عمره اذ ذاك ٢٧ سنة . توسم فيه النبي (ص) الخير والنجابة فاستعمله على الطائف فكان اول أمير عليه في الاسلام ولم يزل في عمله مدة حياة النبي وأقرّه أبو بكر ولما انتهى الامر الى عمر أبقاه سنتين ثم نقله منه وولاه عمان والبحرين سنة ١٥ هـ وفي أواخر أيامه رحل الى البصرة فمات بها سنة ٥١ وقيل ٥٥ هـ

٤) الحكم بن ابي العاص : اخو عثمان السابق ذكره ، قيل كانت له صحبه . وولاه اخوه عثمان البحرين فافتتح فتوحاً كثيرة . قال ابن سعد في الطبقات : ولما كان اخوه على الطائف كتب اليه عمر : أقبل واستخلف اخاك الحكم . فاستخلفه حتى عاد . ولما ولي عثمان عمان والبحرين في أيام عمر عهد الى اخيه الحكم بولاية البحرين فأدار شؤونها . ولعله توفي بها .

٥) عبد الله بن عمرو : بن غيلان الثقفي . ادرك الجاهلية ، واسلم قبل حجة الوداع . ثم رحل من الطائف الى الشام فاتصل بمعاوية فكان من كبار رجاله ، وولاه البصرة بعد موت زياد فاقام عليها اميراً ستة اشهر .

٦) عبد ياليل : بن عمرو بن عمير الثقفي ، من عظماء ثقيف ووجوهها في

الجاهلية والاسلام . تقدم ذكره في فتح الطائف وإسلام ثقيف ، ارسله قومه الى رسول الله (ص) بعد رحيله من حصار الطائف ، يفاوضه في إسلامهم وبيعتهم فاستصحب معه وفداً منهم ، واتفق مع النبي (ص) فأسلم هو ومن معه وعاد الى ثقيف فأسلمت كلها .

٧) جبير بن حية بن مسعود الثقفي ، ابن عم المغيرة بن شعبة ، وابن اخي عروة ابن مسعود . شهد الفتوح في عهد عمر ، وكان يسكن الطائف يعلم الصبيان فيه ، ثم قدم العراق فاستقر كاتباً في الديوان ثم ولاه زياد أصبهان وعظم شأنه . ومات في خلافة عبد الملك بن مروان .

٨) الأخنس الثقفي : ابو ثعلبة أبيّ بن شريق . يلقب بالاخنس . من شجعان ثقيف كان حليف بني زهرة ، أسلم وشهد حنيناً . ومات في أول خلافة عمر

٩) الأسود بن مسعود : من شعراء ثقيف ، وفد على النبي (ص) ومدحه بابيات.

١٠) أسيد بن جارية : بن أسيد الثقفي . كان حليفاً لبني زهرة ، اسلم يوم فتح مكة وشهد حنيناً وأعطاه النبي (ص) مئة من الابل .

١١) امية بن ابي الصلت : الشاعر الجاهلي المشهور . من حكماء العرب وعقلائهم كان له نظر في الجاهلية بكتب الاديان ، وتزهد فلبس المسوح وتعبد على دين ابراهيم واسماعيل ، وحرم على نفسه الخمر ، وتجنب عبادة الاوثان ، وادرك بدراً ورثى قتلاها . وشعره كثير ، وهو من ثقيف مات ايام حصار الطائف وهو فيه ، عام تسع

١٢) يوسف الثقفي : بن محمد بن يوسف . ابن اخي الحجاج . عدّه صاحب « الارج المسكي » (١) في جملة من ولوا امر مكة المكرمة غير الاشراف . وذكر انه وليها من قبل الوليد بن يزيد بن عبد الملك عام ١٢٥ هـ . وفي « اتحاف فضلاء الزمن » (٢) مايؤكد هذا وزاد عليه ان ولايته دامت الى انقضاء دولة الوليد سنة ١٢٦ هـ ولم يذكرا تاريخ وفاته .

---

(١) الارج المسكي والتاريخ المكي – للعالم الامام عبد القادر الطبري الشافعي المكي ، كتاب في مجلد غير ضخم . منه نسخة مخطوطة بمكة . (٢) اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن – للشيخ محمد بن علي بن فضل بن عبدالله بن محمد –

١٣) خفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفي . وفد على النبي (ص) فأسلم وانشد قصيدة اورد ابن حجر في الاصابة بعض ابياتها

١٤) العرجي : الشاعر المشهور ، عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان القرشي الاموي . قيل له العرجي لانه كان يسكن قرية العرج في الطائف . وفي العقد الثمين [١] أن محمد بن هشام بن اسماعيل كان واليا على مكة لهشام بن عبد الملك فسجن العرجي في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر . فلم يزل في السجن الى أن مات ولم يذكر تاريخ وفاته .

١٥) السائب الثقفي : السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر . روى الكلبي عن ابن عباس أنه لم يكن في العرب أمرد ولا أشيب أشدّ عقلاً من السائب بن الاقرع . دخلت به أمه على النبي (ص) وهو غلام فمسح رأسه ودعا له . ثم استعمله عمر (رض) ووجهه الى نهاوند ، وشهد فتحها . وكان عاملا لعمر على المدائن . ثم ولي اصبهان ومات فيها .

١٦) سفيان بن عبدالله : ابن ابي ربيعة الثقفي . أسلم مع الوفد . وكان عاملا لعمر على صدقات الطائف عام ٢٤ هـ وقيل انه كان أحد عمال النبي (ص) في الطائف

١٧) الحارث بن كلدة : طبيب العرب ، الحارث بن كلدة بن ابي علاج بن ابي سلمة الثقفي . وفد على كسرى قبل الاسلام وقصته مشهورة . واختلفوا في اسلامه . وكان في الطائف أيام حصاره ، والراجح انه مات قبل حجة الوداع لما

ـ ابن يحيى بن مكرم بن المحب محمد الطبري الحسيني المكي امام المقام الابراهيمي الملقب بالجمال الأخير ، توفي سنة ١١٦٣ هـ ودفن بالمعلى في شعبة النور . وكتابه هذا من اجل ما رأيت في موضوعه ، اتى فيه على ذكر امراء مكة المكرمة وغيرهم من ابناء الحسن (رض) وهو مجلد كبير رأيت منه نسخة بمكة حسنة الخط حديثته .

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الامين للمؤرخ الامام الحافظ ابى الطيب محمد تقي الدين بن احمد بن علي الحسنى الفاسي المكي المتوفى في منتصف القرن التاسع للهجرة . كتابه عظيم الفائدة حافل باخبار مكة وهو في عدة مجلدات كبار ، رأيت نسخة منه بمكة واضحة الخط .

يذكرونه من انه لم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم ، وشهدها أكثرهم . وكان الحارث يعالج مرضى المسلمين اذا جيء بهم اليه . وفي ترجمته طول .

١٨) المغيرة بن شعبة : ابن أبي عامر بن مسعود بن معتب الثقفي : الامير الداهية من كبار أمراء العرب في صدر الاسلام . اشتهر بجودة آرائه حتى قيل له مغيرة الرأي . اسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وشهد بيعة الرضوان ، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق . وأصيبت عينه في وقعة اليرموك ففقدها . وولاه عمر البصرة ففتح ميسان وعدة بلاد غيرها . ويذكرانه أول من وضع ديوان البصرة وأول من سلم عليه بالامرة وكان من قبله عمالاً لا إمارة لهم . ثم نقله عمر الى الكوفة . واقره عثمان ثم عزله . ولما قتل عثمان اعتزل المغيرة القتال الى ان حضر مع الحكمين فبايع معاوية بعد اتفاق الناس على بيعته . وولاه معاوية الكوفة فاستمر على إمرتها حتى مات سنة ٥٠ هـ

١٩) الشريد بن سويد : الثقفي من سكان الطائف ، قيل كان اسمه مالكا والشريد لقبه . رحل الى مصر في الجاهلية مع المغيرة بن شعبة ثم كانت له صحبة وكان النبي (ص) يستنشده شعر أمية ابن أبي الصلت فيرويه . وشهد بيعة الرضوان .

٢٠) طريح بن اسماعيل : ابن عقبة الثقفي : شاعر مجيد ضاع شعره . ادرك عصر النبوة فأسلم . ولما صارت الدولة الى بني أمية وآل الامر الى الوليد بن يزيد في الشام وفد عليه وتوسل له بالخؤولة لان أم الوليد ثقفية ، فاختصه الوليد نديماً فكان اكثر شعر طريح في مدح الوليد . وعاش الى خلافة المهدي بن المنصور العباسي فقصده وأراد الدخول عليه ليسمعه شعره فأبى المهدي . ومات في أيام الهادي .

٢١) غيلان بن سلمة : ابن معتب بن مالك الثقفي . شاعر خطيب فصيح ذو شأن وفد على كسرى في خبر طويل . أسلم بعد فتح الطائف وأسلم أولاده وهم أربعة : عامر وعمار ونافع وبادية . مات في آخر خلافة عمر

٢٢) عامر بن غيلان : ابن سلمة الثقفي . أسلم مع أبيه بعد فتح الطائف ورحل

الى الشام مع خالد بن الوليد . وكان عامر فارس ثقيف يومئذ . توفي بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ ورثاه ابوه غيلان

٢٣) ابن أبي عقيل : عبد الله بن أبي عقيل الثقفي . كان شجاعا حازماً . نزل بالكوفة ، وهو أحد اربعة بعث بهم عمر سنة ٢١ هـ مادة (نجدة) للاحنف بن قيس في مرو الشاهجان . ذكره الطبري في تاريخه .

٢٤) عثمان بن ربيعة : من شجعان ثقيف بعثه عثمان بن ابي العاص حاكم الطائف عند وفاة النبي (ص) الى من تجمع من الازد في شأن الردة فحاربهم وهزمهم وقال في ذلك من أبيات :

وأبرق بارق لما التقينـــا وعادت خلباً تلك البروق !

٢٥) عمرو بن شبيل : من ولد عتاب بن مالك الثقفي : شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة . وفي معجم الشعراء للمرزباني انه مخضرم ادرك الجاهلية والاسلام وله شعر لم يحفظ .

٢٦) عمرو بن مسعود بن معتب الثقفي . أخو عروة الصحابي المشهور . كان صديق أبي سفيان بن حرب في الجاهلية ينزل عليه ابو سفيان اذا أتى الطائف وعاش الى ان أسن ووفد على معاوية وهو شيخ كبير فأنشده أبياتاً وكان شاعراً .

٢٧) قارب بن الاسود : ابن مسعود بن معتب الثقفي . كان قائداً شجاعاً صاحب رأي . حمل راية الاحلاف يوم حنين وقيل بل حمل راية ثقيف في الاحلاف فلما تبين الوهن فيهم قال لقومه : اعصبوا رايتكم بشجرة ليحسب من رآها انكم لم تبرحوا وانجوا على خيلكم ، ففعلوا فنجوا . أسلم في وفد ثقيف وقيل قبله .

٢٨) القاسم بن أمية : ابن ابي الصلت الثقفي : كان شاعراً . وأدرك مقتل عثمان بن عفان فرثاه .

٢٩) كنانة بن عبد ياليل : من رؤساء ثقيف يروى انه الوحيد الذي ابى أن يسلم منهم . ولما اسلمت ثقيف خرج الى نجران ثم توجه الى بلاد الروم فمات بها على دين الجاهلية بعد السنة العاشرة من الهجرة .

٣٠) مالك بن عمرو : من خطباء ثقيف وشعرائها . وجهه ابو بكر بعد الردة رسولا الى مسيلمة باليمامة فخطب عنده خطبة بليغة دعاه فيها للرجوع الى الحق فغضب منه وهمّ بقتله ، فنجا .

٣١) شرحبيل بن غيلان الثقفي . أحد من اوفدتهم ثقيف باسلامها الى رسول الله وكان وجيهاً في قومه ، من ذوي الرأي والعقل ، مات سنة ٦٠ هـ

٣٢) عروة بن مسعود : الثقفي ، الصحابي المشهور . قدم على النبي (ص) بعد انصرافه من الطائف فأسلم وسأل النبيّ أن يأذن له بالاياب الى قومه يدعوهم للاسلام فأذن له بعد أن انذره بشر يصيبه منهم . وكان عروة وجيهاً في ثقيف ذا منزلة وشأن فلما عاد الى الطائف صعد الى علية له ودعا قومه الى ماجاء به فرموه بالنبل فقتلوه . قيل له وهو يلقى الموت : ماترى في دمك ؟ فقال : كرامة اكرمني بها الله وشهادة ساقها اليّ ، ليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا بين يدي رسول الله فادفنوني معهم . فلما مات دفنوه بين شهداء الطائف السابق ذكرهم وعدّ منهم . وكان مقتله سنة تسع من الهجرة .

٣٣) الحكم بن مسعود : بن عمرو الثقفي . اخو ابي عبيد . شهد وقعة الجسر مع اخيه سنة ١٣ هـ واستشهد بها .

٣٤) عبد الله بن مسعود : اخو الحكم وابي عبيد. استشهد معهما في وقعة الجسر

٣٥) ابو عبيد بن مسعود : بن عمرو الثقفي . والد المختار الثقفي . كان قائداً من كبار الغزاة . آخر ماعرف عنه قيادته الجيش في وقعة الجسر سنة ١٣ هـ واستشهد فيها . واتخذ يومه تاريخاً ، يقال : قتل فلان يوم جسر ابي عبيد .

٣٦) المختار الثقفي : ابن أبي عبيد الثقفي . في ترجمته اعاجيب كان شجاعا مقداماً وخطيباً حازماً وداهية صليب العود . له مثالب ومناقب . ولد عام الهجرة ورحل من الطائف مع أبيه في أوائل أيام عمر حين ندب الناس الى العراق . فاستشهد أبوه وأخوان له يوم الجسر وأقام المختار في المدينة منقطعاً الى بني هاشم . ثم كان مع علي بالعراق . وسكن البصرة بعد علي . ونفاه بنو أمية الى الطائف بلدته فمكث الى أن قام عبد الله بن الزبير في طلب الخلافة فجاءه الى مكة فسيره الي الكوفة

وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير أمور اتسع خرقها فانفرد المختار بجيشه وقاتل مصعباً حتى تغلب مصعب فقتله سنة ٦٧ هـ في الكوفة . وكان يجهر بالمطالبة بدم الحسين . وادعى النبوة . وقتل المختار كل من اشترك بقتل الحسين .

٣٧) ابو محجن : الثقفي الشاعر الفارس المشهور . شهد حرب القادسية وخبره فيها معروف وسكن اذربيجان حتى مات .

من نساء ثقيف :

١) بادية بنت غيلان : تقدمت ترجمة أبيها غيلان الثقفي . من النساء المعروفات في التاريخ والحديث . اسلمت حين أسلم أبوها ورأت النبي (ص) وروت احاديث عنه وعن عائشة .

٢) رقيقة الثقفية : اسلمت حين خرج النبي (ص) من مكة الى الطائف في المرة الاولى وكتمت اسلامها حتى ماتت قبل فتح الطائف .

٣) زينب : بنت ابي معاوية بن عتاب الثقفية ، امرأة عبد الله بن مسعود الثقفي . روت بضعة احاديث . وروى عنها غير واحد .

٤) الفارعة بنت أبي الصلت : أخت أمية بن ابي الصلت الشاعر المشهور . قدمت على النبي (ص) بعد فتح الطائف وكانت ذات اب وعفاف وجمال . وكان يعجبه أدبها ويستنشدها شعر أخيها فتنشده .

٥) ميمونة بنت كردم : امرأة من ثقيف لها سمعة . رأت النبي (ص) وسمعت منه وروت الحديث .

داخل السور

سور الطائف ، أبوابه ، حاراته ، منازله ، سكانه ،
قلعته ، ثكنته ، أميره ، مدارسه ، أدباؤه

اذا أطلق لفظ الطائف اريد به البلدة وما حولها من قرى وجبال وأودية حتى منتهى الحدود من كل جانب . ولذلك اخترت العنوان « داخل السور » دفعاً للالتباس وحصراً للكلام في المدينة نفسها

أحيط الطائف بسور يضم داخل البلدة من جميع أطرافها وليس هذا بالحائط الذي يقال ان الطائف سمي لأطافته به منذ عرفت هذه الديار في العصور الغابرة بل ان ذلك قد اندرس واقيم هذا بعد عام الالف حول أكبر قرية في ديار الطائف ومابرح الامراء والاشراف وغيرهم يتعهدونه بالاصلاح والترميم والبناء حتى بقي الى الآن حافظا مكانه

∴

ولسور الطائف ثلاثة أبواب تغلق كل يوم بعد الغروب ، ويجوز أن تفتح الى الساعة الثالثة من الليل (نحو التاسعة زوالية) لفريق مخصوص من الناس أو لمن كان معروفاً لدى الشرطة حفظة الابواب . وأما بعد الثالثة فقلّ أن تفتح لاحد . والابواب الثلاثة هي :

١ — باب الحزم : وهو الشرقي الموصل الى شبرة

٢ — باب الريع : وهو الغربي الموصل الى السلامة والمثناة

٣ — باب ابن عباس : وهو بجانب مسجد ابن عباس يقع على الجهة الجنوبية الى الغرب من الطائف

وهذه الابواب (او البيان كما يقولون) يرجع عهدها الى زمن بناء السور على الغالب وقد جددت عمارته قبل قدوم محمد علي باشا المصري الى الحجاز (وكان قدومه سنة ١٢٢٨ هـ) وبقيت الابواب تعرف باسمائها الى اليوم .

∴

والطائف ثلاث حارات (ج : حارة — وهم يجمعونها على حواير)

الاولى : حارة فوق : وهي وراء باب الريع للداخل على البلدة .

والثانية : حارة أسفل : وهي مسكن الامراء والاشراف وتقع خلف باب الحزم .

والثالثة : حارة السليمانية : وهي على مقربة من باب ابن عباس يراها الداخل من هذا الباب على يمينه .

وأوسع هذه الحارات وأكثرها سكاناً حارة أسفل ثم حارة فوق ثم السليمانية . وقد تخرب ، في أيام الثورة الاخيرة على الترك ، كثير من بيوت حارة أسفل .

وكانت منازل الطائف قبل الحرب تناهز الفاً وخمس مئة منزل . وفي أوائل الحرب اشتدت ازمة العيش فيه فبرحه بعض سكانه . ثم كانت الثورة فتهدم جانب عظيم من القصور والابنية وتداعى جانب غير يسير ما زال الى اليوم يراه الناظر شاخصاً في الفضاء ، وقد جرد من الاثاث والبلور وتباعد عنه الناس مخافة سقوطه . فلا أصحاب هذه المنازل يعنون بها فيعمروها ، ولا هي تسقط فيستفاد من أرضها . وقد أخبرني رئيس بلدية الطائف أن الدور العامرة الآن المسكونة قد لا تزيد على الف دار .

. .

واما سكان بلدة الطائف عدا القرى المحيطة بها والقبائل الضاربة قريباً منها أو بعيداً عنها . فهي الآن لاتقل عن خمسة آلاف وربما كان عدد الراحلين عنها قبل الثورة يقارب عدد الباقين اليوم .

. .

وقد زرنا قلعتها وهي غير قديمة ، بنيت منذ نيف ومئة عام ، طول المعمور منها نحو خمسين متراً وعرضه نحو ٢٥ متراً . وكانت ذات طبقتين (دورين) فلما نشبت الحرب بين العرب والترك اضطر الاتراك لرفع مدافعهم الى اعلاها واقاموا وراء كل جدار منها جداراً ملاصقاً له يقيهم قنابل مقاتليهم من الجبال المحيطة بالطائف بحيث تكون الجدران بضخامتها كالحصون . وبعد أن أتموا بناء الجدران واصعدوا المدافع ، رأوا أن الثقل اشتد على البناء الاسفل وخافوا انهياره ، فعمدوا الى السقف الاعلى فخربوه تخفيفاً ، وازالوا نحو مترين من ارتفاع جدران الطبقة الثانية فاصبحت القلعة الآن ذات طبقة واحدة أي الطبقة السفلى . واما الثانية فبقي نحو نصفها ولا سقف لها ، وفيها رأينا الغرفة التي كانت سجن مدحت باشا زعيم أحرار الترك المشهور وهو مدفون في الطائف .

وزرنا الثكنة العسكرية ايضاً وهي واسعة جداً طولها نيف وثلاث مئة متر وعرضها نحو ٢٥٠ متراً وليس فيها ابنية مرتفعة اكتفاء بمبانيها السفلية وهي مأوى الجند النظامي الآن .

وعرفنا في الطائف حاكمه الشريف شرف بن راجح بن فواز بن ناصر. وقد علمت من أحد العارفين أن حكومة مكة جعلت لهـذه الأسرة الولاية على الطائف بالتوارث منذ زمن غير قريب، ثقة بها واعتماداً على إخلاصها.

∴

وهنا يجدر بي أن اذكر كلمة عن اسم كانت تعرف به هذه البلدة ثم نسي، فقد اتفق أهلها اليوم ومن جاورهم من سكان القرى بل كل من عرف الطائف على اختصاص البلد بهذا الاسم. والصواب ان يقال إن الطائف هو اسم عامّ لجميع ما يدخل في حدوده من قرى ومزارع وأودية. وقد كانت هذه البلدة قرية أنشئت حديثاً بعد سنة الف للهجرة على أثر خراب قرية السلامة القريبة منها. ثم اتسع بنيانها وكانت تدعى قرية «الهضبة» ولما كبرت تنوسي هذا الاسم واطلق الناس عليها اسم الطائف كما يطلق اسم الشام على دمشق، والشام هي سورية كلها.

وقد جريت في هـذا الكتاب على ما هو معروف في أيامنا حذراً من التشويش في البحث واكتفاء بالغاية التي أرمي اليهـا من التعريف بهـذه البقعة الأثرية القديمة في تاريخها وشهرتها، وانمـا أوردت هـذه الكلمة هنا لاعتقادي أنها فائدة في تاريخ هذا البلد لاينبغي إغفالها.

∴

وفي هذه المدينة عدة مدارس اهلية صغيرة، ومدرسة رسمية سميت بالمدرسة الخيرية الهاشمية. وهي ذات اربعـة صفوف فيها نحو أربعين تلميـذاً، وبناؤهـا حسن الموقع، كان منزلاً لاحد الأهلين فاشترته الحكومة التركية سنة ١٣٢٥ هـ واقامت فيه مدرسة من الدرجة الرشدية (ذات ستة صفوف في ست سنين) ثم قلبتها الى ابتدائية، ثم جعلتها مدرسة اناث حتى كانت الثورة (عام ١٣٣٤ هـ) فجعلتها الحكومة العربية مدرسة تحضيرية للذكور ثم وسعتها سنة ١٣٣٥ هـ فجعلتها ذات اربعة صفوف كما رأيناها، وفصلت التحضيرية عنها الى مكان آخر في البلدة نفسها. وفي التحضيرية الآن نحو ٦٥ تلميذاً. والحكومة تقدم للتلاميذ الكتب والدفاتر والاقلام والحبر مجاناً. وفي المدرسة الخيرية الهاشمية الآن استاذان،

أحدهما : الشيخ عبد الله قاضي من فضلاء الطائف ونابهيه ، يتولى تعليم التفسير والحديث والنحو والبلاغة والتاريخ والادب العربي والتوحيد والانشاء في الصف الرابع ، وثانيهما الشيخ صبحي الحلبي يعلم الهندسة والجغرافية والحساب وقسم المعاملات من الفقه والقراءة العربية .

∴

والشيخ صبحي يعد اليوم من أدباء الطائف ، اطلعت على مجموعة شعره فكان مما قرأته فيها قوله في مطلع قصيدة :

هذي الديار فقف بها ياحادي ... واعطف لحالي فرقتي وبعادي

ومنها :

حرّمت نومي بعد بعدكم فما ... والله زار العين طيب رقاد

لي أنّة مذ غبتم عن ناظري ... مصحوبة بعويلي المتمادي

وقوله من قصيدة :

رعى الله قوماً بلدة (الحبر) دارهم ... لهم في ربى عليائها المسكن العالي

∴

وزرت دائرة البرق والبريد والتلفون في الطائف فرأيت في صدرها الأعلى هذا البيت (لكعب بن سعد من قصيدة) :

ولست بمبد للرجال سريرتي ! ... ولا انا عن اسرارهم بسؤول !

فاعجبني حسن اختيار هذا البيت لذلك المكان ، ولاح لي أن في الدائرة أديباً ثم عرفت مديرها الشيخ عثمان بن عبد الرحيم قاضي فاذا هو ذلك الاديب . ولم البث أن قرأت له قصيدة يرحب فيها بالامير زيد عند عودته من ايطاليا الى مكة المكرمة

∴

وممن عرفت في الطائف قاضيه الشيخ عبد الله ابن ابي بكر بن علي كمال وهو افقه من في هذه المدينة واعلمهم بالادب وفنونه . رغبت اليه ان يطلعني على شيء من شعره فتلا لي بضع قصائد ، منها قصيدة نظمها وهو مع جلالة الملك في رحلته

الى اليمن ، وقصيدة قالها في فتح المدينة المنورة . نشر الاولى في كتاب الرحلة اليمانية والثانية في جريدة القبلة . ومن شعره قوله من قصيدة :

ترفق أيها الحادي وعج بي نحوهم عج بي
كرام قد عهدناهم بذاك السفح والشعب
أريج المسك رياهم وريح المندل الرطب
اذا وافيت أفياءً بذاك المنزل الرحب
وأوردت المطايا القو د من سلسالها العذب
فبلغهم سلاماً من محب هائم صبّ
وان حيوك باللطف وبالتسآل والرحب
فقل عهدي به مضنى سمير الانجم الشهب

∴

وأطلعني على مجموعة أدب مخطوطة عنده قرأت فيها الأبيات الآتية لمحمود سامي باشا البارودي المصري :

الشعر زين المرء مالم يكن وسيلة للمدح والذام
ياطالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله ما أنشدت في حكمة أو عظة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب الى الرامي!

الطرق الى مكة :

بين الطائف ومكة عدة طرق لايسلك منها اليوم غير طريق واحدة وهي التي أجتزناها في رحلتنا . وقد تسلك طريق ثانية يسمونها اليمانية أو طريق السيل ، وجميع الطرق القديمة ما زالت معروفة الى اليوم ويمكن سلوكها إلا ان اكثر الناس هجروها ماعدا هذين . وقد رأيت في عقود اللطائف إسهاباً في الكلام على المسالك بين المدينتين يفيد المطالع والباحث ، أختصره في مايلي :

١ — كرا (وهو طريقنا) : قال فيه : هو جبل في غاية الكبر والصعوبة ، صعوداً وهبوطاً ، وان كان الثاني اخف .

٢ — يعرج : وهو طريق جبلي اسهل من كرا واقرب مابعده من المسالك الآتي ذكرها . على ان فيه حرجة ، بعد هبوط ، عسرة يتعب فيها الراكب والماشي

٣ — الثنية : طريق جبلي فيه عقبات اكثرها سهل بالنسبة لغيره ولذلك يؤثره اكثر اهل الحجاز على غيره لما تجده جمالهم فيه من الراحة

٤ — غرزة : } وهما دون الثنية
٥ — خروب : }

٦ — عفار : قل من يسلكه ، يأتي على الوهط ثم ينزل على رأس وادي نعمان

٧ — اليمانية : اسهل الطرق ، على ما فيه من هبوط وصعود متكرر في جبل يقال له المنحوت ، وتسلك هذه الطريق لاغلب الناس في ثلاث مراحل كبيرة : مرحلة من مكة الى الزّيمة ، ومرحلة منها الى السيل ، ومرحلة منه الى الطائف ، وكثيرون يجتازونها في مرحلتين .

وهذه الطريق قد تعرف اليوم باسم « طريق السيل » كما قدّمت .

عكاظ

وعلى ذكر طريق السيل او اليمانية ، لاأرى أن تفوتني الاشارة الى اشهر سوق من اسواق العرب اعني سوق عكاظ لوقوعها في تلك الطريق .

على مرحلتين من مكة للذاهب الى الطائف في طريق السيل ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة فاذا هو امام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها « القانس » ـ بالكاف المعقودة ـ وهي موضع سوق عكاظ الذي لاتكاد تقرأ كتاباً من كتب الادب أو التاريخ العربي إلا وجدت له ذكراً فيه .

وهذه الباحة التي يسمونها « القانس » هي مجتمع الطرق الى اليمن والعراق ومكة ، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة . كل ذلك يدلك على ما دعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الاكبر ومعرضهم الأشهر ، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تعليلا لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما عرفته الآن .

والواقف في القانس (أو عكاظ) يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة [١] والآخر البهيتة [٢] وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل الى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل (اليمانية)

أما ما جاء في كتب التاريخ عن عكاظ فلعل أفضله قول صاحب معجم البلدان ما خلاصته : عكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية تجتمع فيه القبائل كل سنة يتفاخرون ، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون . وقال الاصمعي : عكاظ ، نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال (؟) كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيداء وبه كانت أيام الفجار ، وكان هناك صخور يحجون اليها ويطوفون بها . وقال ياقوت : أشهر أسواق العرب عكاظ وذو المجاز ومجنة . وقال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف ، وذو المجاز خلف عرفة ، ومجنة بمر الظهران ، وأعظمها عكاظ ، كانت العرب تقيم فيه شهر شوال ، ثم تنتقل الى سوق مجنة فتقيم عشرين يوماً من ذي القعدة ، ثم تنتقل الى سوق ذي المجاز فتقيم فيه الى أيام الحج . اه

وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون إن عكاظا كان في مكان يعرف اليوم باسم « القهاوي » في وادي لية من الطائف . غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفا من أنه هو « القانس » نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار

خلاصة موجزة

« البعثة الزراعية ، زراعة الطائف ، مياهه ، معادنه ، الاستفادة منه »

استقدم الملك حسين في خريف عام ١٣٣٨ هـ — ١٩١٩ م بعثة من المشتغلين بعلم الزراعة واستخراج المعادن من سورية ، فطافوا بعض بقاع الحجاز . ولا سيما الطائف ، ورفعوا اليه في ١٥ ربيع الاول ١٣٣٨ بياناً بما رأوه ، هذه خلاصته :

وادي منى [٣] — يمتد الى منى واد عرضه ١٠٠ متر تتخللها اراض زراعية

---

(١) بكسر ففتح (٢) بصيغة التصغير (٣) في طريقهم من مكة

مساحتها ٥ — ٧ دونمات ، أكثرها على سفوح الجبال من الجهتين الشمالية والجنوبية تسقى بماء الآبار .

عين زبيدة — على بعد كيلو متر واحد من منى نحو الجنوب الشرقي تبدو عين زبيدة . ماء هذه العين وسرعة جريانها ٦٣ ليترة في الثانية ، وقوتها في الساعة ٢٢٦٨٠٠ ليتر أي ٢٢٦ متراً مكعباً وكسر ، وفي أربع وعشرين ساعة ٥٤٤٣٢٠٠ ليتر أي ٥٤٤٣ مترا مكعبا وكسر

عرفة — اراضي عرفة واسعة وفيها عدة أحواض كبيرة منها ما درست آثاره بمرور الأيام ، والباقي منها قرب جبل عرفات المرتفع عن سطح البحر ٧٥٠ قدما ، وهو محاط بشكل نصف دائرة بمجرى عين زبيدة .

الكرّ — آخر نقطة من منطقة تهامة ، ترتفع عن سطح البحر ٢٥٨٠ قدماً ، يكثر فيها من النباتات الشجرية السلم والحرمل والضرم . ومنطقة تهامة تكاد تكون على نسق واحد في تكوّن أرضها وأقليمها وتربتها الزراعية . ويظهر أن ما بين مكة وسفح كرا مؤلف من جبال بركانية مختلفة الارتفاع تتخللها مجاري السيول وأكثبة رملية .

منطقة الطائف — تختلف عن تهامة ببرودتها التي ساعدت على نمو أشجار فيها لا تنبت في غير المناطق المعتدلة كالقريس والعرعر والتين البري والزيتون البري والجميز وغير ذلك من أشجار الفصيلة الوردية والحشائش من الفصيلة المركبة والشفوية والباذنجانية ، والجوز والخرنوب وشجر الكينا (كاليبتوس) وحلاب البوم (ايفوربيا) وهو من الحشائش .

تكونها الارضي — تعد هذه المنطقة من الاراضي البركانية ، تحتوي على صخور اندفاعية صلبة ، ويتخلل سلاسل جبالها مجاري سيول عديدة ، وأوديتها خصبة

تربتها الزراعية — تربتها على الاجمال رملية طينية ويزيد الرمل على الطين في أكثرها . وهي تحتوي على مقدار وافر من الكلس .

زراعتها المحلية — انحصرت الزراعة المحلية بزراعة الحبوب وأخصها الحنطة والشعير والدخن ، وبزراعة الاثمار وأخصها الرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى

والعنب والليمون والخوخ وقليل من العناب ، وتكثر فيها الخضر وأخصها الملفوف والكرنب والسبانخ والبندورة والباذنجان والملوخية والكوسى والبامية والفاصولية والبصل والثوم والشمام (الخربز) والبطيخ الاحمر (الحبحب) والفول والفجل والفليفلة . وفي المراعي يزرعون البرسوم دون سواه .

مواسم زراعتها — تجود منطقة الطائف بثلاثة مواسم : (١) المزروعات الربيعية اي التي يزرعونها في أوائل الشتاء ويحصدونها في أواخر موسم الربيع (٢) المزروعات الشتوية اي التي يزرعونها في أواسط الصيف ويحصدونها في أوائل الشتاء (٣) المزروعات المتوسطة ما بين الاولى والثانية .

طريقة زرعهم — طريقة الزرع عندهم أن يحرث المزارع أرضه ثلاثة أوجه ثم يبذر بذاره ولا يصفيه . ويرغب أكثرهم بزرع الحبوب الضعيفة الصغيرة زاعمين انها تبذر أرضا أوسع مجالا مع أن في أكثر هذه الحبوب بذوراً عديدة من النباتات المضرة كالشوفان البري ، وجل الحبوب الصغيرة مصاب بالامراض الطفلية أخصها مرض الصداء المعروف بالسقم . وأما المحاريث فانها لا تزال على شكلها القديم . وأما زراعة الخضر فهي عندهم ارقى الزراعات فهم يستعملون السماد من أجلها ويزرعونها على طريقة صالحة نوعاً ما ويتناولون اثمانا حسنة من تجارتها

الحيوانات الأهلية — يعنى أهل هذه المنطقة بالابل والبقر والخيل والبغال والغنم والماعز ويستخدمون في الزراعة البقر وأحيانا الجمال ولا يستعملون البغال والخيل في الاشغال الزراعية الا نادراً .

مياه المثناة — [١] تبلغ مياه المثناة ٤٤ ليترة في الثانية ، وفي الساعة ١٥٨٤٠٠ ليترة ، وفي الاربع والعشرين ساعة ٣٨٠١٦٠٠ ليترة . وهي تسقي قسما كبيرا من وادي المثناة ثم تدخل الطائف .

ما يمكن زرعه — يمكن في منطقة الطائف زرع اكثر الاشياء النافعة كاللوز والشوندر والبطاطا والدخان (التبغ) والقنب والسمسم واكثر البقول . وافضل طريقة لانجاح زراعة المنطقة هي طريقة الزراعة اليابسة .

---

(١) المثناة واد في الطائف يأتي الكلام عليه

وادي جفيجف - هو على الشمال الشرقي من الطائف ، تترشح المياه فيه من كل جانب وتجري على سطحه متجهة نحو الشمال .

الارزّ - يمكن تخصيص بقعة في وادي جفيجف لزرع الأرز لانه يحب التربة المالحة وهذه الخاصة من خواص وادي جفيجف الذي ينمو فيه الأرز نمواً حسناً ، وان كان من طبيعته افساد الهواء المحلي لكثرة المياه التي تكون دائمة فوق الزرع ، ولكن ماسيغرس من الاشجار حوله يصحح مايفسده .

القطن - ويمكن أيضاً ادخال زراعة القطن والبرسيم والفصة في الاراضي التي تزرع ارزاً وذلك لان القطن من النباتات التي تنبت في الاراضي ذات السباخ ومن النباتات التي تحتاج الى المياه في ادوار حياتها .

الورد - حياة الورد في الهدة وما ماثل تربتها ، تشبه حياته في بلاد اسبارطه وبوردو المخصصتين لزراعة الورد والاستفادة من عطره ، لان التربة والهواء هنا لايختلفان عن ذينك الاقليمين .

معادن الطائف - الاراضي التي في منطقة الطائف (ويلحق بها مابين الطائف وجدة) هي من اقدم طبقات الاراضي الجيولوجية . جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة . وهي لاتمتص الميـاه ولذلك يقل وجود الماء في الجبال اذ تتسرب عنها وترسب في الاودية . وهذه الصخور مركبة من « غنايس » وهو رمادي اللون فيه ذرات سوداء ويتركب من « ميفا » و « كوارنس » و « فلدسبارت » ثم تليه طبقة صخور « الغرانيت » وهو على الغالب احمر اللون فيه بعض حبيبات رمادية لماعة وتركيبه كتركيب « الغنايس » وتليه طبقة صخور « البازالت » وهو صخر بركاني كحلي أو أسود اللون مثقب كالاسفنج . وقد تتغير هيأة الصخور في منطقة الطائف ويكثر فيها صخر « الميكاشيست » وهو صخر اسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض ، و « الكوارس » وهو صخر أبيض لماع وقد يوجد بصفة متبلورة ويتركب منه « السيليس الصلفي » . ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من « كاسيت » اجتمعت في الاودية ومجاري السيول . وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التي هي من تفتت الصخور الممتدة فوق الارض .

تحليل المعادن — ومن خصائص هذه الطبقات القديمة أنها تحتوي على معادن من الجنس الجيد ومن جملتها معدنان احدهما رمل مركب من حديد « مؤكسد » ممزوج به قليل من النحاس ويبلغ مقدار الحديد نحو ٦٠ في المئة ولابد من تحسن المعدن في العمق ، والثاني حديد « مؤكسد » ايضاً انما هو صاف من الجنس الجيد يصلح للاستخراج ويحتوي على نحو ٧٠ في المئة حديداً صرفا . وفي منطقة الطائف وخصوصاً مابين عين الخضره والطائف مقادير وافرة من المرمر الاحمر الجميل الذي من فوائده انه يتخذ اعمدة للابنية الجميلة وتوضع منه اشكال عديدة للزخرفة .

وعلى بعد اربع ساعات من الطائف محلة تدعى « المعدن » فيها جبل مرتفع ٥٤٠ قدماً به حفريات قديمة تنبيء باستخراج معدن منه . وفيه آثار معدنية تحتوي على شيء من الحديد وقليل من النحاس واذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود اشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح . ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قديماً آثار بيوت مبنية في قمة الجبل وبوادق من حجر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم ويستخرج منها الحديد . واذا اريدت متابعة استخراجه الآن لم يكف له الحفر على وجه الأرض بل ينبغي حفر آبار تتفرع منها سراديب تحت الارض . وفي جبل « الوهط » جنس صخر يدعى « ميضا » ابيض اللون تتجزأ منه صحف رقيقة كالورق ، شفافة كالزجاج . وهو غير قابل للذوبان في النار مهما بلغت حرارتها ، ومن فوائده انه يستعمل للآلات الكهربائية وللمواقد الحديدية المتخذة للدفء وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافي الصالح لاستخراج الكلس النظيف الصافي اللون . انتهى .

ما حول الطائف

« قراه وجباله وأدويته وآباره وبساتينه وحصونه وعيونه »

(مرتبة على الحروف)

لا بد لي قبل الشروع في الكلام على ما حول بلدة الطائف من الاشارة الى أربعة أمور :

الاول - ان أهل هذه البقاع يطلقون اسم القرية على كل موضع منفرد ، فيه بيوت قلت أو كثرت ، من الاثنين أو الثلاثة الى الخمسين أو ما فوقها - وقد وافقتهم في الاصطلاح على طريقتهم هذه - كما انهم يطلقون لفظ البلاد على كل موضع فيه مزارع وليس فيه بيوت ، يقولون : كنا في بلاد فلان أي في مزارعه - خالفتهم في هذا ووضعت المزارع بدل البلاد .

الثاني - أن جبال الطائف كثيرة جداً ، قيدت في رحلتي منها ما له تعلق بقرية أو ارتباط ببحث ، أو ذكر في شعر ، أو بيان في تاريخ ، أو فيه أثر يذكر وأهملت مالا فائدة للقاريء من الاشارة اليه .

الثالث - في تواريخ المتأخرين ذكر لكثير من القرى والعيون والآبار والمواضع التي لم أوفق لمعرفتها في أيامي القليلة بالطائف فرأيت اتماما للفائدة ان اذكر ما نقل لي انه لم يزل موجودا ، وأعرضت عن ذكر أكثر ما لم أره مما لم ينقل لي خبر بقائه الى الآن مرجحا اندراسه او تغير اسمه .

الرابع - من أودية الطائف الكبيرة الكثيرة القرى والمزارع « وادي لية » لم يتفق لي طوافه فاعتمدت في ما ذكرته على أخبار الموثوق بهم وما اطلعت عليه من كتب التاريخ الحديثة وبعض القديمة . واليك جملة ما تحصل عندي :

الآبار - قرية ، قال العجيمي : هي خلف قرية السلامة من الجهة الشمالية ، وسميت بذلك لكثرة ما حفر من الآبار بها في زمن القائدة درة جارية الشريف حسن بن أبي نمي . وهذه القرية غير معروفة الآن بهذا الاسم بل يسمونها « قروة » وسيأتي ذكر هذه

ابن منديل — هضبة كبيرة على جنوب الطائف وراء قلعة ثكنته لاتبعد عنها كثيراً ، وربما قالوا « جبل ابن منديل »

أبو نقطة — جبل في وادي لقيم بينه وبين جبل السويقة درب يقال له شعاب الماء .

أبو زبيدة — أو جبل ابي زبيدة . في طريق الذاهب من الطائف الى وج يقابل الاصيحرين .

الاصيحران — اوجبل الاصيحرين . مقابل لشرقي قبة ابن عباس وهو المعروف الآن باسم البازمين .

الاصيفر — قرية كبيرة فيها بساتين ودور قليلة في وادي جفن — ذكرها الفاكهي — وهي لا تزال موجودة .

أم الادم — هضبة ماثلة أمام « أم السكارى » الى جهة الغرب منها . وهي في غرب الطائف .

أم البكار — مزارع (بلاد) لقبيلة الاعصمة ، فيها بئر . تغل حبوباً ولا فاكهة فيها وهي بين الخادمية والخضراء .

أم الحمض — قرية وراء حدود لقيم في اصطلاحهم ، تلي قرية الصفاة ، فيها مزارع حبوب وثلاث آبار ويكثر بها شجر الطرفاء (يسمونه الاثل والعرين)

أم خبز — مزارع بعد شبرة فيها بساتين قليلة .

أم السكارى — هضبة كالجبل على الجانب الغربي من المثناة تبعد عن الطائف مسيرة نصف ساعة أو أقل وقد سبق ذكرها في الكلام على الآثار .

أم الشيع — هضاب متصلة في شمال الطائف كانت عليها وقائع بين العرب والترك في زمن النهضة .

أم صدعين — قرية في لقيم قبل المريسية بيسير تكاد تلاصقها ، فيها بضعة بيوت ومزرعتان وبئران .

أم الفضلين — مزارع ذات نخيل وفيها بستان وبئر ماء . في وادي لقيم تبعد عن الطائف مسيرة ساعة وهي للشريف شرف .

أم المعين ـ هضبة تلي أم الادم وكلاهما خلف قرية «قروة» من الجنوب •

أم هيثم ـ مزارع في وادي لقيم ، بعد قرية الغنامين وقبل مزارع الوسطى • وهي من أراضي عشيرة البخاتين •

البازمان ـ جبل ، وا كثر ما يقال جبل البازمين . وهو المعروف قديما باسم الاصيحرين وقد تقدم ذكره فيه •

بحرة الرّغا ـ موضع في لية . قالوا : هو من ديار بني نصر . ولعله المحل المعروف الآن باسم البحرة في وادي لية • قال الحضراوي : وببحرة الرغاء من لية مسجد يقال انه موضع صلى فيه النبي (ص) مازال أثره شاخصاً .

قرية البخاتين ـ البخاتين قبيلة ، وقريتهم كبيرة ، تعرف بهم ، تبلغ بيوتها العشرين وفيها بستان عنب وبستان رمان واراض تزرع حبوباً وثلاث آبار ، وهي من لقيم بعد مزارع البسيلية وقبل الغنامين .

برد ـ جبل في بلاد قريش يبعد عن الطائف ستة فراسخ يقال ان جميع عيون المياه التي في الطائف منشأها منه . كذا رأيت في تعليق لاحد المعاصرين على كتاب العجيمي . ولم أر هذا الجبل .

البسيلية ـ مزارع حبوب (وهم يجمعونها حبان) فيها بئران ، احداهما للاشراف من ذوي زيد ، والثانية لافراد من قبيلة الأعصمة وهي في وادي لقيم بعد الخضراء وقبل قرية البخاتين .

الجال ـ قرية ناضرة على بعد نصف ساعة من الطائف الى الشرق ، فيها بركة ماء كبيرة على مرتفع جميل ، يمر بها جدول صغير يسقي ارضها يأتيها من قرية حوايا المجاورة لجبل شهار . ويقابل الجال الى شمالها قريتا قملة والقطبية . وخلف الجال الى الجنوب جبل وراءه وادي النمل . وفي الجال بساتين وبضعة بيوت . وفيها فواكه كثيرة .

جبرة ـ مزارع في وادي الجفيجف ، شرقي الطائف ، فيها بئر يخرج ماؤها من عمق مترين ونصف . وفيها بساتين .

جديدة ـ بئر لافراد من قبيلة طويرق ، يقال لهم التراكية وهي البئر الثانية في قرية ام صد عين .

الجزع ـ قرية صغيرة في وادي لية ـ ذكرها الفاكهي ـ

الجفيجف ـ وادٍ في شرق الطائف على مسيرة اقل من نصف ساعة . بعد قرية الريان وقملة ، فيه آبار ، وعين ماء تسمى الخرار وفيه مزارع جبرة . وهو مستطيل بين جبلين يتقاربان ويتباعدان ، كثير الريّ رطب الارض ، وقد يسمون اقصاه وادي الخرار باسم عين الماء التي هي فيه .

جلذان ـ قال ياقوت : « موضع قرب الطائف بين لية وسبل يسكنه بنو نصر ابن معاوية » . لم اسمع به .

الحزمان ـ قرية فيها بساتين وآبار ، في وادي لقيم قبل المليساء وبعد ام خبز .

الحسيرج ـ واد صغير ، بين قرية الحماضية ولقيم ، وهو على سفح جبل شرقي الطائف .

الحصنان ـ أو قرية الحصنين ، من قرى وادي لية ، ذكرها الفاكهي .

الحماضية ـ مزارع للشريف شرف بعد المليساء تبعد عن الطائف شرقاً اقل من ساعة ، فيها دار وبئر وقد وضع للبئر محرك بخاري لاخراج الماء بواسطته ، تمّ وضعه ونحن في الطائف . وبجوار الحماضية الى يمين الذاهب من الطائف قرية الحمدة .

الحمدة ـ [1] قرية قبل لقيم ، هي المليساء ، وقد تسمى الحمدة باسم القبيله الساكنة فيها (انظر المليساء) .

حوايا ـ قرية غرب الطائف غير بعيدة عنه كثيراً ، فيها بيوت وبستان كبير واربع آبار ، وكان بها ايام الفاكهي سبع آبار .

بئر حوايا ـ احدى آبار قرية حوايا ، جنوبي البستان ، ماؤها عذب ، اخف ماء بالطائف .

الخادمية ـ مزارع في وادي لقيم قبل ام البكار فيها بستان عنب ورمان وتين واراض تزرع حبوباً .

الخبزة ـ قرية في المثناة غربي الطائف الى الجنوب فيها بضعة بيوت وبستان وبها مسجد عداس السابق ذكره . وهي قديمة ضبطها القاموس بانها كعنبة .

---

(١) يلفظونها بسكون الحاء وفتح الميم والدال .

عين الخبزة ـ قيل لنا ان هذه العين تسقي المثناة كلها ، وهي جارية في قناة متسربة مما يجتمع من رشح الجبال المجاورة للمثناة غرباً وجنوباً .

الخرّار ـ أشرنا اليه في الجفيجف ، وهو واد بعده ، يفصل بينهما جبل في أقصى الجفيجف يعطف فيه السالك الى يساره . وهو واد خصيب كثير العيون والينابيع ، أرضه ملأى بالماء الراكد من سيول جباله ، حفرنا بأيدينا نحو شبر واحد في عدة مواضع منه فكنا لا نلبث أن نرى الماء يكاد يملأ الحفرة ، كثير المستنقعات يجتمع من ينابيعه جدول صغير من الماء يتسرب بين الصخور فيسمع له خرير ولذلك سمي الخرار . وهذا الوادي يمتد الى العرج . والخرار يبعد عن الطائف مسيرة ساعة . وقد أكد لنا أحد العارفين أن ماءه لا ينقطع طول السنة وأنه في الشتاء اذا جادهم الغيث يجري كالنهر الكبير وقد يملأ ما بين جبليه المتقاربين .

الخضاري ـ مزارع في أوائل وادي لقيم ، للشريف هاشم بن عون . قبل قرية العبابيد .

الخضرا ـ بالقصر تمييزاً لها عن الخضراء الآتي ذكرها . وهي مزارع للشريف علي بن زيد بن فواز . فيها بئر عليها محرك (مصعد للماء) بقوة خمسة حصن . وهي في وادي لقيم على مقربة من قرية المريسية وقد يلحقونها بالمريسية .

الخضراء ـ قرية فيها ستة بيوت ومزارع كثيرة تسقى من ثلاث آبار فيها ، وهي للشريف علي باشا ابن عبد الله باشا .

الخضيرة ـ بئر في قرية الفقهاء .

الخليطي ـ قرية بالقرب من الشدايين في أوائل وادي لقيم عندها مزارع أم الفضلين .

الدار البيضاء ـ قرية في وادي القرن ، ذكرها الفاكهي ، وقيل لي انها ما زالت موجودة ، ولم أرها .

دحلة ـ مزارع محاذية للنصيلة في وادي الجفيجف تكاد تكون يباباً .

رحاب ـ قرية على مسيرة أربع ساعات من الطائف الى الجنوب ، عامرة ، فيها

بيوت ومزارع يملكها الشريفان هاشم بن عون وناصر بن هزاع من ذوي ناصر

الردّف — جبل — وقد يسمونه الرادف — يبعد ساعة عن الطائف الى الغرب الجنوبي وقد تكلمنا عنه في بحث الآثار .

رغاف — جبل وراء أم الحمض وبعد لقيم يبعد عن الطائف مسيرة ساعتين الى الشرق ، كانه الحد الطبيعي لوادي لقيم ولكنهم لا يعدونه ولا يعدون أم الحمض من لقيم . وما أدري لهذا سبباً .

رغيف — بصيغة التصغير : جبل صغير كالهضبة ، ملاصق لرغاف .

أم رغيف — على صيغة التصغير : مزارع حبوب على سطح جبل رغيف وفيها بستان جيد العنب والرمان والخضر ، ولها ثلاث آبار وارضها تزرع حبوباً . وبعضهم يلحق أم رغيف بأم الحمض .

الريان — قرية خضراء كأنها الحديقة الغناء ، بعد شبرة الى شرق الطائف في طريقنا الى وادي الجفيجف منحرفة الى اليمين كثيرة الاشجار ، فيها رمان وعنب وفواكه متعددة الانواع ، كان فيها أربعة بيوت فخرب ثلاثة وبقي واحد عامراً . وذكرها الفاكهي فقال انها قرية قملة نفسها ، تدعى بالاسمين . والصحيح أنهما قريتان متجاورتان .

ريع التمار — هضبة صغيرة بين المليساء (الحمدة) ووادي الحسيرج ، على مقربة من الحماضية .

الزبيرية — بئر ينسبونها الى الزبير بن العوام في قرية العقيق .

الزوران — قرية صغيرة في لية ، سماها الفاكهي « الوزير » ما زالت عامرة .

السايب — من قرى لية . قال الفاكهي : تعرف بدار ابن معيوق آخرها عوف القبلية وبقربها حصن كبير جاهلي يعرف بحصن ليلى .

السداد — قرية فيها هضبة الردف . تكلمنا عنها في الآثار .

السلامة — قرية محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس ، كثيرة البيوت بعضها عامر ، وبعض خرب ، سكانها قليلون من قريش وغيرها . ذكرها ياقوت فقال : قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي (ص) وفي جانبه قبة فيها قبر ابن

عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابة (رضي الله عنهم). اهـ كلامه. وهي الآن في ظاهر البلدة يفصل السور بينها وبين قبة ابن عباس. وما زال المسجد فيها. وقال العجيمي: لا أعلم بدأ عمارتها إلا أنها كانت معمورة في أوائل القرن التاسع، وبها كان ينزل أعيان مكة وفضلاؤها ثم خربت في حدود الثمانين (كذا) وتحول أهلها عنها ولم يبق بها منهم غير القليل وانهدمت بيوتها في مدة يسيرة. اهـ. وقد مر بنا ما نقلناه عن كتاب أشراف مكة وأمرائها من أن الشريف سروراً نزل بها سنة ١١٩٣ هـ وهذا دليل على انها كانت عامرة الى عهده.

سلسلة ـ ذكرها الفاكهي ولم أجد من يعرفها ـ قال: قرية كبيرة بينها وبين قرية الوزير (الزوران) بحرة الرغا. وعندها آثار حصن جاهلي هدم في صدر الاسلام ثم قال: ومن لطيف ما يذكر أن رجلا من أهل هذه القرية قيل له: ما اسمك؟ فقال: كليب. فقيل: وما سكنك؟ قال: سلسلة قبالة الوزير. فقيل له لا قدرة لنا على كليب في سلسلة قبالة الوزير!

سويد ـ من قرى وادي لية، كبيرة فيها بساتين.

السويقة ـ جبل صغير على جنوب قرية الخضراء، بينه وبين جبل «ابو نقطة» درب يقال له شعاب الماء.

شبرة ـ على يمين الذاهب من الطائف الى الشرق، مزارع خضر تسقيها جداول صغيرة من الماء تمتد مسيرة ربع ساعة وتنتهي بقصر هو أفخم بناء في الطائف وربما كان أعظم قصر في الديار الحجازية بحسن بنائه وجودة مناخه وسعة مساحته وتنظيم غرفه، وهو منقسم الى قسمين أحدهما منحرف عن الآخر، وقد يبلغ عدد ما فيهما من الغرف والابهاء مئة وخمسين أو يزيد. تحوط جهاته الداخلية حديقة غناء هي اجمل حدائق الطائف وغيره من بلاد الحجاز على الاطلاق بانتظام أشجارها وأزهارها وحسن هندستها وجمال بركها. وانما سميت هذه المزارع وفيها القصر والحديقة باسم «شبرة» تشبيهاً لها بشبرة مصر. وعلى جانبي الطريق الموصلة اليها من الطائف أشجار كبيرة من الطرفاء (العرين أو الاثل كما يسمونه) وقد زال بعض هذا الاشجار قبيل النهضة وفي أوائلها. وقصر شبرة هو منزل

الامراء في الطائف وأكثر ما ينزلون في الجانب الايسر منه كما فعل الامير علي ولي عهد الحجاز ، ونحن في الطائف ، فانه اختار هذا الجانب على الثاني مع ان ذلك أعظم وأضخم .

عين شبرة — رأيت في هامش على تاريخ العجيمي لاحد أفاضل الطائف المعاصرين أن من أشهر عيون الطائف عين شبرة يروى منها أهل الطائف .

الشدايين — مزرعة الشدايين هي أول وادي لقيم من جهة الطائف ، بين المليساء والخليطي وفيها اراض تزرع حبوباً .

شرقرق — أحد جبلين متحاذيين قبالة قصر شبرة . والجبل الثاني يدعى عكابه . ولما اضطرمت نار الحرب بين العرب والترك أيام النهضة تحصن الاتراك في عكابه وأخذ العرب يرمونهم من شرقرق ومن شبرة حتى أزالوهم عن مواقعهم ، وفي ذلك يقول أحد شعراء البادية . ويسمون هذا النوع من الشعر « المجرور » :

عكابه رموك . من شرقرق وشبره . ببندق ميازر

ولا الله فتك فيك . تظلين عبره . لكل النواظر !

والبندق في اصطلاحهم رصاص البندقيات ولعله أصح اسم يمكن اطلاقه على الخرطوش . والميازر في بيتي هذا الشاعر جمع موزر كانه أرجعها الى اصل عربي فجمعها كما يجمع مسجد على مساجد ولكن كان عليه ان يقول « موازر » كموقد ومواقد ، وقد عقدت فصلا ضافي الذيل للشعر في البادية تجده في أواخر هذا الكتاب . وأما قوله « ولا الله » فهو في اصطلاحهم « واذا الله »

شعاب الماء — طريق كالوادي تحت جبل « ابو نقطة » وهذه الطريق تتصل بالهدة فمكة ، وهي غير الدرب الذي بين جبلي « ابو نقطة » و « السويقة » السابق ذكره في الكلام على السويقة .

شهار — قرية معروفة في الطائف ، قيل ان النبي (ص) لما هاجم الطائف بعد فراغه من غزوة حنين جاء عن طريق « لية » حتى قرب من حصن الطائف فوقف هناك وأمر بشهر الاسلحة ، فسمي ذلك الموضع شهارا بشهر الاسلحة فيه .

الشهداء — هضبة معروفة في شرق الطائف .

الصخرة ـ في عقود اللطائف أنها قرية قديمة كبيرة يبلغ أهلها أربعين وفيها ٢٢ بيتاً . ولم يتفق لي ان اراها أو أعرفها.

الصخيرة ـ من قرى وادي جفن الكبيرة فيها بساتين وزروع ، ذكر لي انها موجودة ولم أرها .

صعب ـ قرية في آخر المثناة من وادي وج الى غرب الطائف . سميت باسم جبل مجاور لها يدعى « صعبا » وهو في واد امام جبل المحترق .

الصفاة ـ قرية كبيرة عامرة بعد المريسية ، فيها نحو ثلاثين دارا وأربع آبار واربع مزارع منها مزرعة للشريف فهد بن شاكر والثلاث للاعصمة . وهذه القرية هي منتهى حدود لقيم في اصطلاحهم وبعدها بيسير قرية ام الحمض السابق وصفها.

الصهيبة ـ ذكرها الفاكهي في قرى القرن من وج ولم اعرفها .

العبابيد ـ قرية في وادي لقيم ، فيها مزارع وبضعة بيوت وبئر ماء وهي قبل قرية الفقهاء وبعد الخضاري . تبعد عن الطائف الى الشرق مسيرة ساعة ونصف.

العبلاء ـ قال الفاكهي : قرية كبيرة عند حصن جاهلي في لية .

بئر عجلان ـ من أشهر آبار الطائف ، وماؤها من اعذب مياهه ، وهي في قرية الآبار .

العرج ـ قرية كبيرة من قرى الطائف ، الى شرقه ، تلي وادي الخرار بعد مسافة. كانت من أنضر قرى هذه الديار وأجملها حتى أنهم كانوا يدعونها « مصر الصغيرة » ثم قلت مياهها فجف بعض مزارعها وزال رونقها . وفي كتاب اشراف مكة وامرائها أنها كانت عام ١٢١٦ هـ من أعمر القرى ومن أكثرها ماء ومروجاً وذكر أن حادثة نشبت فيها في ذلك العام فاحترقت دورها ونهبت مواشيها . ولكنها بعد ذلك استعادت شبابها ثم تضاءلت منذ بضع سنين . . والى هذه القرية (أو الوادي كما سماها بعض المؤرخين) ينسب الشاعر المعروف بالعرجي وقد سبقت الاشارة اليه في رجال الطائف . وفي معجم البلدان لياقوت : العرج أول تهامة ، في بلاد هذيل . وهي غير العرج الذي بين مكة والمدينه وغير العرج الذي في اليمن بين المحالب والمهجم .

العقيق — قرية أقرب الى الصغر، موازية لشبرة على غربها. وفي بعض كتب التاريخ انها قرية المقداد بن الاسود الصحابي. وبها ثلاث آبار: بئر المقداد وبئر الزبير وبئر عكرمة، وقد قلت مياه هذه الآبار الآن وجف بعضها.

عكابة — جبل قرب الطائف الى شرقه، مقابل لشبرة، محاذ لشرقرق، تقدم الكلام عليه في شرقرق.

العكرمية — قرية بالقرب من العقيق، تنبع قريباً منها البئر المسماة نجمة المملوكة. لم أرها. وعارفوها كثيرون.

قرية الغنامين — قرية كبيرة كثيرة المزارع والفواكه، تقع في أواخر وادي لقيم، الى شرق الطائف، بعد قرية البخاتين وقبل مزارع ام هيثم. فيها نحو عشرين بيتاً وخمسة بساتين وست آبار وبها أراض (ويسمونها الركبان) تزرع حبوباً وبها خوخ وسفرجل ورمان وعنب وتين.

الفعر — مزارع للشريف شرف في أم الفضلين عند قرية الخليطي في لقيم.

الفضيلة — بئر في مزارع النوامي الآتي ذكرها.

الفقهاء — قرية في لقيم وراء قرية العبابيد. فيها نحو عشرة بيوت وبها مزارع وأشجار وبئر ماء تسمى الخضيرة. وهذه القرية قبل قرية الخضراء.

القديرة — قرية كبيرة تبتعد عن ام الحمض الى الشرق مسيرة ربع ساعة، وبعدها عن الطائف مسافة ساعتين ونصف. وهي خلف لقيم. فيها نحو خمسين بيتاً وسبع آبار ومزارع حبوب.

قروة — هي قرية الآبار السالف ذكرها لا تعرف اليوم بغير «قروه» مشتملة على دور متعددة بلغت حدّ الكثرة وفيها خمسة عشر بستاناً.

القرن — قرية عامرة، وقد يقال لها وادي القرن، على طريق المسافر من الطائف الى مكة قبيل الهدة في وادي المحرم. وفي هذه القرية يكون الاحرام. وكانت في أيام العجيمي خربة وسماها «القرين» بالتصغير قال في تاريخه: «جاء في القاموس القرين قرية بالطائف. وهي الآن خربة» ولعلّ القرين غير القرن ولكنهم لا يعرفون اليوم قرية تدعى بهذا الاسم على صيغة المصغر.

قملة – قرية صغيرة عامرة ، قبل وادي الجفيجف في الطريق اليه ، محاذية للحزمان شرق الطائف ، فيها بساتين ودور وزروع مختلفة .

لقيم – واد طويل خصيب يجتاز في أقل من ساعتين ، اوله مزارع الشدايين بعد المليساء ، وآخره قرية الصفاة على مايزعمون وعندي أن آخره جبل رغاف . وهو كثير القرى والمزارع ، وقد أتيت على اسمائها في مواضعها . وفي كتاب العجيمي أن لقيماً قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار . ثم قال : وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم الحمدة وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن في حدود سنة ١٠٤٠ ﻫ لخروجهم عن طاعته اﻫ . والذي صح عندي أن جماعة ثقيف يسكنون قرية المليساء وقد تدعى باسم الحمدة الذين ذكرهم العجيمي اسكناهم بها الى الآن . اما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون في مزارع هذا الوادي وقراه . وأما إطلاق اسم القرية عليه فلا أعلم له وجهاً إلا ان كانت فيه قرية تدعى لقيماً تغير اسمها بعد زمن العجيمي وأطلق الاسم على الوادي كله .

لية – واد أكبر من وادي لقيم ، كثير المواضع ، وفير الري ، في أول طريق السيل الى جهة الشرق الجنوبي ، أشرت اليه في كثير مما تقدم . قال ياقوت : ولية بتشديدها من نواحي الطائف مر به رسول الله (ص) حين انصرافه من حنين يريد الطائف ، وأمر وهو به أن يهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان . قال غيلان بن سهم :

جلبنا الخيل من أكناف وج ولية نحوكم بالدارعينا

وقال الفاكهي : لية على ثمانية أميال من الطائف الى الجنوب وهي واد كبير خصيب ، اختلف المؤرخون بها أهي من الطائف ام لا . وفي كتاب العجيمي ما يؤيد انها من الطائف . والطائفيون يرون أن لية ليس من أوديتهم .

المثناة – موضع في وج على غرب الطائف ، فيه قرى وبساتين ومزارع . خرجنا اليه يوم ١٤ صفر فكنا بينما نحن نسلك سفح جبل عن يميننا نلقي النظرات على ما في اليسار فيتمثل لنا منظر الربوة الغناء في دمشق أمام السالك على سفح قاسيون !

وانتهى بنا السير الى نيف وخمسة كيلو مترات عن المدينة فنزلنا بستاناً من بساتين المثناة تخترقه عين ماء تترقرق في قناتها ، يسمونها عين الخبزة (وقد مر ذكرها) ولبثنا أمام العين فجلب لنا سفرجل قطف أمامنا وهو في غاية الجودة كأنما حمل من زبداني الشام ، ورأينا أصحاب البستان يحصدون الشعير فعجبنا من ذلك ونحن في أواخر تشرين الاول (سبتمبر) وما كنا لنخاله موسم حصاد غير أن العجب لم يلبث ان زال حين علمنا ان هذه الاراضي تجود بمحصولين في العام يحصد الاول في الخريف والثاني في الربيع مما لا نعرفه في بلادنا . ولما مالت الشمس الى الغروب صعدنا جبلا مقابلا للمثناة لم نعرف اسمه فرأينا اجمل منظر شهدناه في الطائف : ذلك وادي وج الرحيب ، وحدائق المثناة الخضراء ، وهي من أخصب الارضين في هذه الديار وفيها أبنية عامرة وأخرى عبثت بها أيدي النوازل والسنين وكان القمر في ليلة تمامه فجعل يصعد أمامنا صعوده البطيء ، وارتفع صفير العصافير طرباً بتوديع الهاجرة ثم لم نلبث أن عدنا الى منازلنا والليل في إبانه .

المحترق — من جبال الطائف المشهورة ، حجارته أميل الى السواد من غيرها ، يقع في أعلى المثناة ويقابله واد به جبل « صعب » السابق ذكره .

المحرم — اذا اعتبرنا جبل كرا الفاصل بين حدود مكة والطائف دخل وادي المحرم في حدود الطائف ، وهو واد مشهور معروف تقدم الكلام عليه في حديث سيرنا من الهدة الى الطائف .

المدهون — في الطائف جبلان كلاهما يدعى المدهون ، احدهما : عن يمين الذاهب من الطائف مغرباً يلي أرض المثناة بطريق وج . والثاني عن يسار الذاهب من الطائف مشرقا يقابل أول أرض شبرة ، وكأنهما كانا متصلين فخرقتهما السيول لان الفاصل بينهما غير عظيم البعد .

المرقبة — قرية في وادي لية ، كانت تقام فيها سوق من عهد الشريف حسن ابن عجلان وفيها مسجد ، وقد بطلت أقامة السوق منذ زمن .

المريسية — قرية كبيرة ذات آبار خمس وبستانين فيهما عنب ورمان وتين وحمض وتفاح ونخل وليمون ، وبها نحو عشرين داراً وأربعة منازل كبيرة للامراء

والاشراف . وهي في وادي لقيم على مسيرة ساعة ونصف من الطائف الى الشرق مجاورة لمزارع الخضرا (بالقصر) التي قلنا ان على بئرها محركا وضع حديثا . وهذه البئر معروفة باسم بئر « المريسية » وهي بعد قرية أم صدعين .

مسرة — جبل عظيم كثير التعاريج يسلك الذاهب بين مكة والطائف جانبا منه وقد تكلمنا عنه في طريقنا من الهدة الى الطائف .

المسمع — قال الفاكهي : من قرى وادي لية .

معشي — قرية غرب الطائف لا تبعد عنه كثيراً ، يظنها بعض أهل الطائف قرية الهضبة التي ذكرها العجيمي وانما الهضبة الطائف .

ملح — قرية في وادي لية معروفة ، فيها بيوت ومزارع .

المليساء — قرية كبيرة من قرى الطائف ، قبل وادي لقيم للذاهب اليه ، يسكنها جانب كبير من عشيرة الحمدة وقد تعرف باسمهم (انظر الحمدة) . فيها نحو ٦٠ منزلا ورجالها نيف ومئة ولعل نفوسها تناهز ثلاث مئة ، وهي مشهورة في قرى الطائف بجودة سفرجلها ، وفيها كروم عنب ومزارع حنطة وشعير . وكانت فيها عدة آبار جف بعضها . وهي قبيل بئر الحماضية التي تقدم ذكرها وتكاد تلاصقها . تبعد عن الطائف نحو خمسة كيلو مترات .

منيفة — ذكرها بعض متأخري المؤرخين في قرى وادي لية ولم احقق وجودها .

نجمة المملوكة — بئر مشهورة بكثرة مائها وهي لفريق من الاشراف على مقربة من قرية العكرمية .

نخب — بفتح فكسر . واد بين الطائف ولية . له ذكر في التاريخ والشعر ، وفيه بيوت كثيرة ونحو عشرة بساتين ، يسكنه الآن عرب « وقدان » وهم قبيلة من عتيبة . وفي كتابي العجيمي وياقوت أن سكانه هذيل . ولعلهم كانوا قاطنيه في السابق ثم جلوا عنه . وكلام ياقوت في المعجم : « نخب واد بالطائف وانشد :

حتى سمعت بكم ودعتم نخبا   ماكان هذا بحين النفر من نخب

قال : وهو بأرض هذيل وقيل واد من الطائف على ساعتين مر به النبي (ص) من طريق يقال لها الضيقة ثم خرج منها على نخب حتى نزل تحت سدرة يقال لها

الصادرة . ورواه الاخفش بفتحتين اه كلامه

ورواية الفتح فالكسر في نخب هي الصحيحة خلافاً للاخفش فان أهله لا يزالون يسمونه بها رغم مرور الاعوام والاحقاب ، فلا مجال للخلاف .

النصيلة — مزارع في وادي الجفيجف ، ذات بساتين واشجار ، ولا فواكه فيها بل اشجارها من نوع النبق وزروعها انواع الحبوب وهي بعد مزارع جبرة وقبل دحلة .

حصن النغرة — النغرة طائفة من ثقيف لم أسمع بها في رحلتي . وهذا الحصن يظن انه الحصن الذي نزل بقربه النبي (ص) في غزوة الطائف فقد قال المرجاني انه باق الى الآن بالبناء الجاهلي . ونقل العجيمي ان فيه أربعين بيتاً وفيه بئر وتنين عظيم يمنعهم البناء فيه إلا أن يذبحوا عنده (!) وهو بالقرب من مسجد الحجاج بن يوسف وكان قد عمر هذا المسجد بتربة حمراء يؤتى بها من اليمن ، ولم يبق إلا آثار المسجد ومنارته خراب . ثم قال : وهذا الحصن موجود على ما ذكره المرجاني وقد وصلت اليه ورأيت آثار المنارة ومسجد الحجاج واما التنين فانه فقد منذ سنين وحوله بيوت وبساتين . والشائع عند أهل القرية ان بيت عبدالله بن عباس فيها . اه

وهذا الحصن في وادي لية لم تتيسر لي زيارته وعندي شك في بقائه الى الآن .

النوامي — مزارع في أوائل وادي لقيم من جهة الطائف للشريف شاكر . فيها أراض كبيرة بعضها مزروع . وفيها بئر الفضيلة الآنف ذكرها وهذه المزارع بعد أم الفضلين وقبل الخضاري .

الهضبة — ذكرها العجيمي فقال : قرية كثيرة البيوت جداً ، بدئت عمارتها بعد الالف ثم زادت بيوتها بعد أن خربت السلامة .

وهي الآن غير معروفة ويظنها بعض فضلاء الطائف قرية معشي السابق ذكرها ، لوقوعها تحت هضبة تعرف اليوم باسم هضبة معشي . والصحيح ما ذكرناه في الكلام على داخل السور من انها هي بلد الطائف نفسه .

الهدة — تقدم للكلام على الهدة فصل خاص في اوائل هذا الكتاب وقد يعدونه آخر حدود الطائف للسائر الى مكة كما يعدون الكر آخر حدود مكة للذاهب الى الطائف يفصل بينهما جبل كرا وهو الحد الطبيعي . ولاهل البلدين في هذا اقوال .

الهميلة ـ كان يجدر بنا أن نهملها ! قرية لها شيء من القدم تقع في آخر وادي جفيجف وقبيل عطفة وادي الخرار ، خربت كلها ولم يبق منها غير دار واحدة كأنها خربة ولا سكان فيها .

الواثليتان ـ الشرقية والغربية : قريتان في وادي لية .

وج ـ واد عظيم في ديار الطائف الى غربها يمتد بين جبلي المحترق والاصيحرين طولاً وبين جبلي المدهون وأم السكارى عرضاً . وهو أشهر أودية الطائف ومواضعها حتى أن بعض المؤرخين اطلقوا لفظ وجّ على الطائف كلها عمرانها وقراها واوديتها ، وفيهم من يرى أن وادي وجّ عرف قبل الطائف وأن قرى الطائف ومدينته بنيت فيه . وبهذا جاء الحديث الشريف : « آخر وطأة الله يوم وجّ » وفسروا الوطأة هنا بالغزاة وكانت غزوة الطائف آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم . اما المعروف اليوم عند أهل الطائف فهو أن وجاً هو ذلك الوادي الذي اشرنا الى حدوده وهو خارج عن الطائف . واكثر المؤرخين يرون انه سمي وجاً بنزول احد العمالقة به في الاعصر الغابرة ، قالوا : وهو وج بن عبد الحق (او عبدالحيّ) . وزاد ابن عراق [1] ان هذا العملاق كان من أهل نجد يقيم في هذا الوادي مدة فصل الصيف .

ولم يمر به النبي في غزوة الطائف ، لانه جاءه من طريق السيل فوادي لية وهو على شرق الطائف منحرفاً قليلا الى الجنوب . فيتضح من هذا أن اسم وجّ كان يطلق الى ما بعد العصر الاسلامي بقليل على جميع الطائف ثم خص بهذا الوادي المعروف الى يومنا . وهو كثير القرى والمزارع والآبار والسكان والبساتين . كانت بساتينه في أواخر القرن العاشر نيفاً وستين بستاناً . وقد أهمل بعضها اخيراً لقلة الامطار غير أن ذلك لم يؤثر في عمران هذا الوادي وخصبه . وهو على يسار

---

(١) ابن عراق : هو الشيخ نورالدين علي بن محمد بن عراق الشامي . من مؤرخي الطائف له رسالة فيه سماها « نشر اللطائف في قطر الطائف » رأيتها بمكة مخطوطة لاتتجاوز الكراس .

الذاهب من الطائف الى مكة وعلى يمين القادم من مكة . يبتدىء بعد الطائف بمسافة غير بعيدة .

الوزير – هي القرية المعروفة الآن باسم « الزوران » من القرى الصغيرة في وادي لية .

الوسطى – مزارع في أواسط لقيم لقبيلة الاعصمة ، فيها بئر واحدة . وهي بعد مزارع أم هيثم وقبل الخادمية .

الوهط – بستان كان لعمرو بن العاص ، مرت الاشارة اليه ، وهو الآن قرية على ثلاثة أميال من وج يراها المؤرخون آخر حدود الطائف من غربه . فيها عين ماء كانت تعرف بعين الازرق وتعرف اليوم بعين الوهط . وقال الفاكهي في الكلام على الوهط في عصره : هي قرية قريش وأم قرى الطائف .

وفي أمثال الميداني نبذة أوردها في كلامه على دهاء عمرو بن العاص . قال : ويحكى من دهاء عمرو أن معاوية قال له يوماً : هب لي الوهط ياعمرو واسألني ما شئت . فقال : هو لك . ثم قال لمعاوية : وقد بقيت مسألتي . فقال : أنت بكل ما سألت مسعف . قال تردّ لي الوهط ! فعجب معاوية من دهائه ، وقال : لك هو!

الوهيط – قرية خلف الوهط فيها ثلاثة بيوت وبها عين وبستان

قبائل الطائف

« عتيبة . ثقيف ، شبابة ، خندف »

ترجع قبائل الطائف في أنسابها اليوم الى أصلين كبيرين أحدهما عتيبة ، والثاني ثقيف . وانا ذاكر ما وصلت الى معرفته من أسماء الفريقين كما يلفظونها هم :

فمن عتيبة [١] : الجعدة [٢] . والوذانين [٣] . والسوطه [٤] . والعصمه [٥] والدعاجين . والزوّد ، وقريش ، والثبته [٦] . والمقطه [٧] . والروقه [٨] (ومن هـذه : الزراريق وطلحة ومزحم) وذووعالي ، والذيبة . والفلته . والنخشه [٩]

---

(١) بضم أوله . (٢) بسكون الجيم وفتح العين . (٣) بفتح الواو والذال (٤) بسكون السين وضم الواو (٥) بسكون العين وكسر الصاد (٦) كالعصمة (٧) كالجعدة (٨) بضم الراء المشددة (٩) الثلاث الاخيرات بوزن الجعدة

وبنو الحارث (ومنهم ناصرة – وهم أهل قرى في الحجاز ، والشدادين ، وذوو حطاب . وهما بداة)

ومن ثقيف : قريش الحضر . قريش البدو . بنو سفيان (وهم أكثرهم عدداً وينقسمون الى افخاذ كثيرة) وطويرق (منهم حضر وبدو) وثماله . وبنو سالم . والصخيريون وعوف .

وفي العارفين بالانساب من يرجع بهذه القبائل الى أصلين أعلى من عتيبة وثقيف . وهما شبابة وخندف . فاذا قيل شبابة اندمجت بها قبائل عتيبة كلها وزيدت قبائل أخر لم تكن تنتسب الى عتيبة ولا ثقيف وهي من سكان ديار الطائف . واذا قيل خندف اندمجت بها ثقيف كلها وزيدت قبائل ايضاً .

فاذا رجعنا الى هذين الاصلين : شبابة وخندف ، أضفنا الى عتيبة القبائل الآتية لتكون منها جميعها شبابة : بني الحارث ، بني سعد (وهم رؤوس شبابة) وحرب ، وقحطان (وهم أقدم قبائلهم) .

ونضيف الى ثقيف القبائل الآتية لتكون من جميعها خندف : البقوم ، سبيع ، الجحادلة ، الشيابين ، مطير ، هذيل (ومنها بنو خالد ، والتدويون ، والعلويون .

وقد يستغرب مطالع هذه الرحلة تقسيمنا القبائل أولاً الى أصلي (عتيبة وثقيف) ثم الى اصلين أرفع طبقةً (شبابة وخندف) ويقول : ما بال صاحبنا لم يكتف بشبابة وخندف فيعدد لنا قبائلها ولا يشغلنا بمرجعين ؟

وانما يعرف الفائدة من هذا التقسيم من كان له بالقبائل اقل اختلاط اذ يجد الصريخ اذا نادى يال عتيبة ! تهافتت عليه قبائل عتيبة وتخلف المنتسبون الى شبابة مباشرة . وإن نادي يال ثقيف ! أجابته قبائلها وتخلف المنتسبون الى خندف مباشرة . وقد ينادي : يال شبابة فتجتمع كلها وعتيبة فيها . أو يال خندف فتجتمع كلها وثقيف فيها .

تلك تقاليد للعرب قديمة غير حديثة ، ولعل عرب البادية أحرص الناس على أنسابهم وأشدهم تعصباً لاصولهم ، فانك لا ترى في الحواضر ما تراه في البوادي من معرفة كل رجل نسبه ، اللهم الا العيال القديمة العريقة في أنسابها .

الرحلة الحجازية

في جملة ما عثرت عليه بالطائف من الكتب المخطوطة قطعة من كتاب للعالم المكي المرحوم الشيخ عثمان الراضي (١) وضعه في نقد الرحلة الحجازية لمحمد لبيب

---

(١) هو الشيخ الاديب الشاعر عثمان بن الشيخ محمد بن ابي بكر بن محمد الراضي من كبار علماء الادب في الديار الحجازية ومن شعراء طبقتها الاولى في عصره له ديوان شعر يقع في مجلدين ، وكتاب في البديع سماه « الانوار المحمدية » شرح به بديعية لعبدالله فريج فجاء من اكمل شروح البديعيات وأغزرها مادة وأكثرها أخبارا عن الادب والادباء في مجلد ضخم صفحاته تقارب ست مئة ، خطه جميل لا عيب فيه الا ركة البديعية المشروحة . ولد الشيخ عثمان سنة ١٢٦٠ هـ وتوفي سنة ١٣٣١ هـ ، من شعره بديعية نبوية قال فيها :

(الاستدراك) قالوا نرى لك صبرا بعد فرقتهم
فقلت مستدركا لكنه بفمي

(التوشيع) زادوا هيامي بتوشيع الملام لهم
من صولة الجائرين البين والعدم

(المغالطة) غالطتهم حين قالوا أين منزلهم
ومن هم قلت أهل البان والعلم

(الغيرة) اني اغار عليهم أن أسميهم
وهم بقلبي وأشكو حرّ بينهم

(المناقضة) لهم لديّ عهود لست انقضها
الا اذا شئت اوشاة الهوى عدمي

(القسم) لا بلغتني المعالى من تناولها
ان لم أكن في ولائى صادق القسم

وله من قصيدة طويلة :

لله معهد انسنا ما بين وج والغدير — مغنى تخال قبابه في البهو هالات البدور
يسمو برونقه على حسن الخورنق والسدير — كم فيه من بدر تكحل بالدلال على الفتور
او شمس حسن بالجمال — تقنعت لا بالحرير

بك البتنوني . وقد توفي الشيخ عثمان قبل أن ينجز هذا الكتاب .فرأيت أن الخص ما أصبته منه حرصاً على مادته من الضياع والانتشار . وعسى أن ينظر صاحب الرحلة الفاضل في ما جاء به الناقد فيصلح ما يرى اصلاحه عند اعادة طبع رحلته :

١ـ جاء في الرحلة ص ٢٩ من الطبعة الاولى و٢٣ من الثانية : « أن السراي التي نزل بها الخديوي عباس في مكة المكرمة كان قد بناها محمد علي باشا المصري سنة ١٢٨٨ هـ لتكون داراً لحكومة الحجاز ـ الى قوله ـ لانه هو الذي عين في امارة مكة جدهم الشريف محمد بن عون سنة ١٢٢٩ هـ » قال الراضي ما ملخصه : ان هذه السراي او دار الامارة انما بناها أمير مكة الشريف محمد بن عون وقد ساعده محمد علي باشا على البدء بعمارتها بشيء من المال اهداه اياه. واما اسناد تعيين الشريف محمد اميراً على مكة الى محمد علي باشا . فالصواب فيه ان محمد علي كتب الى حكومة الاستانة يرشح محمداً وهو ضيف عنده في مصر اذ ذاك فلبته الحكومة وصدر أمر السلطان محمود الثاني بتعيين الشريف محمد وذلك في افتتاح سنة ١٢٤٣ هـ (١)

٢ـ جاء في الرحلة ص ٣٤ من الاولى في ذكر قبر عبدالله بن الزبير (رض) : « وكانت له قبة هدمها الشريف .. » قال الراضي : لم تكن له قبة بل كان له بناء صغير مسقوف هدمه الشريف المذكور .

٣ـ في الرحلة ص ٥١ من الاولى و٣٩ من الثانية : « وفي مدة الموسم ترى أهل البلاد ولاسيما الاعراب يضعون دائماً سدادتين من القطن في فتحتي مناخرهم بعد أن

---

(١) وفي كلام الراضي فوائد تاريخية اوردها في هذا الفصل نوجزها هنا حفظاً لها لا لعلاقتها ببحثنا :

ـ كانت مدة غياب محمد على باشا عن مصر للقيام بما انتدبته له حكومة الاستانة من قتال الوهابيين في الحجاز سنة وتسعة أشهر وذلك من منتصف شوال ١٢٢٨هـ الى رجب ١٢٣٠ هـ .

ـ تمت عمارة دار الامارة بمكة سنة ١٢٥٩ هـ

ـ كانت حكومة مصر واسطة المخابرات الرسمية بين الحجاز والاستانة في ايام محمد علي باشا وكان هذا ينظر في شؤون الحجاز منذ دعي لاخراج الوهابيين منه . اهـ

يغمروها بدهن المرو ويسمونها الصمام الخ » قال الراضي : ولعمري ماسمعنا قط ولا علمنا ان احداً ممن طرق هذه الرحاب المقدسة لنسك اوغيره قال هـذا القول ولا شهدنا نحن أهلها ولاشهد أحد من الحجاج ولاغيرهم أن أهل البلادأو الاعراب يصنعون ذلك — الى قوله — وهب ان مؤلف الرحلة رأى واحداً أو عشرة مثـلا في موسم يحتوي على اكثر من مئة الف من أصناف الناس فهل يجوز له أن يعدها من عادات أهل البلاد وهم لايعرفونها ؟ الخ

٤ً في الرحلة ص ٥٣ من الاولى و٤١ من الثانية توهم صاحب الرحلة القدم في بعض بيوت مكة . قال الراضي : ان هـذه البيوت التي اشار اليها كالدهلوي والساب ورذة وناقرو ومرزا ، ومن ذكر من الحضارم والشوام والترك ، لاشيء لها من القـدم بل كلها ممن جاوروا بمكة انفسهم ، واما البيوت القـديمة في مكة فمنها الشيبيون سـدنة البيت الحرام والزمزميون والسقاطيون وبيت ابن علان وبيت الحطاب وأمثالهم .

٥ً في الصفحة نفسها من الاولى والتي تليها من الثانيـة في وصف أهل مكة « فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك وضمته بين يديك ، تراه قد استوحش منك الخ الخ » ردّ عليه الراضي رداً مسهباً في أحدى عشرة صفحة جاء فيها : ان كل اقامة صاحب الرحلة بمكة لم تبلغ عشرة أيام قضاها في خدمة الجناب الخديوي والتهيؤ لصعود عرفة وطلوع منى وعرفة والاشتغال بالمناسك والتبريك والمعايدة ، فأين الوقت الذي استطاع به أن يختلط بأهل مكة وتتكرر محادثته معهم حتى اختبر طبائعهم الخ . ثم اتى على جانب كبير مما جاء في فضـل مكة وأهلها وسكانها .

٦ً جاء في الرحلة ص ٥٤ من الاولى و٤٢ من الثانية . « والذي يؤسف له ان هذا الخلط وصل الى لغتهم الخ » قال الراضي : ان ماعاب به صاحب الرحلة المكيين من نطقهم ببعض الـكلمات على غير أصلها الصحيح الفصيح ، لاتنفرد فيه مكة بل هو شائع في اكثر لهجات البلاد العربية ومصر في جملتها .

ثم بحث في كلمات ظنها صاحب الرحله خطأ وعدّها مما أوجب أسفه ، فأبان

الراضي تسلسلها عن العربية الفصحى كقولهم « ابيض » للاستحسان — مجازاً — و « زل » بمعنى مرّ و « زلمه » للرجل و « ازهم فلاناً » أي ادعه و « اندر » أي اخرج و « الصمادة » للكوفية الخ .

٧ً جاء في الرحلة ص ٦٢ من الاولى و٥٨ من الثانية : « وفي مكة قلعتان تحكمان على المدينة الخ » قال الراضي : بل القلاع ثلاث لا اثنتان .

٨ً في الرحلة ص ٥٨ من الثانيـة : « وبها مطبعة للولاية تسمى باسمها » قال الراضي : بل بمكة مطبعتان لا واحدة ، احداهما للحكومة كما ذكر والثانية بالفلق لاحد اغنياء مكة .

٩ً في الرحلة ص ٨٥ من الاولى و٩٨ من الثانية : « وفي المسجد ست منارات » قال الراضي : والصواب سبع لأن مؤلف الرحلة لم يذكر بباب الزيادة غير واحدة وهما ثنتان .

١٠ً في الرحلة ص ٨٦ من الاولى و٩٩ من الثانية : « الحنفي يبتدىء بالصلاة في جميع الاوقات ويتلوه المالكي ثم الشافعي ثم الحنبلي » قال الراضي : هـذا غير صحيح وانما الاوقات التي يبتديء فيها الحنفي بالصلاة أربعة : الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويتلوه في كلها الشافعي لا المالكي ثم يصلي المالكي ثم الحنبلي . أما وقت الصبح فيبتدىء فيه الشافعي ويتلوه المالكي ثم الحنبلي ، ويتأخر الحنفي في الصبح عن الجميع للاسفار ، والمغرب لا يصلي فيه غير الحنفي ثم الشافعي فقط . وهذه العادة بمكة منذ مئتي سنة وقد كان الشافعي في السابق يتقدم في الاوقات كلها .

١١ في الصفحة نفسها من الرحلة : « ان أهل كل جهة من العالم الاسلامي يجلسون عادة من الحرم في الجهة التي يستقبلون بها الكعبة في بلادهم الخ » قال الراضي : ذلك غير صواب فان أهل كل جهة من العالم الاسلامي لهم مطوّف مخصوص وزمزمي مخصوص فكل جنس من الحجاج تبع لزمزميه حيث يفرش لهم الحصر وربما كان للجنس الواحد من الحجاج زمازمة متعددون وربما كان للزمزمي الواحد اجناس متعددة إلا الاعجام فانهم يجلسون عند باب السلام لأنهم لا زمزمي لهم الخ .

١٢ في الرحلة ص ٩١ من الاولى و١٠٨ من الثانية : « وتفتح الكعبة في

العاشر من المحرم للرجال الخ » قال الراضي : جاء كثير من الخطاء في هذا البحث فقوله انها تفتح في ليلة الحادي عشر منه للنساء لاحقيقة له ومثله قوله وفي مسائه للنساء وقوله في العشرين منه لغسيل الكعبة ليس بصواب فربما تأخر أو تقدم ، وقوله « وفي أول جمعة من رجب للرجال وفي تاليه للنساء » قال الراضي : لاحقيقة له ولا معنى !

١٣ في الرحلة ص ٩٤ من الاولى و١٠٧ من الثانيه : و « في الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الابيات — واورد الابيات — وعلق عليها في الهامش قائلا : « ومن هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية في بلاد العرب وخصوصاً في القريض منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة — لان الابيات نقشت فيه — » قال الراضي : ان ناظم الابيات غير عربي اللسان ، وقد أوضح الناظم ذلك بقوله في الابيات : قال تاريخاً له قاضي البلد الخ . وهذا القاضي كان تركياً تولى قضاء مكة من باب المشيخة في الآستانة وكان ممن يعانون الادب فلما تم ترميم الجدار نظم الناس في ذلك بمكة على العادة عندهم في كل تعمير أو ترميم فنظم مولانا القاضي هذه الابيات وقدمها الى أمير مكة طالباً منه تقديمها على غيرها فلم يجد بداً من اجابة طلبه لانه تركي وقاض ، خصوصاً وقد كان تقديمها بواسطة الوالي الخ .

١٤ في الرحلة ص ١٠٢ من الاولى و ١٢٥ من الثانية في الكلام على مقام ابراهيم : « وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعاً بالمعجن الى جوار الكعبة ، ثم ابعد عنها الخ » قال الراضي : وهذا يخالف مادلت عليه الاحاديث والأخبار . والادلة كثيرة في ان موضع المقام الشريف في الجاهلية والاسلام هو موضعه الآن » ثم اتى بحجج من التاريخ لاغبار عليها .

هذه خلاصة ما جاء في الاوراق التي تصفحتها من رد الشيخ الراضي ، وهي كما ترى لم تتجاوز ثلث كتاب الرحلة .

الاوبة

« أيام الطائف ، هواجس النفس ، آلام عثرة ، الى مكة »

أمضينا نيفاً وعشرين يوماً في الطائف ، نركب البغال عصر كل يوم ، ونمضي الى جهة من جهاته ، فنبتعد مسيرة ساعة أو ساعتين أو أكثر ، ننقب عما نسترشد اليه من الآثار ، وننظر في ما نمر به من القرى والديار ، ونتريض في بعض الجنائن والبساتين ونعود بعد الغروب .

وكثيراً ما كانت جماعتنا تتألف من أمير الطائف [١] ووكيل حربية الحجاز [٢] وقاضي الطائف [٣] ومدير شرطته [٤] وفريق من ضباط الجيش ، فنجمع بين لذتي الرياضة والاستمراء ، والنزهة والاستطلاع ، ولطالما كنا نعاني الصعاب في صعود بعض الجبال والهضاب ، غير أن اللذة في ما كان يلوح لنا من أثر أو منظر ، لم تبرح تشجعنا على المضي في التصعيد والتطويف والتشريق والتغريب ، وناهيك بما هنا لك من صفاء ، في الارض والسماء ، وسكون في الطبيعة والفضاء ، لولا ما كان ينتاب النفس — وللنفس حنين — من نزوع وتشوق ، وتطلع وتشوف ، الى ديار ، هي ديار صبابتي ورباع أنسي ، ومهوى هواي ومنبت غرسي ، ديار الشام

---

(١) الشريف شرف بن راجح .

(٢) صبري باشا العزاوي ، من قبيلة عزة المخيمة فى جوار بغداد . كان في الجيش التركى بالمدينة الى أن استسلمت حاميتها ودخلها الامير علي ، فتطوع ودخل في الجيش العربى فنصب رئيسا لاركان الحرب برتبة قائم مقام قديم « قدملي » ولما استقال قيسونى باشا المصري من وكالة حربية الحجاز اقيم مقامه صبري وجعلت رتبته « أمير لواء » وهو اليوم في سن الكهولة يغلب عليه صفاء السريرة وطيب القلب ، مقيم في الطائف مع القوى النظامية .

(٣) الشيخ عبد الله كمال : فاضل رضي الاخلاق باشر تأليف تاريخ للطائف ما أظنه أتمه . بلغني أنه توفي مؤخراً سنة ١٣٤٠ ه . وقد سبقت لنا كلمة عنه

(٤) الشيخ درويش الحدائي المعروف في الطائف بالحدايدي

المنكوبة ، بلاد الآمال والآلام ، سلام عليها والف سلام !

كذلك كانت تمر – بما فيها من حلاوة – ايامنا القليلة في الطائف ولقد عثرت بي حرون من شمس البغال ، ذات مساء ، قبل العودة الى مكة ببضعة أيام ، فلازمت الفراش ، وعاودتني ذكريات البعد عن الاهل والخلان ، وجعلت تطيف بي وساوس مهولة علي ببعد ما بيني وبين سورية من مساوف البر والبحر . وكم كنت اردد في في نفسي قول ذلك الشاعر المتفجع :

وارحمتا للغريب ، في البلد النازح ، ماذا بنفسه صنعا !

فارق أحبابه ، فما انتفعوا بالعيش من بعده ، ولا انتفعا !

وزاد في آلامي فقد وسائل التمريض في الطائف ، فصبرت ، أغالب الوجد والوصب ، ويغالبني الهم والنصب ، فاتفق قدوم الامير علي أكبر أبناء الملك حسين وولي عهده ، الى الطائف في ذلك الحين فعادني وقد أقبلت على النقاهة . فاستأذنته مع من بقي من الرفاق ، بالاوبة الى مكة ، فأذن . وعرفنا أن جلالة الملك قد استبطأنا وأكثر من السؤال عنا ، فامتطينا مراكبنا ، وقفلنا راجعين ، نلقي على الطائف ومن في الطائف النظرات تلو النظرات والتحيات بعد التحيات !

كان في النية أن نعود من طريق السيل (اليمانية) لحاجتين في النفس : إحداهما الرغبة في أن نرى ما نمر به من قراها وأوديتها وشعابها ، ولا سيما عكاظ ، والثانية حب الراحة بعد أن علمنا سهولة هذه وشهدنا وعوثة تلك ، ولم نكن لنبالي ببعد اليمانية التي سنضطر في اجتيازها الى ضعفي مدة السير في طريق كرا . إلا أن ما أكده لنا العارفون الخبيرون من أن انقطاع الناس عن المرور بهذه قد أبدلها من أمنها خوفا ، أو كاد ، ألجأنا الى اختيار الاولى ، فسلكناها

بتنا ليلة في الهدة . وثانية في عرفات . وحللنا أم القرى ضحوة أول ربيع الاول سنة ١٣٣٩ وقد ضعفت فيها سورة الحر بابتداء فصل الشتاء ، فتلونا آية يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . والقينا في عاصمة الملك العصا ، وما كانت لتستقر بنا النوى ، وفي غيرها الهوى ، ولكنها ايام وليال ، تمر مر الخيال ، بين ماض وتال . . .

في ضيافة الملك

« في قصره . نسبه وتاريخ حياته . إمارته . سيرته وأخلاقه . ثورته على الترك »
« عهود الخلفاء . مبايعته بالملك . بعد الحرب . عاداته »
« اولاده . قصص وأخبار »

للملك حسين في مكة قصران فخمان متقاربان ، أحدهما حديث العهد بالبناء جميل الطراز مفروش بالأثاث الفاخر يبيت فيه ، وهو مقرّ حرمه المصون. والثاني قديم البناء ضخم الحجم ، أوسع دائرة وأكثر غرفاً وأبهاء من الاول ، يقيم نهاره فيه والهزيع الأول من الليل .

ولا يقتصر الثاني على كونه مقام جلالة الملك ، بل هو ثلاثة أقسام أو أربعة وإن شئت فقل خمسة ، في خمس طبقات لا يقل مافيها عن مئة غرفة وقد قيل لي انها مئة وعشرون . وهذا القصر هو المعروف عند أهل مكة بدار الحكم أو « سراية سيدنا » وأما الاول فاسمه في مكة « بيت سيدنا »

يصعد الداخل في دار الحكم بضع درجات عريضة واسعة ، في اعلاها باب حديدي كبير يفتح فجر كل يوم ويغلق الساعة الرابعة بعد الغروب ، فيمرّ بدهليز قصير ينتهي به الى ساحة رحبة يحيط بها البناء من جوانبها الاربعة إلا أن الجانبين الغربي والشمالي أشمخ وأرفع ، بل فيهما الغرف والمنازل والمساكن وكل شيء .

أما أرض هذه الساحة فبسيطة لابلاط فيها ولا حجر ، تدخلها — من باب آخر — الجمال الخاصة بجلالة الملك فتناخ ويطرح أمامها طعامها فتأكل ، وقد تبيت في هذا المكان أو تقاد الى مكان ثان . يخالطها في الساحة عدد من الاوزّ (ديك الحبش) وكبشان كبيران ، سمعت من جلالة الملك أنه رآهما وقد أفلتا من جزار كان يقودهما ليذبحهما فصعدا درجات القصر ، فأمر جلالته بنقد الجزّار ثمنهما ، وحماهما ، وسيبقيان عائشين في ظل قصره الى أن يلقيا حتفهما . وكذلك الاوزّ وغيره مما قد يدخل هذا البيت من أنواع الحيوان ، لا يذبح ولا يؤذى .

وعلى يمين الداخل في القصر سلم حجري يصعده الصاعد فيرى في طبقته الاولى

غرفاً يسكنها رئيس كتاب جلالته الشيخ أحمد السقاف وبضعة كتاب ، وهناك غرفة للشاهي (الشاي) والقهوة ، وغرفة للجلوس . وغرفة خاصة ، كثيراً ما كان يجلس فيها الامير زيد أيام اقامته بمكة قبل انصرافه الاخير الى العراق

ويرتفع الصاعد الى الطبقة الثانية ، فيرى عن يمينه مكاناً متسعاً يجلس فيه الشيخ ياسين البسيونى إمام جلالة الملك ، والمضايفي الخاص (الحاجب) سعد ، وبعض منتظري الدخول على حضرة الملك . وفي منتهاه باب خشبي كبير يخرج منه الى سطح مكشوف يجلس الملك على مقعد فوقه ، اكثر ليالي الصيف ، فراراً من الحر.

وعن يسار الصاعد « المخلوان » وقد تقدمت لنا كلمة عنه ، وهو غرفة الملك الخاصة في أوقات سمره وخلواته وراحته . ويقابل الصاعد باب ثالث فيه غرفة تؤدى الى مكان أظنه أوسع ما في القصر طولا وعرضاً ، وفي هذا المكان يجلس الملك جلوسه العام للناس ، وفيه تقام صلاة المغرب كل ليلة ، فيصلي الملك ومن حضر من ابنائه وأحفاده وضيفانه وخدمه وعبدانه . وفي الغرفة التي يدخل منها هذا المتسع ، توضع مائدة الطعام كل مساء لحاشية الملك وضيوفه وابنائه .

واذا لم يصعد داخل القصر هذا السلم الايمن ، بل استمر داخلا ساحته رأى عن يساره عدة ابواب ، بعضها منازل للضيوف وغيرهم ، وبعض متصل بالطبقات الثالثة والرابعة والخامسة . وهناك بيوت وغرف وأدؤر ، يقطنها فريق كبير من نساء الاسرة الهاشمية . ولم أر أثر ذلك بل نقله لي ثقة من أهل البيت .

وفي احدى زوايا القصر مطبخ كبير ترسل منه في أوقات الطعام الصواني الكثيرة والقدور ولوازمها الى عدة بيوت وتوزع على سكان القصر كله والله العليم بعددهم .

وفي جانب من ساحة أرض القصر غرفة صغيرة ، في وسطها خرق ينزل منه نحو أربعين دركة الى جوف الارض ، حيث يرى النازل مكاناً مظلماً مخوفاً موحشاً ، يسكنه أناس من البشر متيدون بالسلاسل ، يأتيهم من العيش مالا يكاد يسد أرماقهم ، ذلك المكان هو « القبو » المشهور ، وأولئك الملقون فيه هم سجناء جلالة الملك السياسيون والعسكريون والمتهمون بجرائم الشغب عليه ، وربما كان فيهم بعض أبناء

عشيرته الاقربين وبعض من كانوا في عداد حاشيته وخاصته ، اراد الله بهم الشقاء فسلط عليهم واشياً أو نماماً نزل بهم ذلك المنزل السحيق الرهيب ، حيث لا صوت صارخ يسمع ، ولا شمس نهار تبصر ، ولا ضوء هلال يرى !

هذا ما رأيت أن أكتفي به مجملا فيه الكلام على قصري صاحب الجلالة بمكة . وقد كانت إقامتي في منزل من منازل « دار الحكم » وكان دأبي أن أقضي حصة الليل الاولى (السهرة) مع زوار جلالته ، بين يديه ، وفي مخلوانه ، ثابرت على ذلك مدة مكثي في هذا البلد الامين ، وهي تزيد على ثلاثة أشهر ، كان نصيبي منها أن أرى جلالته أكثر من ساعتين في كل ليلة من نيف وتسعين ليلة ، أسمع حديثه مع المستمعين وأكلمه مع المتكلمين ، فعرفته في سروره ورضاه ، كما عرفته في كدره وغضبه ، ورأيته في جد الأمر وقلّ ان رأيته في لعبه . واجتمعت لي طائفة كبيرة مما يحرص على العلم به الكثيرون ، من سيرة الملك العربي الهاشمي واخباره ، وعاداته وأطواره ، وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت ، نقل المحدث لا المؤرخ ، والمصور لا الكاتب ، متحرياً ايراد الحقيقة كما هي عارية مجردة . ولو استطعت لاخذت بيد القاريء أريه ما وقعت عليه عيناي ، وأسمعه ما وعته اذناي . على أن الخبر قد يغني عن الاختبار ، وفي الرواية ما قد يغني عن المشاهدة

∴

في يوم من أيام سنة ١٢٧٠ للهجرة ، ولد في الاستانة الشريف حسين بن علي ابن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي (واسمه محمد) بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ابن رمية بن محمد بن الحسن بن علي بن قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى ابن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الامام الحسن (سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم) ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار

ابن معد بن عدنان . ونسب عدنان متصل باسماعيل بن ابراهيم الخليل . وفي النسابين من يرفع النسب الى نوح كما في سفر التكوين .

∴

وانتقل الشريف علي (والد صاحب الترجمة) الى مكة ومعه ابنه حسين وهو يومئذ طفل في الثالثة من عمره ، فرباه في بيته وخالف فيه سنة غيره من الاشراف فلم يبعث به الى احدى القبائل المجاورة لمكة ولم يربّه تربية بدوية خالصة يتلقن فيها أخلاق البداة في معايشهم ويتمرن على ركوب الخيل واحتمال المشاق ، فنشأ حضريا مدنيا ، وأولع بالدرس والمطالعة فحفظ مبادىء العربية وتفقه في شيء من أصول الدين وفروعه ، وأخذ عن بضعة أشياخ أشهرهم الراوية العلامة الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي تلقى عنه المعلقات السبع ، وهو لا يزال حتى اليوم يذكر قليلاً من بقايا ما لقنه اياه هذا الاستاذ ، وواصل القراءة على العالم المؤرخ الشيخ احمد بن زيني دحلان صاحب الفتوحات الاسلامية والجداول المرضية وغيرهما ، وحفظ القرآن الكريم قبل ان يتجاوز العشرين من سنيه ، ورافقه في طلب العلم فتى مصري الأصل هو الشيخ ياسين البسيوني الذي لم يفتأ ملازماً له ، وهو إمامه في صلواته اليوم ، وقد سبقت الاشارة اليه .

واتفق ان كانت في ذلك العهد إمارة عمه الشريف عبدالله باشا ، فأحبه وقربه منه وعامله معاملة الأب لابنه . ثم جعل يسيره في المهمات ويوجهه لتذليل الصعاب ، فسافر في أيامه الى نجد ، وطاف أكثر ما يلي الحجاز من شرقه ، وعرف قبائل تلك الأنحاء وعشائرها ، واختبر خفاياها وظواهرها . ثم كان الصلة الدائمة بين إمارة مكة والقبائل الحجازية وغيرها . وزوّجه عمه ابنة له اسمها « عبديه هانم » هي أم الأمراء علي وعبدالله وفيصل . وأما زيد فأمه تركية من أكبر عائلات الترك تزوج بها بعد وفاة عبدية هانم . وهي من فضليات النساء ، يستشيرها اليوم في أكثر شؤونه ويعتمد عليها في كتمان أسراره .

∴

ومارس ركوب الخيل ، فولع بدخول ميادين السباق ، وعرف بالقوة والمقدرة

على ركوب أقسى الجياد وأصلبها . حدثني من لا أشك بخبره أن الملك لم ينفك يبارز أشد الفرسان طراداً حتى شغلته شواغل الملك . ولقد رأيته ذات يوم واقفاً يريد الركوب ، وثلاثة عبيد من الاشداء الاقوياء يقودون جواداً كلما خطوا به خطوة ثار وشخر وانتفض ، فلم يزالوا يغالبونه حتى اقتربوا به من موقف الملك وهو الشيخ المسن ، فتقدم من الجواد فوضع احدى رجليه في ركابه ووثب وثبة غير المبالي ، فعاد الجواد الى زمجرته وزهوه ، فلم يكن من الملك الا ان لطمه بقبضة يده لطمة واحدة في عنقه ، فذل الجواد ومشى هادئاً ساكناً كأنما أبدل به غيره .

وحدثني من رأى الملك في موسم الحج فقال: كان راكباً جواداً أبيض ، وعليه لباس الاحرام الابيض ، وهو مكشوف الرأس اللامع شيباً ، أبيض الوجه واللحية والشاربين ، فقال : كان ذلك منظراً عجبا ..

∴

وتمكن منه في أيام صباه حب اصطياد النمور والضباع والغزلان ، وقنص كواسر الطير وبواشقه ، فكان يكثر من التجوال في رفقة له يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله ، فيتوغل في الجبال النائية والقفار الخالية ويعود بعد أيام أو أسابيع حافل الوطاب تتبعه غنائمه من وحش وطير

∴

ولم يزل في مكة الى أن أوعزت اليه الحكومة التركية بمغادرتها سنة ١٣٠٩ هـ فبرحها الى الاستانة وتقلب هناك في مناصب رفيعة استمر بها الى ان توفي عمه عبد الاله باشا في ثالث شوال سنة ١٣٢٦ هـ وانتهت نوبة إمارة مكة اليه فوليها (جلالته) سادس شوال من السنة نفسها وأقام يتهيأ للسفر حتى كان يوم ٢٨ شوال فأبحر قاصداً الحجاز وبلغ جدة فى ٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٦ فكان ذلك بدء إمارته بمكة

∴

في نفس الملك حسين قوة وصلابة ليس من السهل التغلب عليهما ، وهو عنيد شديد لا ينقاد بالعنف ويصعب ان ينقاد باللين ، وقد ظهرت صفاته هذه بارزة مجسمة منذ ولي إمارة مكة وحط في أم القرى رحاله ، فانه طارد خصومه وتسلم

مقاليد الامور بسهر دائم ويقظة وتحفظ ، وأبى أن يمشي مع جماعة الاتحاديين على العمياء فضاق به ذرعهم وأخذوا يتحينون له الفرص للقضاء على نفوذه ، ويوحون الى ولاتهم في الحجاز أن يراقبوه ويعدّوا عليه أنفاسه حتى انهم عزلوا واليًا اسمه احمد نديم بك[١] اتهموه بموالاة الشريف والعجز عن مقاومته . ولم يكن شيء من ذلك يخفى على الشريف بل كان يزيده حيطة وانتباها . ويلوح لي أن اختلافه مع الاتحاديين بدأ منذ خلعوا السلطان عبد الحميد ، وقد كان الشريف ـ وما زال ـ يثني عليه . ويعدّ في مقدمة مثالب القوم وثوبهم بسلطانهم ، وقد حاولوا كثيراً أن ينشئوا فروعاً لحزبهم في مكة وجدة فناوأهم الشريف فأخفقوا .

∴

ولما قامت الحرب العامة على سوقها ، ودخلتها الدولة العثمانية ، عانى الحجاز أكثر مما عاناه سواه من بلادها ، فانقطع الحجاج عن حجهم وسدت أبواب البحر واتسعت فوضى البر وأكل الناس لحوم ولدانهم ، كما رأينا في بعض ديار الشام ، وقويت شوكة الحزب الاتحادي فشط في الضغط على الشريف وأعوانه ، ورأى الانكليز تهيؤ الترك والالمان للزحف الى قناة السويس وغزو مصر فالتمسوا مشغلة لخصومهم ، وعلا صراخ بلاد العرب بالشكوى من دواوين الحرب العرفية في سورية والعراق ، فمد الانكليز أيديهم اليهم عن بعد ، يوهمونهم العطف والاشفاق ويمنونهم بالانقاذ والتحرير ، وأجالوا نظرات متتابعة سريعة في ما تشتمل عليه جزيرة العرب من قوة ، ولم يكونوا يجهلون ان للزعامة في هذه البلاد شأنها ، فاندفعوا يوفدون صنائعهم على امراء الجزيرة ، يفاوضون هذا ، ويذاكرون ذاك ، وتفاقم

---

(١) من عقلاء الترك نصب والياً للحجاز وكف عما كان يصنعه غيره من مشاكسة أمير مكة حسين باشا (جلالة الملك اليوم) فلم تطل مدته أكثر من سنة وعزل فعاد الى الاستانة قبل الحرب العامة . وجاء مكة بعد الحرب ومعه زوجته وولدان له فأكرمه الملك وأنزله في ضيافته وجعل له ما كان يتمتع به في أيام ولايته ماعدا السلطة . وقد اجتمعت به كثيراً ورأيت الملك ينهض ويمشي لاستقباله خطوة أو خطوتين كلما استؤذن له بالدخول عليه

الخطب على الشريف وبلاده ، فصغى اليهم بسمعه وتناقل الركبان الرسائل بينه وبين السر هنري مكماهون النائب البريطاني الاكبر بمصر فوضعت الشروط ونقشت العهود ، وأزمع الشريف الثورة .

∴

في الرسائل التي تبودلت بين الشريف حسين والسر هنري مكماهون ، قبل الثورة ، مالا يزال مطوياً الى اليوم ، لم ينشر أو نشر شيء من مواده وسكت عن الباقي . وقد وقعت بمكة على كتاب يصح أن يكون نموذجاً لما كان يكتبه مكماهون للشريف ، وإنه لنموذج إن صح أن الترجمة فيه حرفية ، وجب على كل من يقرأه أو يطلع عليه أن يتخذه درس عبرة يتعلم منه كيف يخاطب الساسة غيرهم حين يريدون أن يفاوضوه أو يخادعوه ! — وها هو الكتاب بنصه وحروفه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فرع الدوحة المحمدية ، وسلالة النسب النبوي ، الحسيب النسيب ، دولة صاحب المقام الرفيع ، الامير المعظم ، السيد الشريف ، أمير مكة المكرمة ، صاحب السدة العليا ، جعله الله حرزاً أميناً للاسلام والمسلمين ، بعونه تعالى آمين . وهو دولة الامير الجليل ، الشريف حسين بن علي ، أعلى الله مقامه .

قد تلقيت ، بيد الاحتفاء والسرور ، رقيمكم الكريم المؤرخ في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ هـ وبه من عباراتكم الودية المحضة ، وإخلاصكم ما أورثني رضاء وحبوراً

واني متأسف لانكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق اني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فان ذلك لم يكن القصد من كتابي قط ، ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية

ومع ذلك فقد أدركت ، من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، ولذلك فاني قد أسرعت في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا أشك في انكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول :

إن ولايتي مرسين واسكندرونة ، وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب ، لا يمكن أن يقال عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة

مع هذا التعديل وبدون اعتراض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب ، نحن نقبل تلك الحدود

وأما من خصوص الاقاليم التي تضمها تلك الحدود ، حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فاني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية ، وأجيب على كتابكم بما يأتي :

١ً — إنه مع مراعاة التبديلات المذكورة أعلاه ، فبريطانيا العظمى مستعدة لان تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطالبها دولة شريف مكة .

٢ً — ان بريطانيا العظمى تضمن الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ً — وعند ما تسمح الظروف ، تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها ، وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الاقاليم المختلفة

٤ً — هذا والمفهوم ان العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادت بريطانيا العظمى وحدها ، وان المستشارين والموظفين الاوروباويين اللازمين لتشكيل هيأة ادارية قوية ، يكونون من الانكليز .

(هنري مكماهون)

.·.

أما ما عاهد الانكليز الشريف حسيناً عليه ، فقد سئل عنه الامير فيصل في دمشق قبل المناداة به ملكاً على سورية ـ فأجاب بما نصه[1] :

ان المعاهدات التي يذكرها صاحب الجلالة ما رأيتها وقد طلبت منه مرارا ان يجعلها سلاحاً لي اذا كانت موجودة ولا أعلم ماسبب تأخيره ارسالها لي واكتفاء

---

(١) نقلاً عن عدد ١٥ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ من جريدة المفيد الدمشقية

جلالته بارسال صورة اتفاقية يقول إنها نسخة من تلك المعاهدة وهـذا نصها بحروفها :

(١) ـ تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها وتكون حدودها شرقاً من بحر فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الابيض وشمالا ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبها في بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هـذه الحكومة برعاية المعاهـدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحل محلها في رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها اميراً كان أو من الافراد

(٢) ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي مداخلة كانت باي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعد بأي شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الاعداء أو من حسد بعض الامراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه وهذه المساعدة في القيامات أو الثورات الداخلية تكون مدتها محدودة أي لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية

(٣) ـ تكون البصرة تحت اشغال العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية التي هي حكمها قاصرة في حضن بريطانيا وتلك المبالغ تكون في مقابلة ذلك الاشغال

(٤) ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب .

(٥) ـ تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو ما هو مناسب من النقاط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها .(انتهى)

قال سمو الامير : ولكني مع الاسف حينما كنت في لوندرة قدمت هذه الصورة الى رئاسة الوزارة فانكرت وجودها كل الانكار وقالت بانه لا يوجد عهد ولا كتابة كعهد ينطق بمثل هذا التصريح .

الرصاصة الأولى

الساعة ٩ والدقيقة ١٢ عربية قبيل فجر السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ ه بينما الجيش التركي في مكة هادىء في ثكنة جرول والقلعة الحميدية ، والناس نيام والحوادث يقظى !

وبينما قادة الجيش التركي يحلمون بايناس الشريف حسين لهم بعد صلاة الجمعة من يوم ليلتهم !

وبينما والي الحجاز غارق في نومه بعد أن تلقى خبر جواسيسه بأن الشريف سهر تلك الليلة على عادته في قصر الامارة وسرى الى منزله الساعة الرابعة من الليل فلا جديد هناك .

سمع القريبون من القصر طلقة دوى صوتها في ذلك الليل الساجي ، وتلاها دوي متتابع من بطن مكة ، فنهضوا يكذبون السمع ، وانطلقوا يستقصون الخبر

خرجت الرصاصة الاولى من قصر الامارة من بندقية الشريف حسين ، فلم يبلغ صداها مسامع جيشه المكامن حول حصون الترك وثكنها ، حتى اندفع سيل النار من بندقياته ، فانتبه الترك مذعورين ، واسرع جندهم الى المدافع قبل أن تصل اليهم العرب ، فاطلقوا القنابل على مصاعد نيران البندقيات

ولم ينشق فجر ذلك اليوم الا وجنود الترك محصورون في حصونهم ، وقلعة أجياد المشرفة على احياء مكة ودورها تواصل القاء القذائف على كل مكان يتخيل لها أن فيه قوة من العرب ، واستمر بها الامر الى أن طاشت قذائفها فأرسلتها على غير هدى في كل ناحية من نواحي البلد الامين ، واختصت بالعناية دار الامارة فاتخذتها هدفاً حتى كانت الساعة الثالثة من الصباح

كل ذلك والشريف حسين جالس في القصر لا يبالي بما كان أو ما سيكون . وقد أمر بقطع جميع أسلاك البرق والتلفون إلا سلكا بين القصر وثكنة جرول تاركا للقوم سبيلا للتسليم والنجاة واذا بالتلفون يضرب ورؤساء الجند يسألونه عن الباعث على ما يحدث ، فأجابهم منذراً بوجوب الاستسلام . فلم يفعلوا ، ودام تبادل النار بين الفريقين الى المساء . وأحصي ما اطلقوه من القنابل في هذا اليوم بمئتين وثلاثين قذيفة من عيار ٧٫٥٠ أصابت بعض المنازل فاخترقت جدرانها ولم تهدم بيتاً واحداً .

ومن أغرب ما يذكر في هذا الباب أن النار استمر انصبابها من افواه المدافع والبنادق على القصر الهاشمي خمسة وعشرين يوماً ، والشريف مثابر على عادته في الجلوس به ، لم يغير مجلسه ، ولا اختار غير غرفته الخاصة ، المعروفة حتى الآن باسم « المخلوان » يمكث بها وفي ردهة القصر سحابة النهار والربع الاول من الليل ، يتحدث مع من عنده ، ويضع الخطط لاتمام العمل ، حتى ان الناظر الى غرفته « المخلوان » اذا حقق النظر فيها لا يتمالك من الدهشة حين يرى أبواب نوافذها وسقفها ومنصتها ، وفي الجميع آثار الشظايا والعيارات النارية التي كانت تتساقط بغير نظام . ولقد دخلت احدى القنابل غرفته وهو جالس ، فمرت على قيد شبر من مجلسه فاخترقت أساس الغرفة ، وهو لا يعبأ بها ، وأكد لي أحد من حضروا تلك المواقف أن موسيقاه الخاصة لم تنقطع عن العزف في أوقاتها يوماً واحداً وأن قنبلة سقطت عشية يوم بالقرب من العازفين ، فانفرط عقدهم وجاين فأمر الشريف بأن يرجعوا الى عملهم ، ولو ماتوا كلهم ، فعادوا واتموا ما بدأوا به تحت خطر القنابل !

وعلمت من ثقة كان بين يديه يومئذ أن تساقط النيران لما اشتد على غرفته جعل يكرر هذه الكلمة « قرّ يابيت ، إنها ميدي ما هي ميدك ! » وهذه الكلمة حادثة معروفة اليوم عند قبائل العرب ، أول من قالها رجل منهم أحاط به جمع من أعدائه وهو في خيمته لا يبالي ، ورأى اضطراب عمدان الخيمة من تساقط الرصاص فقالها . فذهبت مثلا . ومعناها : اسكن أيها البيت ، فان ما ترمى به لم يكن الا لأميد أنا وأضطرب ، لا لتميد وتضطرب أنت !

ولم يكن قادة الجند التركي جاهلين باوقات وجود الشريف في القصر ، فكانوا ضحى كل يوم يطلقون على غرفته قنبلة خاصة ، ثم يوجهون قذائفهم الى بقية القصر والبلدة . وأخبرني ثقة انه كان اذا تأخرت القنبلة عن ميعادها وهو جالس في « المخلوان » يتساءل أمام من حوله : عجباً ما لهؤلاء القوم قد أبطأوا اليوم ؟ ألا يزالون نائمين ! !

. .

كان الشريف قد هيأ نخبة من أمهر الرماة بعث بهم الى ذروة جبل « أبي قبيس » يرمون من في القلعة ، لان قمة هذا الجبل تشرف عليها . وأقبلت نجدة من أطراف « جدة » انضمت الى من في مكة من جند الشريف الذي كان يقوده الامير زيد[1] واشتد الحصار على قلعة « أجياد » حتى اخترقتها قنبلة من أحد جوانبها ، فدخل بعض الاعراب من ذلك الثقب ، وتبعهم آخرون . والمقيمون بها لا يشعرون . وما هي الا دقائق معدودات حتى علا الصوت ، وأعمل الوالجون من الثقب السيف في الآمنين المطمئنين ، فاستسلم هؤلاء . واستولت العرب على القلعة وما فيها يوم الثلاثاء رابع رمضان سنة ١٣٣٤ وفت ذلك في عضد المحصورين في ثكنة جرول فسلمت حاميتها يوم الاحد تاسع رمضان . واحتاز الجيش العربي مباني الحكومة كلها .

وكان قيام مكة وجدة في يوم واحد (٩ شعبان) ومهاجمة الطائف في اليوم الثاني ، والمدينة في اليوم الثالث . ولم يكن عند الشريف مدفع ولا رشاش ، بل كان سلاح العرب في بدء الثورة البندق (الرصاص) والسلاح الابيض .

وبعد الاستيلاء على قلعة أجياد ، بعث الشريف ابنه زيدا الى جدة ، فأعان القبائل على التشديد في حصارها ، فسلمت حاميتها .

وظل عبد الله محاصراً الطائف الى أن استسلمت حاميتها على ماقدمنا يوم ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ .

---

(١) وكان الاميران علي وفيصل يومئذ محاصرين المدينة المنورة . وعبد الله محاصراً الطائف

وأما المدينة المنورة فكان القبر النبوي الشريف مانعاً للعرب عن إطلاق القنابل عليها ، فلم يزيدوا على أن حصروا قوى الترك بين جدرانها ، الى أن انتهت مؤنهم وخمدت نار الحرب العامة ، فاستسلموا ودخلها علي .

وتقدم فيصل في حملته الى الشمال ، ثم لحق به زيد ، فدخلا دمشق وانتهيا الى حلب .

∴

وفي سابع ذي الحجة ١٣٣٤ هـ (٥ أكتوبر ١٩١٦ م) تألفت أول وزارة عربية بمكة ، وسمي اعضاؤها الوكلاء ، ورئيسهم الامير عليّ ينوب عنه قاضي القضاة الشيخ عبدالله سراج . وتألف في اليوم نفسه مجلس للشيوخ ، رئيسه الشيخ محمد صالح الشيبي

∴

وفي ثاني المحرّم سنة ١٣٣٥ هـ كانت بيعة الشريف « حسين » بالملك في حفلة عظيمة أتت على وصفها جريدة « القبلة » في العدد ٢٢ من سنتها الاولى . وحمل اليه نائب رئيس الوكلاء – الشيخ عبد الله سراج – كتاب البيعة ، وهو طويل نشرته القبلة ، جاء في ختامه ما نصه بالحرف :

« . . واننا نبايع جلالة سيدنا ومولانا الحسين بن علي ، ملكاً لنا نحن العرب يعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونقسم له على ذلك يمين الطاعة والاخلاص والانقياد في السر والعلانية . كما أننا نعتبره مرجعاً دينياً لنا ، أجمعنا عليه ريثما يقر قرار العالم الاسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الاسلامية . .

« نبايعك على هذا ياصاحب الجلالة ، ونقسم لك بالله العظيم على طاعتك ، والرضى بك والانقياد اليك ، في السر والعلانية . ولك علينا في ذلك عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين واجتهدت في ما فيه صلاح العرب والمسلمين « ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما »

وتلي هذا الكتاب على مسمع منه ومن أعيان مكة ووجوهها وغيرهم . وفاه جلالته بخطاب وجيز قال فيه :

« اني أقسم لكم بالله العظيم أنني لم ارد هذا الامر الذي تكلفونني به ولم يخطر على بالي عند ما قمت معكم بنهضتنا السعيدة ، ولكنني رأيت كما رأيتم أننا أمام خطر عظيم وخطب جسيم ربما قضى علينا القضاء المبرم اذا لم نبادر الى ازالته

« انكم حملتموني أمراً أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد . وطال ما قلت اني واحد من جمهور الامة ، أبرم ما يبرمون من حق ، وأرفض ما يرفضون من باطل وامد يدي لكل من يتفقون على إسناد أمرهم اليه على كتاب الله وسنة رسوله . واذا كان لا مناص مما اردتموه فاني أشترط عليكم أن تعينوني على أنفسكم وتساعدوني بآرائكم وأعمالكم في كل ما يحقق آمالنا وآمالكم من الخدمة العامة للعرب والمسلمين . . الخ »

وتليت في اليوم الثاني صورة كتاب البيعة في المسجد الحرام . ثم تواردت الكتب بمعناها من الطائف وجدة والمدينة المنورة وجيش الشمال ، وأخيراً من العراق وسورية . ولا تزال هذه الكتب (أو المضابط) محفوظة عنده حتى اليوم وفيها من التواقيع ما لا يحصى عدده .

٭٭٭

سكنت نأمة الحرب العظمى بانعقاد الهدنة بين الحلفاء وخصومهم يوم ٥ صفر سنة ١٣٣٧ – ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ وانقلبت كل أمة تعاود النظر في ما بين ايديها من وثائق علها تجد بها النفع في مثل ذلك اليوم . وتشمر كل سياسي قوم يحاجّ ويناضل ويدافع ويقاوم . وتناسى أكثر الحلفاء ما كانوا يخطبون به ود الامم ويستميلون فيه الممالك الى نصرهم ، من الدعوة الى تحرير الشعوب الخاضعة لغيرها والنداء بانقاذ الامم الصغيرة من براثن الامم الكبيرة . فاذا الدكتور ولسن صاحب جمعية الامم يعض الاصابع من الندم ! ولويد جورج الوزير البريطاني تشغله مشاكل العمال وثورات الارلنديين وصيحات الهنود ونهضة المصريين عن كل ما أبرم وعقد باسم مليكه وحكومته ، وكليمنصو الوزير الفرنسوي يهجر معالجة سياسة قومه مفضلا عليها صيد النمور في غابات الهند ، والملك عمانويل يضطرب لخفوق العلم الاحمر في بلاده وأمام عينيه ، وفينزيلوس الزعيم اليوناني يضيع بين شعب أثينة وأسرة قسطنطين !

انفجرت براكين العالم بعدخمود بركان الحرب . واستبدل قادة الامم بثياب العفة والحنان والاخلاص، أبراد الشره والقسوة والمكر . فاذا الوجوه غير الوجوه . والقلوب غير القلوب ، والانسان اليوم غير الانسان بالامس . .

وهناك على شاطيء البحر الاحمر ، في تلك البادية ، وبين هاتيك الروابي والتلاع ، حكومة كانت وليدة الحرب العامة ، نشأت تحتاطها المخاوف ، وترعرعت تكتنفها المخاطر ، يرأسها ملك تاجه عمامته وعرشه مهابته ، ليس له ما لسواه من ذوي العروش والتيجان إلا طاعة أهل قطره له ، وانقيادهم بين يديه وخوفهم غضبه وتوقيهم سخطه ، ذلك هو الملك حسين بن علي ، من وقف الى جانب الحلفاء ثلاث سنين ، يحارب من حاربوا ، ويوالي من والوا ، ينظر اليهم اليوم من وراء حجاب فاذا هم عنه معرضون !

عاهدوه على سورية ، واستعمروها . وعلى العراق ، واحتلوها . وعلى فلسطين وهوّدوها . وعلى الجزيرة ، وقسموها . وعلى الحجاز ، وحاولوها . . فاعجب — إن كنت تعجب — لموقفه الاخير أمام حلفائه ، في الماضي . وأعداء الشعوب الناهضة ، في الحاضر . والمضطرين الى مجاراة تيار البشر ، في المستقبل !

يقول الامير عبد الله [١] : « وما مثل الذين يعترضون عليكم في موالاة حلفائكم إلا كمثل من يحاول الاعتراض على الله في تدبير شؤونه التي يبديها ولا يبتديها » ولعله بعد ان رأى — بعينيه — ماصار حال العالم اليه . يتراجع قليلا بل يتقهقر طويلا ، عن مفاجأة الاسماع بمثل تلك الجرأة على الحق والخالق . . !

لم يقف الملك حسين مكتوف اليدين أمام عبث الغرب بهذه البقعة الصغيرا من الشرق ، بل احتج ، وحاول إسماع الصم صوته ، فانكروا العهود وجحدوا المواثيق ، شأنهم في كل موقف مع كل أمة تمكنوا من تمزيق شملها وتفريق كلمتها وفصم عراها

هم يعملون أو سيعملون على إرضائه أو إسكاته ، فيؤوّلون ما لا مناص لهم من

---

(١) من « توديع وايضاح » بعث به الى جريدة القبلة من وادى الليمون ونشرته في العدد ٢٨ من السنة الاولى — ٢٤ المحرم سنة ١٣٣٥

الاعتراف به من عهودهم ، ويتقدمون اليه يحملون تيجاناً خيالية وإمارات وهمية لبعض بنيه ، كأن مصلحة العرب هي في أن ينصب بنوه ملوكاً وأمراء ، وكأن العرب وفي جملتهم الملك حسين وأبناؤه ، ما ثاروا ولا قاتلوا إلا لتتحول ألقاب أفراد فيهم ، من شريف الى أمير ، أو من فلان الى جلالة فلان !

بهذا الزخرف البالي ، وبهذه الزيوف المموهة ، يعمل الحلفاء على اقناع أليفهم في الموطن الخشن ، الملك حسين بن علي ، وايهامه بانهم ما برحوا له ذاكرين ، ولعهودهم حافظين . وما هم بالذاكرين الواعين ، ولا الحافظين المراعين

..

أنجب الملك حسين أربعة بنين ، عرفتهم جميعاً ، وخالطتهم ، وكانت لي مع بعضهم مواقف ، وأنا ذاكرهم على ترتيب أسنانهم تبعاً لقاعدتهم في تقدم الاكبر فالذي يليه ، لا يراعون في عملهم هذا ما يراه غيرهم من الاعتبارات فقد ترى الصغير ملكا والاكبر منه أميراً أو وزيراً ، وحينما يتقابلان لا يمنع الصغير تاجه من تقبيل يد الاكبر وان كان لا يوازيه في شأنه ومكانته .

١) الامير علي : أكبر أنجال الملك حسين . وولي عهد المملكة العربية الهاشمية في الحجاز . يعتمد عليه الملك في الشؤون الداخلية المتعلقة بالقبائل والمغازي في البادية . وكانت اليه قيادة الجيش العربي ، أيام الثورة ، في جهات المدينة المنورة . وهو الآن رئيس مجلس الوكلاء في مكة وأمير المدينة . يتردد بين مكة والمدينة والطائف . في طبعه سكون وأناة ، وفي أخلاقه لين وسهولة ، وفي نفسه اباء وشرف . قليل الكلام ، حسن الاصغاء لجليسه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم . كثير التفكير ، أمه وأم فيصل وعبد الله واحدة .

٢) الامير عبد الله : ثاني أنجال الملك حسين . افتتح الطائف في بدء الثورة وولاه أبوه وكالة الخارجية ثم انتزعها منه . وكان قائد جيش الحجاز في وقعة « تربة » الشهيرة بين الحجازيين والنجديين ، نجا فيها بعدد قليل من الضباط وأضاع كل ما كان معه من مال ورجال . ولما نودي بفيصل ملكاً على سورية في دمشق يوم الاثنين ٩ مارس (آذار) ١٩٢٠ — ١٩ جمادى الاولى ١٣٣٨ نادى بعض شبان

العراق بعبدالله ملكا على العراق ، وهو بمكة . وسيره أبوه منها الى معان فشرق الاردن" كما قدمنا(١) . وهو مطاع اللسان ، له شيء من الاطلاع على الأدبين العربي والتركي ، مولع بالمحاجّة والمناظرة ، مدلّ بنفسه ، فخور ، ميال الى الراحة ، مغرم بالشطرنج ، ملول لما هو من جدّ الامور ، كثير المزاح مع خاصته ، متطرف في ذلك ، لايحبس درهماً ، ولا يرمي الى هدف ،

ماقال قولا ودرى قلبه لسانه يجري به والفم !

٣) الامير فيصل : ثالث أنجال الملك حسين . كان نائباً عن مدينة « جدة » في مجلس النواب العثماني قبل الثورة . ثم كانت له في تهيئه أسبابها يد . وافتتح سورية الى اقصى حلب فتولى امارتها ، وناب عن أبيه في مجلس الامم بباريس فتكررت رحلاته الى أوروبا ونودي به في دمشق ملكا على سورية يوم ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٣٨ ـ ٩ (آذار) سنة ١٩٢٠ وكانت « ليلة ميسلون » آخر أيام حكمه في سورية وقد سبقت لنا كلمة عنها ، ثم برح ديار الشام الى ايطاليا ومنها الى لندن حيث بوحث في ملك العراق ، وكان هذا آخر ما نقلته أسلاك البرق الى مكة ونحن في شعابها .

وفي الامير (او الملك) فيصل ، دهاء وشجاعة ، يتردد في بعض الامور فيشين حزمه ، عصبي المزاج ، له قوة على الخطابة واعتلاء منابرها ، وفي بيانه ولغته ضعف ، يقول فيجمجم ولا يصارح الا حين تدركه الحدة ، بعيد مطامح النفس ، كثير السهر والتفكير ، للجد استيلاء عليه فلا يكاد يهزل ، طاعيته في أن تكون له مرونة السياسي تحرج مواقفه وتبتعد فيه عن مراميه ، لقنته حادثة الشام درسا في حياته السياسية ما إخاله ينساه .

٤) الامير زيد : أصغر أنجال الملك حسين . قاد الثائرين بمكة يوم قيام أبيه ، ثم لحق بأخيه فيصل ، فدخل معه الشام ، وناب عنه في إمارتها حين برحها الى اوروبا ، ولما احتل الافرنسيون دمشق غادرها مع أخيه إلى حيفا ومنها الى ايطاليا

---

(١) وقد اتيت في كتاب لي وضعته بعد هذا سميته « عامان في عمان » على شيء من سيرة هذا الامير وأخلاقه ، عساي أن أطبعه في فرصة ثانية

ونشرت الصحف ازماع أخيه أن يدخله جامعة اكسفورد ، فاضطرب جلالة ابيهما لهذا النبأ وأبرق الى عاصمة بلاد الانكليز يدعوه اليه ، فلم تمض أيام حتى كان بمكة. وهو شاب في مقتبل عمره ، يصفه من شهده في مواقع القتال بالبطولة ، فيه ذكاء وسرعة انتباه غريبان ، للصبى في نفسه أثر يضيع بين نشاط الفتوة ورجحان العقل ، وفيه ميل للدرس والتعلم بل شغف وولوع فيهما ، صريح مع من يأمن ، بعيد عن المواربة ، نقاد ، يسمي الحق حقاً والباطل باطلاً ، يهزل ويجد ، في طباعه وأخلاقه نقاء وصفاء ، يكره التدجيل والتدليس ويسخر من التعمل والتكلف

∴

هؤلاء بنو صاحب الجلالة . أجنحته ومعاقد آماله ، وثقاته ومفاتيح أقفاله . أطلقهم في الجزيرة ، فكان — أو سيكون — لكل منهم نصيبه من جهاده ، وسهمه من سعيه . ولهم في إقناعه واستمالته واسترضائه عن أعمالهم طرائق وربما شذّ أحدهم فخرج عن رأيه في أمر أو حادث ثم لا يلبث أن يرجع صاغراً ينتحل الأعذار ويلتمس الاعذار . وهو شديد معهم ، متصلب ، قاس ، صعب . قال الامير عبد الله : لقد ربيت في حجر والدي ، وما أعلمه والله قبلني يوماً ، لا طفلا ولا ناشئاً ، ولا قادماً ولا مودعاً . !

∴

الملك حسين أشد الناس محافظة على خطة ، ومثابرة على عادة ، واسترسالا في سبيل . حدثني أحد من عرفت بالصدق في مكة ، فقال : عرفنا سيدنا أميراً وملكا فاذا هو واحد في امارته وملكه ، أمضى ثماني سنين في دار الامارة وسنيناً في قصر الحكم ، لم يتخلف عن الجلوس للناس إلا يومين اثنين منها ، لمرض شديد أصابه ، وهو لا ينام أكثر من ست ساعات بل قد تنقص ساعات نومه عن هذا المقدار .

ينهض قبل الفجر فيتوضأ ثم يصلي وربما نزل الى الكعبة فطاف حولها والناس نيام . وتطلع الشمس وهو في قصره (بيت سيدنا) فيتناول طعام الفطور وتمرّ خيله الخاصة ، فتعرض أمامه وهو يفطر ، ولقد قال يوماً : إن منظر هذه الخيل ليعجبني ويروقني حتى لا أكاد عند رؤيتها أن أنسى الدنيا وما فيها !

وينزل بعد ذلك من قصره فيركب بغلة أو جواداً ويأتي « دار الحكم »

والمسافة بين الدارين قريبة جداً . فيستريح قليلا في المخلوان ، ثم ينهض ، الى المجلس العام فيتصدره ويأذن لمن شاء بالدخول، فيتوافد الناس وأكثرهم بل كلهم من البدو لان الحضر قلّ ان يراجعوه في شؤونهم لمعرفتهم باساليب مراجعة الحكومة فهم يراجعون نائب رئيس الوكلاء الذي هو قاضي القضاة الشيخ عبد الله سراج ، أو يراجعون رئيس البلدية أو مدير الشرطة وذلك كله في « سراي الحكومة » على مدخل حارة أجياد . وقد كانت هذه السراي مقر الولاة في أيام الترك

حضرت يوماً مجلس الملك العام وعنده بدوي أكمل حديثه وخرج. فأدخل الحاجب بدوياً آخر تقدم من الملك فأهوى على يده ثم على ركبته تقبيلا وتقهقر فجلس في منتصف المكان على الارض رافعاً احدى ركبتيه وطاوياً الثانية تحته وفي يمناه خيزرانة يشير بها وهو يخاطب الملك، فقص قصته وخلاصتها أنه بينما كان يرعى ابله وراء شعب من الشعاب اذ خرج عليه ثلاثة رجال أرادوا سلبه الابل فامتنع فاطلقوا عليه النار من بندقياتهم فأجابهم بمثلها وتحصن وتحصنوا وانتهت الحادثة باستيلائهم على جملين والنجاة بهما . وكان الملك مصغيا اليه كل الاصغاء وهو طوراً يخاطبه بسعادتك وتارة بسيدنا وحيناً بضمير المخاطب المفرد والخيزرانة في يده يقلبها ويعبث بها ،ولما انتهى صفق الملك بيديه فجاءه سعد (الحاجب) فأمره بأن يذهب به الى قائم مقام القصر (وهو أحد الاشراف) وان يبلغه وجوب ارسال من يقص أثر المعتدين على الشاكي ثم يعلمه النتيجة . فانصرف البدوي بعد ان قبل يد الملك وركبته مرتين مرتين .

وهكذا فان جلالة الملك يمكث في هذا المجلس الى مابعد الظهر ثم يصلي وينصرف الى المخلوان، فيتمدد ويرتاح الى العصر ، ثم يأخذ بقبول فريق من الناس، ممن يدعوهم أو يرغب في مذاكرتهم ببعض الشؤون . وان كان ذلك اليوم موعد وصول البريد المصري خلا جلالته بنفسه يتلب صفحات مايحمله اليه من صحف ورسائل فشغله ذلك الى قبيل الغروب . ويصلي المغرب بعد ذلك خلف إمامه، في المصلى الذي كان قبل الظهر مكان جلوسه للنظر في المظالم واستماع الشكايات .

ويعود بعد الصلاة الى المخلوان فيأتيه طاهيه الخاص بصينية فيها شيء من مرق اللحم أو الشوربا وأنواع يسيرة من الطعام يأكل منها ما تميل اليه نفسه. ونحو الساعة الثانية بعد الغروب يدعو اليه من في غرفة الانتظار من الزوار، فيجلسون عنده نحو ساعتين ثم يخرجون، فيصلي العشاء منفردا أو خلف الامام، ويسري الى بيته الخاص حيث ينام .

ذلك ديدنه وشأنه كل يوم . وله في كل حركة من حركات يومه طريقة خاصة. فهو يجيء في الصباح من بيته الى قصر الحكم راكبا يحف به بضعة من العبيد والخدم ويعود في الليل ماشيا وبين يديه عبدان من عبيده والمضايفي (الحاجب) سعد

وله في القاء يده لمقبليها حركات يدهش لها من لا يعرف أسرارها ومعانيها. ولا أدري إن كنت أستطيع وصفها او يخونني البيان ، فمن هذه الحركات :

١) أن يلقي يمناه على العادة المألوفة المعروفة فيقبلها المقبل ويجلس أو يمضي .

٢) أن يبسط يده ثم لا يمكن مريد تقبيلها منها بل لا يكاد يلمسها ذلك حتى ينتزعها منه انتزاعا

٣) أن يبسط يده ولا يجعل لمقبلها سبيلا الى غير أصابعها فيقبل الاصابع

٤) أن يلقي يده للمقبل وبينما ذلك آخذ بها في يده يقبض جلالته بكفه على يد المقبل

٥) أن يمدّ يده جاعلا باطن كفه الى وجه المقبل فيقبل الباطن

٦) أن يعطي المقبل باطن كفه وحينما يشرع هذا بالتقبيل يقبض جلالته على وجهه بيده

٧) أن يعطي المقبل باطن كفه ثم يقبض على وجهه ويطبع على لحيته قبلة

٨) أن يعطي المقبل باطني كفيه فيأخذ هذا بالتقبيل بينما جلالته قابض بيديه على وجهه

٩) أن يزيد على الطريقة السابقة قبلة من لحية مقبل يده

١٠) ان يجعل يده على ركبته ، فيقبلها القادم بادئا باليد ثم بالركبة.

وهناك فروع ثانية منشأها هذه الاصول. وقد يوهم جلالته من يعطيه يده على الطريقة الثانية أو الثالثة أنه إنما يمنعه تقبيلها احتراماً له أو إكباراً والحقيقة ان الاولى دليل الكراهية والمقت، والثانية دليل العتب واللوم، كما أن الثالثة والرابعة والخامسة من ادلة الرضى، ويزيد الرضى في السادسة ثم في السابعة والثامنة، وما بعد التاسعة زيادة لمستزيد. أما العاشرة فللبدو ولمن يؤذن له بالدخول من العامة.

ورأيت في الاشراف من يتناول يمين صاحب الجلالة فيقبلها ثم يتناول اليسرى فيقبلها ثم يرتفع بفمه الى رأس الملك فيقبل طرف عمامته ثم ينحدر الى ركبته فيقبلها ويتراجع فيجلس حيث يؤمر.

..

وليس للداخل أن يختار الكرسي الذي يجلس عليه، فان الملك يكفيه مؤنة ذلك، اذ هو يشير اشارة خفية، بيده أو بعينيه، الى المكان اللائق به، قريباً منه أو بعيداً عنه، على الكرسي أو على المقعد، فيجلس.

وتقديم القهوة للزائرين عادة جارية، ولكن جلالته قد يطلب الشاهي [1] في بعض الليالي فتدور الاكواب على الجلوس جميعاً. ولم أر أحداً من خاصة الملك وأضيافه يطلب الماء في حضرته، بل ربما خرج أحدهم متسللا فشرب وعاد.

وجلالته صاحب الحديث في مجلسه، فهو يفتتح الكلام أدباً أو سياسة أو تاريخاً أو فكاهة أو وصفاً لحادثة شهدها أو رحلة رحلها أو عادة غريبة رآها، وكثيراً ما كان يحدثنا بما اتفق له الاطلاع عليه من أحوال اليمن ونجد والجزيرة. وقد يروقه كتاب فينتدب أحد الجالسين لقراءته أو قراءة فصل منه. ويدور على لسانه كثير من آي القرآن الحكيم فربما طلب تفسير آية فينهض أحدنا الى بعض كتب التفسير مما هو في خزانة غرفته فيراجعه ويحل الاشكال، كذلك يفعل في السيرة النبوية وبعض حوادث التاريخ الاسلامي المشهورة. وفي خزانته هذه نخبة صالحة من كتب التفسير والحديث والتاريخ والادب.

---

(١) اهل الحجاز جميعا يقولون شاهي كأنهم ينسبونه الى الشاه، واري هذه التسمية أقرب الى الصحة من كلمة الشاي التي لا معنى لها.

ولا يستحب لاحد الجالسين عنده أن يقف بغتة حين يريد الانصراف ، بل السنة المتبعة في حضرته أن يستمر زواره ، يحادثهم ويحادثونه ، الى أن يرغب بانصرافهم ، فيصمت صمتاً غير معتاد ، فيدرك القدماء في مجالسته رغبته بفض المجلس فيغمز بعضهم بعضاً ، أو يتطوع أحدهم فيسأل جلالته الاذن بالانصراف ، فيجيبه بكلمة « مرحبا » فينهض الجميع ، يقبلون يده ، الواحد بعد الآخر ، ويخرجون .

وهو اذا كره انساناً أو غضب على انسان لم يسمح بذكره في مجلسه بل انه ليسكت المتعرض للكلام عليه قائلا : لا ، لا ، لا يا ابني ! كفى كفى ! ويشير بيده كانما يدفع شيئاً عن وجهه . ويفعل مثل ذلك حين يريد اسكات متكلم في غير ما يروقه .

وهو لا يملّ العمل ولا يسأم الاشتغال في شؤونه وشؤون بلاده ، فبابه مفتوح في كل وقت لكاتبه الخاص السيد احمد السقاف ، يأتيه بالرقاع الصغيرة مفتولة محكمة الفتل ، فيأخذها منه وينشرها رويداً رويداً ، ممعناً في سطورها وكلما قرأ سطراً طواه الى ان يأتي على آخرها ، فيأخذ القلم — والدواة قريبة منه — فيوقع ما يتهيأ له او يصلح ما يراه في انشائها ان كانت « مسودة » ويلقيها الى الكاتب فيذهب ، وقد يعود بها بعد تبييضها فيمضيها جلالته . ويرى بعضهم ان التقارير ترفع اليه على هذه الطريقة ، فربما كان في بعض الرقاع ما هو من ذلك النوع .

وجلالته لا يرى للوزارات سلطة ، بل أكثر ما يكتبه يوجهه الى الملوك مباشرة . ولا ينحصر اهتمامه في كبير الامور بل هو يهتم لصغارها ككبارها ، ولقد حدث أن جاءني كتاب من صديق لي في دمشق يخبرني فيه أن الافرنسيين أغلقوا مدرسة الفيحاء الحسينية ، وهي مدرسة أهلية للبنات ، ويعلل صديقي اغلاقها في أن سببه تسميتها بالحسينية . فقرأت الكتاب على جلالته ، فغضب له وأخذ القلم فكتب برقية الى الملك جورج ولقبه بصاحب الحشمة والجلالة البريطانية ، لافتاً نظره الى عمل الافرنسيس في سورية واغلاقهم مدرسة الفيحاء الحسينية لانتسابها اليه . وأمر بترجمتها فترجمت الى الافرنسية ، فوضعها في ظرف وختمه بيده وامضائه وبعث به الى مدير البرق والبريد . ولا أعلم ما كان الجواب .

ويضاف الى هذا النوع القاوه التبعة في ما يكتبه عنه أحد الافراد في احدى البلاد ، على الملك المنسوبة اليه تلك البلدة . فهو يعتب على ملك مصر اذا نشرت صحيفة مصرية طعنا في الحجاز ، ويعتب على ملك الانكليز اذا تعرضت صحيفة انكليزية لانتقاد أمر في الحجاز . يقيس ذلك كله على ما له وحده من النفوذ المطلق في بلاده ورعيته . ويرى للملوك في ممالكهم ما يراه لنفسه من السيطرة على دقيق الامور وجليلها ، ويعجب من ملوك الغرب كيف يمكنون العمال في بلادهم من الاعتصاب او الاضراب بل يخيل اليه أن ذلك ضعف كامن في نفوس القابضين على زمام الامور هنالك وربما عده جهلاً منهم في السياسة والادارة ، وعمى عن سبيل الاخذ بالحزم والارهاب والشدة . .

وله هوى في تقليد الخلفاء ، فتراه يتنكر في بعض الليالي ويطوف ازقة مكة واسواقها ، يتسمع ما يتحدث به اهلها ويبصر ما هم صانعون ، وتراه لايبالي بالأبهة والعظمة والمظاهر بل يؤثر السكون ويظهر الزهادة ويلبس لباس النساك . وفي مكة من حدثني ان عدد من كان يخدمه من العبيد وغيرهم في عهد إمارته كان يفوق ضعفي عدد من يخدمونه اليوم . وقد عرض ذكر ذلك في احد مجالسه فأشار الى ما معناه : كنا نطمح الى ما هو بعد الامارة ، وكنا نزاحم الولاة ، واما الآن فلا هذا ولا ذاك .

..

وتتفق له حوادث ماأعلم في التاريخ شاهداً عليها ، مثال ذلك : وقفنا عشية يوم لصلاة المغرب معه ، وتقدم إمامه ، فاقام الصلاة وهمّ بالتكبير ، فاذا فتى قد أقبل ملقياً نفسه على قدمي الملك يقبلها ، فنهاه عن عمله وأنهضه . وصلينا جميعاً وخرجنا فجلسنا في غرفة الانتظار والفتى معنا يحمل سبحة طويلة في يده ، ورأيت في نفسي قوة تدفعني الى التحديق به بعد أن سمعت صوته ، فجعلت اتساءل في نفسي : من يكون هذا الشابّ ، المعتدل القامة ، الابيض الوجه ، الأشقر اللحية ، المتظاهر بالعبادة ، المكثر من التسبيح ، المتشبه بالمتصوفة في حركاته وسكناته ؟ ؟ كأنني أعرفه . ولكن أين رأيته ؟ خانتني الذاكرة . فسألته ممن القادم ؟ قال : من أهل الجزائر . وأعقبها بقوله : الله الله ! فعجبت لامره ، وعدت فسألته : ومن أين الآن ؟

قال : من القسطنطينية . . وعاد الى التسبيح . فقلت : اما زرت سورية ؟ قال : اقمت مدة في بيروت ، سبحان الله سبحان الله . . فقلت واين كنت في بيروت ؟ قال : في المدرسة العثمانيـة ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . وهنا صحوت فقلت : اسمك يا أخي ؟ قال ابو الغيث . قلت : البلغيسي ؟ فقال : نعم . . ونظر الي بملكه العجب . فقلت : اطمئن ولا تعجب ، أنا فلان . فقال : لم أعرفك . وهو يعرفني حق المعرفة . فقلت : لا بأس ! ودعينا للطعام فأكلنا ، ثم جاء اذن الملك بالدخول عليه ، فدخلنا . ومضت خمسة أيام وصاحبنا يصلي المغرب ويتعشى ويسمر معنا وينصرف بعدنا ولا نعلم من أمره شيئاً . وقد سألته عن مكان مبيته وأين يقضي نهاره لازوره او يزورني فأخبرني أنه في القصر نفسه ، ولم يزد . . وفي الليلة السادسة جاء فابتدأ الكلام على غير عادته وحدّثنا ان جلالة الملك قد أمر بقطع جواز له بالسفر الى بلاده (الجزائر) وجعل يكرر الدعاء للملك مبتهجاً مغتبطاً وسافر قبل أن يودّعنا او نودّعه . وانكشف الامر بعد سفره فعرفت مادهشني وراعني . . ذلك أن الملك تناول كتاباً من الآستانة جاءه في الباخرة التي حملت صاحبنا وفيه أن البلغيسي موفد الى مكة لغاية غير صالحة . فطلبه الملك فقبضت عليه شرطة مكة وهو متعلق باستار الكعبة ، وزج في القبو . . فكان يمكث فيه ليله ونهاره مقيداً مغلول اليدين والرجلين ، ويطلق عشية كل يوم فيصلي مع الملك ويتناول الطعام مع خاصته ويسهر بعض الشطر الاول من الليل في مخلواته ، ثم ينزل به الموكل في حراسته الى قبر الاحياء وقرارة الشقاء . . الى أن مرت بجدة باخرة فأمر الملك باخراجه من أرض الحجاز فأخرج .

ليس في حبس المشتبه به أو المتهم عجب ، ولكن العجب كله في ما كان عليه هذا السجين من التقلب كل يوم بين النعيم والجحيم ، بين الاكرام والايلام ، بين الحياة والموت ، بين الجنة والنار . . من مخلوات الملك الى سجنه ، ومن ضيافته الى دار نقمته ! . . فهذا مالم أدرك سره ، ولم يفتح عليّ بمغزاه ، وعلمه عند الله !

. : .

أما مايعتمد عليه الملك حسين في الحجاز فقوتان . إحداهما « القوة النظامية » والثانية « القوة البدوية » واليك شيئاً من التفصيل عنهما :

القوة النظامية — تلبس لباس الجند المعروف وتعيش العيشة العسكرية المعروفة ، اكثرها من ابناء سورية والعراق ، وفيها قليل من اليمانيين والحجازيين . يقودها ضباط فيهم من تلقوا علومهم الحربية في مدارس الترك العثمانية وفيهم من جعلهم نشاطهم وإقدامهم في ميادين الحرب ، ايام الثورة ، ضباطاً وقادة . ومرجع هؤلاء وكيل الحربية . ولهم شارات عسكرية انفردت ببعضها حكومة الحجاز وهي :

للملازم الثاني	نجمة
للملازم الاول	نجمتان
للزعيم (اليوزباشي)	ثلاثة نجوم
لوكيل القائد (قدملي يوزباشي)	تاج
للقائد (بيكباشي)	تاج ونجمة
لقائم المقام	تاج ونجمتان
لامير الالاي	تاج وثلاثة نجوم
لامير اللواء	سيفان ونجمة
للفريق	سيفان ونجمتان
للمشير	سيفان وثلاثة نجوم

ورتبة المشير أرفع الرتب في الحجاز .

والقوة البدوية — تختلف في اوضاع تدريبها واستخدامها وحياتها عن القوة العسكرية ، ولها في كل ذلك نظم واساليب خاصة . فالخدمة العسكرية غير اجبارية في الحجاز وانما هي من نوع ما يسمونه « التطوع » وليس على الجندي البدوي ان يبيت في ثكنة او يتمرن في معسكر الا في أيام الحرب . وعمله في السلم ان يشترك مع من تطوع من ابناء عشيرته في المحافظة على الامن ضمن حدودهم ، حتى اذا حدث حادث فيهم ، من تعرض لعابر سبيل او نهب او سلب ، كانوا هم المسؤولين عنه وعليهم تبعته . وللجلالته في كل عشيرة من عشائر الحجاز جند من هذا النوع يحفظون الامن في ايام السلم ويلبون الدعوة في ايام الحرب . وطريقة انخراطهم في سلك الجيش ان تكتب اسماؤهم في السجل بمكة ويعطى كل واحد منهم بندقية ثم يجري له مرتب شهري يقبض في آخر كل شهر نصفه ويحفظ له الباقي

كضمانة على أن لا يفر ولا يتخلف عن الاجابة حين يدعى وليس لهذه القوة ضباط ولا رتب عسكرية عالية ولكن الملك يجعل لهم عرفاء ونقباء منهم. وقد رأيت جماعاتهم تفد على مكة في اوائل الشهور تتقدمها الطبول، وفيها الفارس والراجل وصاحب الراحلة، فتوزع عليهم المرتبات ويبيتون ليلة على مقربة من القصر، ثم ينقلبون على أعقابهم.

∴

وللملك حسين موسيقى خاصة، كانت للاشراف من امراء مكة قبله، يقال إنها في شكلها الحاضر قديمة العهد، وسمعت بعضهم ينقل ان أول من كانت له ابونمي، وبقيت تعزف لكل من يتولى امارة البلد الحرام. وهي مؤلفة من خمسة طبول وثماني نقارات وثلاثة مزامير. يحمل كل طبل رجل، وكل نقارتين رجل وكل مزمار رجل، ويصطف هؤلاء الاثنا عشر عازفاً أمام دار الحكم، كالحلقة، يلبسون لعملهم هذا لباساً خاصاً احمر اللون ورديا، ويعزفون عصر كل يوم وعشاء كل ليلة، خلا عصر الخميس وليلة الجمعة. وليس في أنغامهم جديد بل ان لهم تلحيناً خاصاً هم مستمرون عليه، محافظون على نبراته ونقراته، يتوارثونه عازفاً عن عازف!

ولهذا التلحين ضجة وجلبة. ومن يألف سماعه لايعدم أن يجد فيه شيئاً لاأسميه طرباً ولكنه أقرب الى الطرب.

وقد كانت لوالي الحجاز — في أيام الترك — موسيقى عسكرية كغيرها مما في مصر والشام، بقيت بمكة حتى الآن. وهي تضرب يومي الثلاثاء والسبت من كل أسبوع أمام بيت الملك، قبيل الغروب.

∴

ولأبناء جلالة الملك مع أبيهم أسلوب خاص في المكاتبة. أما هو فيكتب «ولدنا فلان» ويوقع باسمه «حسين» وأما بنوه فكان خطابهم له قبل تمليكه من نوع البرقيتين الآتية صورتاهما بالحرف الواحد كما رأيتهما:

الاولى: من جدة في ١٠ تشرين الاول ٣٣٠ (رومية) الى مكة

سيدنا وسيد الجميع

ج — العمور ماعندنا منهم أحد، آل دبيع توجهوا. المملوك: فيصل

والثانية : من جدة (بالتاريخ السابق)

مستعجلدر . سيدنا وسيد الجميع

ج — الدرب بعناية الله محفوظ وقصدي الليلة أنتقل على قوس عسى الله يطرحهم في يدينا .
المملوك : فيصل

وأما بعد التمليك فهم يخاطبونه بجلالة ولي النعم ، والمنقذ الاعظم ، وصاحب الجلالة الهاشمية ، ومايشبه ذلك .

∴

ولجلالته عناية عظيمة بجريدة القبلة لسان حاله والمعبرة عن آرائه وافكاره . تداول تحريرها وادارتها بضعة ادباء معروفين ، أولهم السيد محب الدين الخطيب الكاتب القدير ، وثانيهم الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر الكبير ، وثالثهم الشيخ الطيب الساسي من أفاضل المغرب . ولايزال تحريرها منوطاً بالساسي الى اليوم . ومديرها الآن الشيخ حسين الصبان من أهل مكة ويرجع الى أصل مصري . ولجلالة الملك مقالات كثيرة فيها يعرفها قراؤها باسلوب كتابته الذي لا يتغير ولا يتبدل . وهو كثير الرجوع الى ماأشتملت عليه مجلداتها من أخبار وأفكار . وله ولوع بمطالعتها والتمثل بأقوالها ، حتى انه ليذكر غير القليل من مقالاتها . وطال ما كان ينتهي بنا الحديث الى موضوع فيقول : كتبت القبلة في هذا ، وكان رأيها كذا ، واليكم العدد . ثم يأمر بحمل مجلد السنة الاولى أو الثانية أو غيرها اليه ، فيؤتى به ، فلا يصعب عليه الاهتداء الى مايطلب ، بسرعة عجيبة .

∴

ولا اراني في حاجة لأن أقول إنه هو كل شيء في الحجاز ، ومرجع كل أمر ، دقّ أوجلّ ، وليس ماهنالك من موظفين ومستخدمين ووكلاء وشيوخ ومديرين وعسكريين وحكام ، إلا أشباحاً وشخوصاً لاسلطان لها ولا رأي ولاحول ولاقوة ، بل هو صاحب الرأي والكلمة في السياسة والادارة ، وفي البدو والحضر ، وفي الجند والضباط ، وفي المحكمة والسجن ، وفي المطبعة والجريدة ، وفي البلدية والشرطة ، وفي البرق والبريد ، وفي المكس والجباية ، وفي كل مالايتسع المجال لذكره .

وأثر في نفسه اختلاطه باذكياء البداة وشعرائهم الفطريين فنظم « الحميني » وهو نوع من شعر البدو، يأتي في بحث « أدب البداة » الكلام عليه وشيء من نظم جلالة الملك فيه . وأظن للملك نظماً من المعروف عندنا ، ولكنني لم أطلع على شيء منه ولم يتهيأ لي أن أجرأ على سؤاله أو استنشاده ، وانما أدركت ذلك من وقفة لي معه يوم قدم مكة ابنه الامير زيد ، فقد نظمت قصيدة وصفت فيها ما تكابده سورية من شقاء الاحتلال ووجهت القول في خلالها الى جلالة الملك فقلت :

يا ابن بنت النبيّ أرهقنا العسف ، فجرد له الحسام الرقيقا
بالذي شاد « كبكبا » « وثبيراً » وأحاط الهداة « بيتاً » عتيقا
بالصفا ، بالحجون ، بالركن ، بالكعبة ، لب الصريخ واقض الحقوقا !
إن في الشام أمة لا تطيق الضيم ، تأبى لها العلى أن تطيقا !
اوسعوها تعلة ووعوداً وسقوها من الخداع رحيقا !
أنذرونا بالموت ، ما أعذب الموت اذا كان للحياة طريقا !
مكروا جهدهم بنا ، وليأبى — المكر الا باهله أن يحيقا ..
أور في « جلق » الكئيبة زنداً وأقم للطعان في « الشام » سوقا !
أمطر القوم بالصواعق حتى لا ترى أعين العداة البروقا !
إن للباطل اضطرابا على الحق — وعقباه ان يكون زهوقا ..

فكان يقول بعد أكثر أبياتها : لبيك لبيك ! ويهتز ويتألم ، حتى أشفق عليه من شهده تلك الساعة . وبعد أن اتممتها تلاوة قال : والله لقد هممت أن أجيبك عليها شعراً لولا ما يحول دون ذلك من الشواغل الكثيرة .. والتفت الى رئيس تحرير جريدته « القبلة » وهو الشيخ الطيب الساسي فقال : أجبه ياشيخ طيب . أجبه ! .. وصدرت القبلة بعد يومين وفيها القصيدة والجواب عليها بضعة أبيات من البحر والقافية عنوانه « لبيك لبيك » وهو بلا توقيع .

جولة في البادية

يعثر من عاشر البدو ولو قليلا ، وخالطهم ولو أياماً ، على عادات وتقاليد وخواص لا يتمالك من أن يستغربها أو يستطرفها . وفي بادية الحجاز كثير من هذا النوع كنت أودّ لو جمعت فيه مجلداً كاملا اتحف به قراء هذه الرحلة ، فان البداة هم البداة في كل عصر وجيل . يتطور المجتمع وتنقلب الدول وتكثر المخترعات ويتقدم الانسان ، وهم اولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر ، تغمزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات ، وتأبى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا القهقرى فاذا سجاياهم سجاياهم ، وأخلاقهم اخلاقهم ، كأنما جبلوا من طينة اسمها « سنة الله » لا تحويل لها ولا تبديل !

وهم على انفرادهم في خلالهم وعاداتهم انفراداً أوشكوا أن يكونوا فيه أمة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها . فقد يشاركهم في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كان كثير الصلة بهم أو قريب العهد في مساكنتهم ومعاشرتهم من أبناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ولا سيما قطان القرى في الحجاز أخص منهم قرويي الطائف فان جلهم بداة يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خير زروعهم لا من لبن ضروعهم وفي هؤلاء من يغزو ويغزى كأصحاب المضارب لا فرق بين الفريقين الا أن ساكن القرية أحرص على الاشتغال بحرث ارضه واستغلالها وساكن بيت الوبر أولع بالمغازي واحتياز الاسلاب بقوة الساعد

∴

ولقد قيدت اشياء مما رأيت من البدو ، وما سمعت عن البادية ، في جولتي القصيرة هذه ، لعل بها ما يحسن نقله ، إن لم يكن للتاريخ والتدوين فللفكاهة والمسامرة . ولم أر فائدة في التبويب والتنسيق فأطلقت الحديث مرسلا ، وميزت كل خبر بعنوان يدل عليه .

(١)

الفراسة

الفراسة في اللغة صدق النظر ومنه حديث « اتقوا فراسة المؤمن » وفي القبائل الكثيرة النزول في الطائف قبيلة تدعى « فهماً » مشهورة بهذه المزية ، قد يستعان بها في حل المعضلات ، ومنازلها جنوب تهامة . اخبارها غير قليلة يتناقلها الناس معجبين .

منها أن عنزاً سرقت من فهم وهي صغيرة (يسمونها جفرة ، وهي تسمية صحيحة) ومضى على فقدها نحو سنتين الى أن كانت فتاة فهمية مارة بالطائف يوماً ، فابصرت الجفرة وقد أصبحت عنزاً فعرفتها في حين انها غير موسومة — ولكل قبيلة وسم خاص تعرف به ماشيتها ، الا أن هذه سرقت صغيرة قبل أن توسم — فأقبلت الفهمية على اصحاب الجفرة تخبرهم بانها رأتها ، فرفعوا القضية الى حاكم الطائف وهو في ذلك الحين الشريف زيد بن ناصر فاستحضر من هي عنده فقال انه اشتراها جفرة وكبرت عنده وولدت . فبحث عن بائعها له فجيء به بعد ايام وهو من سكان البادية فأخبره بانها كانت كسبا من فهم في اغارة له عليها فأمره برد القيمة الى مشتريها منه ، ودفع العنز الى صاحبها الفهمي ، وعجب من معرفة الفهمية لها بعد تلك المدة .

(٢)

قص الاثر

قص الاثر في اللغة تتبعه ومنه الآية الكريمة (فارتدا على آثارهما قصصاً) وفي القبائل القريبة من الطائف اليوم قبيلتان مشهورتان بمعرفة آثار الناس وغيرهم وهما «وقدان» و« الكباكبة » . فأما وقدان فمنازلها على مسيرة ساعة شرقي الطائف الى الجنوب ، واما الكباكبة فمنازلهم شداد واطرافها من سفوح جبل كبكب الذي سبقت لنا كلمة عنه . وهم يسمون قص الاثر « الجرة » ويرجعون الى هاتين

القبيلتين في كثير مما يعضل عليهم الاهتداء اليه، وقد تستحضر الحكومة احدهم في السرقات الخفية، فينظر في أثر قدم السارق، فيؤتى بمن يشتبه بهم فيحدق في آثار أقدامهم فيخرج اللص منهم. وقد أصبح ما يقوله الكباكبة والوقدانيون حجة عند عارفيهم لتكرر صدقهم وتعدد اصابتهم حتى انهم في ما يقال لم يعرف عنهم الخطأ مرة!

(٣)

فمن أخبار الوقدانيين ان تاجراً كان في الطائف يدعى عثمان شافعي أصبح يوم ٩ من شهر الحج فرأى دكانه قد خرقت وأخذ ما فيها من أمتعة ودراهم وحلي، وكان الحاكم الشريف زيد وهو في مكة اذ ذاك، فرفع الرجل قضيته الى وكيله فأمر بالبحث والتنقيب. أما عثمان صاحب الدكان فعاد من ساعته، ودعا وقدانياً، فجاء ورأى شيئاً من أثر القدم فغطاه بوعاء وانصرف الى السوق يرى أقدام المارة ثم عاد فأطال النظر في الاثر وغطاه، والحكومة تبحث فلم تعثر للسارق على خبر ولم يهتد الوقداني اليه، وحضر الشريف زيد بعد أيام فحدث بالقضية فاهتم لها ولم يظفر بجدوى فيئس صاحب المال. وبعد أن مضى على الحادثة نحو شهرين ولم يبق للاثر أثر، كان الوقداني ماراً في سوق الطائف فرأى رجلا ولمح أثر قدميه (جرّته) فعرف الجرة، وتقدم فتثبت منها وأسرع فنادى شرطياً راجياً منه أن يعرفه باسم الرجل فقال: حسن بن عبيد. فاخبر الشريف زيداً بأن السارق في السوق الآن فدعا به فجلب فاستنطقه فكان جوابه أنه يوم تاسع ذي الحجة كان في عرفة يابي مع الحجاج، وأثبت ذلك بشهود ثقات، فكاد الشريف أن يطلق سراحه لولا أن الوقداني أصر على أن هذا هو سارق الدكان دون غيره، فرأى الشريف ان يسجنه ثقة منه بآل وقدان، وشدد عليه فاعترف السارق وأخرج السرقة من مكان دفنها فيه، واتضح أن السرقة كانت قبيل الساعة الرابعة عربية من الليل وأنه أسرع من فوره فوصل عرفة صباحاً فاختلط بالحجاج! والمسافة بين عرفة والطائف ١١ ساعة للراكب اذا لم يجلس للراحة في مكان..

(٤)

ومن أخبار الكباكبة أن رجلا من أهل الهدة ضاف عنده جماعة من هذيل فتظاهر بالنوم معهم حتى وثق من هجوعهم فنهض ساريا كالبرق الى جبل كبكب فسرق بندقا (خرطوشا) وعاد قبيل طلوع الصباح ولم يشعر بغيبته احد ممن كانوا عنده. واصبح الكبكبي فشعر بفقد البندق فأسرع الى قص جرة السارق فتعقبها الى أن بلغ الهدة والمسافة نحو ٢٥ كيلو متراً بين جبل وسهل ووعر فنظر في الجرّة فاهتدى اليها واوصلته الى دار الرجل، فدعا من في الدار قائلا: هذه جرّة من؟ - فسئل عن غايته، فحدث بما وقع له فخرجوا جميعاً فقبض على السارق بعد ان رأى آثارهم وقال: هذا غريمي! فشهد الضيوف الهذليون بانه كان نائما معهم. ورفعت القضية، فبرأت الرجل شهادة أضيافه. ثم عرفت القصة بعد حين.

وأخبار هذه القبائل الثلاث: فهم ووقدان والكباكبة، غريبة كثيرة، كلها على نسق ما تقدم. ولو أن في رجال البوليس السري من يعلم علمهم لاكتشف كثيراً من الجرائم دون ما تعب أو نصب!

(٥)

الختان في هذيل

من غريب هذيل الحجاز في ختان ابنائهم انهم يختنون الغلام بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة، وهم يجتمعون قبل الختان فيلعبون بالسيوف ويتسابقون على الاقدام والغلام معهم حتى يكون يوم الختان فيتقدم المراد ختنه ويأخذ سكينا فيشحذها جيدا، ويكونون صباح ذلك اليوم قد ذبحوا كبشاً على صخرة، ولوثوا الصخرة بدم الكبش، فيأتي الغلام والسكين في يده فيرتقي الصخرة، ويناول الخاتن السكين وهو يقول: طهر يامطهر وجوّد التطهير!

ويعطى الغلام سيفين يأخذهما بيديه فيبدأ الخاتن يكشط له جلدة العانة كلها الى موضع الختن — وهي عملية جراحية شديدة الايلام والخطر — ويظل المختون

يلعب بالسيفين في يديه و ينشد قصيدة من شعرهم يحفظها قبل الختان . ويعدون اكبر العار على الفتى المختون أن يتألم أو يتململ فينعتونه بانه « رخمة » اي ذليل ومن ظهر عليه التألم ابت الفتيات ان تتزوج به . وقد يحضر الختان أحد أعداء الفتى أو مزاحميه في زواج فتاة فيحد شفرة له أو رمحا فيخزه في رجله كي يتألم فينسب اليه الى جراحة الختان . فاذا وقع لاحدهم هذا صبر على الوخزة ودعا قومه بكل ثبات جأش لرؤية ما علق بقدمه فيخرجونه ان كان شفرة أوغيرها وهو بين يدي الخاتن كانه لا يشعر بشيء وكثيراً ماتنشأ الفتن بين القبيلتين أو أفراد القبيلة الواحدة من أجل هذا .

(٦)

مواكبهم

اذا أرادت طائفة من احدى القبائل الكبيرة ان تسير في موكب لغزو أو لحاجة ، تقدمت الخيالة حاملة الرماح ، متمنطقة بالشلفات ، ثم تتلوها الهجانة (راكبة الهجن وهي نوع من الابل في اصطلاح البادية معروف) والهجانة لا تحمل الرماح وانما تربط على ميامن ابلها بندقياتها ، ويتوسط الجمع علم القبيلة او القوم ويبدأون سيرهم بأن يصيح فيهم صائح بكلمات سمعتها ولم أفهمها فيصوتون جميعاً كالهتاف ويعلو صوت شاعرهم أو حاديهم قائلا « يا لا لا لا ، لا لالي ، يالالي » فتعيدها الهجانة ، ثم يأخذ بالنشيد على نغمتها ووزنها وهم يرددون مايجعله كاللازمة من الانشودة والاغنية ، ويتلوهم ضاربو الدفوف من العبيد أو غيرهم ، ينقرون على دفوفهم بما يوافق الحداء .

(٧)

ركوب الرماحة

يسمون الرمح المريش والمريوش ، لريش يوضع تحت سنانه . ويعاب على حامل الرمح اذا أراد ركوب فرسه أن يعمد الى صخر او حجر فيرتقيه ليتمكن من اعتلاء الفرس — وأكثر خيلهم لا ركاب لها — وانما عليه ان يركز الرمح في

الارض بخفة ولباقة ، ويتكيء عليه بيمناه أو بيسراه قافزا الى ظهر الفرس ، والرمح في يده . ثم يعتدل في ركوبه مستعينا به اذا جمح جواده او تقلقل هو فوقه . وقل أن تجد في فرسانهم من لا يقفز الى ظهر الجواد فياصق به لا ركاب له ولا متكأ .

(٨)

صبرهم على الالم

البدو أصبر الناس على الالم . روى لي في مكة أحد ملازمي الامير عبدالله أنه خرج يوماً لقتال ، حتى اذا اشتبكت القنا بالقنا ، اصابت رصاصة بدوياً كان معه فدخلت من صدغه الايمن وخرجت من الجانب الايسر من أنفه وقلعت عينه في مرورها ، فسقط البدوي عن ذلوله حين شعر بالاصابة فشرد ذلوله منه فالتفت الى ما حوله محدقاً بالعين الثانية اين ذهب الذلول ، حتى رآه ، فعدا خلفه كالظبي الى ان ادركه فركبه وعاد والدم يقطر من وجهه فقال له الامير متعجبا : أما منعك الالم من رؤية ذلولك والجري وراءه ! فقال البدوي : يا أمير يكفيني خسران عيني أتريدني اخسر العين والذلول معا !

(٩)

الوضع

لا تزال في عرب البادية خاصة القدرة على وضع الاسماء لكل ما يرونه ارتجالا ، وقد كنت اعجب من قصة سليمان البستاني مع الاعرابية في بادية العراق حين ارادت الاستغاثة به ورأت على عينيه نظارتين فصاحت به : يا ابا المناظر ادركني !

وبينا أنا جالس يوماً للطعام بمكة وحولي رجال من البادية لم ينزلوا الحواضر الا قليلا ، عرفت ذلك من هيئاتهم ونظراتهم واستغرابهم كل ما يرونه ، اذ جيء باللحم والارز فأكلوا بأيديهم ما شاؤوا وهم يحسبونهما كل شيء . فقال لهم عارف بهم : اننا معاشر الحضر لا نأتي بالطعام دفعة واحدة بل نجعله انواعاً ونجلبه

شيئًا فشيئًا. فرفعوا أيديهم عما امامهم، وجيء بالصحن الثاني فالثالث فقال أحدهم: وي، تجلبون الطعام دلف! — يريد تباعًا — قالها من دون ان يفكر أو يتأمل. وأراها لفظة يحسن بنا ان نجعلها بدلا من الكلمة التركية الشائعة بيننا « قالدر » وشتان ما هما. والدلف في اللغة أن تمشي مشي المقيد.

وعرب الحجاز منذ عرفوا البرقية (التلغراف) سموها السلك على اسم السلك الذي يحملها فهم يقولون « جاءني اليوم سلك من فلان » وهو كقول العرب الاقدمين « جرى النهر » يريدون ماء النهر و « أنبت الربيع البقل » يريدون ماء الربيع. والآية الكريمة « واسألا القرية » أي أهل القرية. فيقال في « جاء في السلك » اي خبر السلك، أرى هذه التسمية أقرب الى الاذهان من كلمة « البرقية » الشائعة بين ادبائنا منذ سنين كثيرة ولم تدخل حتى الآن في اسماع العامة التي ألفت لفظ التلغراف فلا تعرف غيره

وأهل الحجاز كافة من بدو وحضر لا يعرفون ما يعرفه أهل الشام ومصر من كلمتي « بز السيكارة » و « الفم » الاسمين لما توضع فيه لفافة التبغ. بل اسمه عندهم « الممص » وهذه أفضل لولا أنهم يضمون الميم الاولى. كما انهم لا يفهمون ما نفهمه نحن من كلمة « قلم رصاص » لانهم يسمونه « المرقم » وهذه التسمية أفضل وأجمل. وهناك كلمات واسماء كثيرة غير هذه ليت من يتسع له وقته في تلك البقاع، يجمعها ويعرضها على الناس

(١٠)

الرياح

سمعت عرب الطائف يقسمون الرياح الى نوعين : الاصائل ، والاركان. ويعنون بالاصائل الرياح التي تخرج من احدى الجهات (الاصلية) : الشرق والغرب والجنوب والشمال. ويعنون بالاركان الرياح التي تخرج من زوايا الجهات الاربع.

فتنقسم الرياح عندهم على هذا الى ثمان ، على الشكل الآتي :

ركن	شرق	ركن
جنوب		شمال
ركن	غرب	ركن

ويسمون رياح الاركان بالنكباء ، وهي مؤذية . يخشونها . واما الاصائل فمنعشة نافعة للجسم والنبات .

(١١)

ناقة الأعرابي

من أجمل ماسمعت البداة يحلفون به قولهم « وحياة نياقي » يلفظون القاف كافا معقودة كما يلفظها سائر أهل الحجاز والعراق . وهذه اليمين عندهم من أشد الايمان، تعرف منها منزلة الناقة في عين الاعرابي !

(١٢)

الثلاث البيض

الثلاث البيض مقدسة عند عرب البادية يستبيحون دم من يمسها او ينكص بها وهي كما يسمونها : الضيف السارح ، والطنب السابح ، وخوي الجنب .

فالضيف السارح : الضيف الذي نزل على احدهم وأكل عنده وسرح . فان قتله احد في طريقه وجب على مضيفه ان يأخذ بثأره ، فيقتل قاتله ، أو يقتل احد أقرباء القاتل ، غدراً اومقابلة ، أو على أي شكل كان . ولا يؤاخذه مؤآخذ .

والطنب السابح : يعنون به طنب الخيمـة الممدود ، وهو كناية عن الجار

الملازم لجاره ملازمة الطنب (وهو حبل الخباء) للخيمة . يعنون بذلك وجوب المحافظة على الجار والدفاع عنه والاخذ بثاره إن قتل ، ولا يؤاخذ الجار اذا قتل قاتل جاره ، ولا دية عليه .

وخوي الجنب : الرفيق وعندهم أن من سار معه البدوي سبع خطوات أصبح « خويّـه » ووجب عليه ان يقاتل معه ويحميه ولو كان قاتل اخ له .

∴

ولهم عناية عظيمة ، وأنظمة خاصة ، في الثلاث البيض . منها أن من خفرت ذمته بان قتل له جار أو ضيف أو خوي (مؤاخ) واعيـاه الوصول الى القاتل ليقتله به أو اعجزه الاخذ بثاره ، رفع شكواه الى كبير عشيرته فان كان القاتل من قبيلة أخرى ذهبوا الى تلك القبيلة واخبروا شيوخها بالامر طالبين منهم أن يساعدوهم على « النقا » وهو عندهم الاخذ بالثار . وعلى الشيوخ أن يقدموا لهم القاتل أو أحد أقربائه فيقتلوه به أمامهم ، ثم يعود الآخذون بالثار فيدعون اشياخ تلك القبيلة ويقيمون لهم وليمة ، ويرفعون أعلاماً بيضاً خاصة معروفة لديهم ، اشارة الى ان هذه القبيلة بيض الله وجهها قد اعانتهم على الاحتفاظ باحدى الثلاث البيض . ومتى جاء موسم الحج يقف أحدهم في عرفات فيسمي تلك القبيلة باعلى صوته ويحييها على وفائها . وكذلك ان كان القاتل من قبيلة المضيف فانه يحدث شيوخ قبيلته بالخبر ، وعلى أهل القاتل ان يحضروه ليقتل أمامهم أو يحضروا احد اقربائه ليقتل بدلا عنه . وكثيراً مايقتله أهله افتخاراً بانهم يحافظون على عهود الثلاث البيض .

وقد يتبادر الى الذهن أن المقصود بالثلاث البيض هو الخوي او الضيف او الجار من ابناء الحضر . وانما هي عامة شاملة لكل محتم أو لاجيء من اي قبيل كان ، حضرياً أو بدوياً .

ومن قواعدهم أن الضيف السارح لا تصح عليه هـذه التسمية مالم ينزل ويأكل من طعام المضيف ولو لقيمات من الخبز (ويسمونه العيش) اما من جاء فطلب ماء او لبناً (حليباً) فشرب الماء أو الحليب وسرح فلا يعدونه ضيفا ولا يعنون بشأنه بعد مفارقته لهم .

واشعرائهم في الثلاث البيض والفخر بالاحتفاظ بها ، اشعار رقيقة المعاني منها قول شاعر من قبيلة الثبتة (وهي فخذ من عتيبة) :

يا البيض لا لا حدّ صبحه ما مشيتي ولا مشيتي من بلاد اليا بلاد
والبيض فال اللي نقوا ، وانا الثبيتي والمردفـه ما هي كما وسق الشـداد

ومعناه :

ايتها النسوة البيض لولا حد هذه الشفرة (وهو يسمي شفرته اوشلفته صبحة) لم تستطيعي ان تمشي من بلاد الى بلاد ، ولي فال من وصفكن بالبيض . فان البيض تبشر بانها فال الذين يأخذون بالثار ، وأنا الثبيتي الذي تعرفنه . وليس آخر الرحل كمنتصفه : اي ليس كل الرجال سواء ! — والمردفة آخر الرحل الذي يعلوه المردوف ، ووسق الشداد وسط الرحل —

(١٣)

اليد اليمنى

للعرب عادة هي ان لا يجوز لاحدهم تقديم شيء من طعام أو شراب الى احد بغير اليد اليمنى . واتفق اننا مررنا برجل من كبارهم على مقربة من الطائف فاحتفى بنا واكرمنا بالقهوة والشاهي فنهض أحدنا ينوب عنه في تقديم الفناجيل (وهي الفناجين عندنا ويسمون الفنجان الفنجال) فأبى مضيفنا إلا أن يكون هو الساقي لنا ، فأصررنا على ان يكون أحدنا فامتثل . وتقدم رفيقنا فأخذ الابريق بيمناه والفناجين بيسراه (كما هي العادة في اكثر البلاد لسهولة الصب باليمين) فانكر عليه صاحب البيت عمله ، وقال : ان العرب لا تسقي باليسار وانما تحمل الابريق بيسارها وتقدم الفنجان بيمينها .

(١٤)

الاوهام

الخرافات والاوهام قليلة الشيوع في بادية الحجاز . وهم لا يعرفون ما يقوله عوام سورية والعراق وغيرهما عند خسوف القمر وكسوف الشمس من ابتلاع الحوت !

وقد خسف القمر ليلة ونحن خارج الطائف على مقربة منه ، وقد جلسنا مع احدهم فجرى حديث القمر لنرى ما رأيه فيه ، فلم يكترث ولم يهتم ، بل قال : « اظنه تحول عن مركزه » !

ولم نسمع أثراً للضجة التي تقوم في بلادنا عادة عند وقوع مثل هذا الحادث ، بل خسف القمر خسوفاً أقرب الى الكلي وعاد الى حاله الطبيعية بعد ساعتين ولم يتحدث بشأنه أحد غير من هناك من ابناء العراق وسورية .

(١٥)

شجعانهم

سألت بعض العارفين باخبار القبائل عن أشجع عتيبة وثقيف اليوم ، فقالوا : ضاعت الشجاعة بعد وجود البندق !

قلت : فهلا يمتاز في الحيين أحد عن الآخر باقدامه ؟ قالوا : بلى ، ان كنت تريد ثبات القلب في الوقائع ففي القومين عدد كبير !

وتابعت البحث فعلمت أن اولئك الذين تضرب بهم العرب أمثالها في العصر الحاضر أكثرهم قد ماتوا . منهم فاجر بن شليويح من قبيلة الروقه (من عتيبه) روى لي من سمعه يعدّ اسماء من يذكرهم من قتلاه فاذا هم اثنان وستون . ومات قتيلاً في احدى غزواته سنة ١٣٣٥ هـ

ومنهم ناصر بن عقيل من الدعاجين (من عتيبة) قتلته قحطان نحو سنة ١٣٣٠ هـ

(١٦)

ابن حميد المقاطي

من أشهر فرسان العرب ودهاتهم في العصر الاخير محمد بن هندي بن حميد المقاطي (بالكاف المعقودة كسائر القافات) من قبيلة المقطة (وهي قبيلة واسعة الديار تمتد منازلها من شمال تهامة الى قرب نجد) وهو من سكان الغطغط بين نجد والحجاز .

كان فارس عتيبة في تلك الأنحاء وكبيرها مات سنة ١٣٣٣ هـ ، هوى به بعيره فقتله . لم ينفرد بالشجاعة بل عرف ايضا باصابة الرأي ورجاحة الحلم وهيبة المنظر . اخبرني رجل ادركه وعرفه ، قال : زار ابن حميد والدي يوماً فجعلت اطيل النظر الى جراح رأيتها في عنقه وصدره فاستدناني منه فدنوت فكشف قميصه وقال : انظر . فنظرت فاذا جراح هائلة عدتها ستة وثلاثين كلها قد اندملت .

وكان مع الشريف (الملك) حسين في رحلته الى نجد على أثر توليه امارة مكة . فأنعم عليه ببندقيتين فحملهما الى بعض أصحابه ينظر اليهما ويعجب منهما، اذ لم يكن سلاحه غير السيف والرمح . فأخذ أصحابه يعلمونه كيف يطلق البندق (الرصاص) وتناولهما بين يديه يطيل التأمل فيهما ساعة ثم القاهما وقال : لا حاجة لي بهذا !

وله في ذم البندقيات ويسمونها « الموارت » و« المواريت » جمع مرتينه :

ضرب الموارت ما بها ناموس حذفة شرود من بعيد
عليّ قضب عنانها والراس والله يدبر ما يريد
عليّ باللي تبعد المرواس والعمر لازم انه يبيد !

— قضب العنان في لغتهم امساكه جيدا . والمرواس ميدان الخيل وشوط جريها . يقول : ما في ضرب البندقيات من فخر فانه اطلاق شرود من مكان بعيد ، وانما علي أن أضبط عنان فرسي ورأسها ويدبر الله ما يريد ، عليّ بالفرس التي توسع الميدان ، وأما العمر فلا بد من ان يبيد . .

(١٧)

من اخباره

اخبار ابن حميد ووقائعه كثيرة تذكرنا بما كانوا يحدثون به عن شجعان العرب في الجاهلية . وكانت بينه وبين قبائل قحطان في أطراف نجد عداوة متأصلة حتى انهم نذروا مئة ناقة لمن يأتيهم به قتيلا او جريحا أو أسيرا

فمن وقائعه معهم انه سرى ليلة في نحو ثلاثين من رجاله في اراضي قحطان فدهمهم نحو خمسين خيالاً قحطانيين فلم يأبه لهم وأشار الى من معه ان يردوهم ،

فارتد فرسانه للقتال وظل في سيره لا يبالي بالامر ، راكبا ذلولا وسلاحه مع عبد له يقود فرسه خلف الذلول . واشتد القتال وثبت القحطانيون فوهن المقاطيون (جماعة ابن حميد) وقتل منهم عدد فانهزموا لا يلوون على شيء وغنم مقاتلوهم كل ما معهم من الابل والحمول وخيل القتلى . والتفت هو فرأى تشتت اصحابه فنادى عبده ، فلم يجده ، وكان قد ركب الفرس وذهب يقاتل ، فحار ابن حميد في امره لا فرس له ولا سلاح في يده ، وأدركته الخَيل بوابل رصاصها ، فقتل ذلوله ، فترجل وابتدر مختبئاً اختفى فيه عن العيون ، حتى هدأت ثائرة القوم فتغلغل في الجمع وقد تلثم يريد أن يسمع أخبار أصحابه ابن ذهبوا فاعترضه شاب من القحطانيين ودعاه باسمه ، خافت الصوت ، فلم يجبه ابن حميد فكرر النداء ثانية وفي الثالثة قال : يا ابن حميد أنت آمن ! فأقبل عليه حينئذ فعرفه وكانت لابن حميد يد على هذا الشاب منذ سنين . فدله القحطاني على الموضع الذي لجأت اليه خيالته واعطاه ناقته وقال اسلم بروحك . فخرج ابن حميد راكبا فلم يبتعد حتى اعترضه رجل من قحطان عرفه فدنا منه راجلا وصاح مبتهجاً : ابن حميد يا آل قحطان ! وضرب ابن حميد بشلفة اصابت يده اليسرى فسلها ابن حميد باليمنى وضرب بها الرجل فقتله وسلبه شلفتيه ومشى مسلحا لا يبالي حتى التقى بمن بقي من رجاله ، فركب فرساً واخذ سيفاً وانتقى اثنى عشر فارساً ، في خيولهم قوة ، وقسمهم ثلاثة أقسام أربعة منهم معه واربعة يغيرون على القوم من اليمين واربعة يغيرون من اليسار وأمر هؤلاء الثمانية أن يتريثوا حتى يسمعوا صوته في الجمع . وأغار هو ، وعلا في القحطانيين صوت ابن حميد فلم يصبروا غير قليل وتفرقوا ناجين بأرواحهم وقتل طائفة منهم واستعاد أمواله وسلبهم اموالهم واتجه حذراً حتى بلغ حدود عتيبة فأمن . اهـ

وكان ابن حميد اذا أراد الكلام نطق به متمهلا لا يفوه بالكلمة قبل التأمل بها . ولا يصنع هذا تكلفا بل هو طبيعة فيه .

(١٨)

تحيتهم

التحية فيما بينهم تختلف صيغتها ، وأكثر ما يقولونه لا غريب فيه . اما تحيتهم لذوي المكانة الرفيعة ، فهم اذا اقبل احدهم على الملك قبل يده وركبته ، واذا اراد تحية احد الامراء قبل يده وربما قبل ركبته . وأما تحيتهم للاشراف فقد رأيت بعضهم حين يرون شريفا يريدون السلام عليه يتقدمون الواحد يتلوه الآخر فيبدأ الرجل منهم يقبل لحية الشريف من الجانبين ، ثم يقبل عقاله فوق جبهته ثم رأسه ، وينحني بعد ذلك على يده فيقبلها ، ويبتعد . ويعقبه الثاني وهلم جرا

ومن قواعدهم ان راكب ما دون الفرس والبغل اذا اراد السلام على راكب الفرس يبتدئه قائلا : كرمت ، السلام عليكم . وان كانوا جماعة قال : كرمتم ، السلام عليكم . وبعضهم يكتفي بلفظ السلام فقط . ويريدون بلفظ كرمت او كرمتم الاعتذار عن انه غير مساو لراكب الفرس أو ما يماثلها

واذا أراد أحدهم النهوض من عند آخر قال الناهض للباقي مودعا : « في أمان الله » فيجيبه الآخر « مرحبا » ولا يختص عرب البادية بهذه بل تجدها في الحجاز كله ، وهي أفضل معنى من قولنا في سورية « خاطركم » والجواب « مع السلامة » فان قول المودع « في امان الله » يريد ان يقول ادعك في أمان الله ، وقول المجيب « مرحبا » يريد : تجد سعة ورحبا حيث اتجهت .

(١٩)

القضاء

من تتبع أخبار القضاء في بادية الحجاز وعرف طرائقه وأساليبه أعجب به كل الاعجاب ورأى انتظاماً محكماً وقوانين متوارثة تتفق مع عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم في حياتهم الاجتماعية . ومن الخطأ أن يظن ظان ان قبائل العرب في البادية مطلقو السراح ، ملقى حبل كل منهم على غاربه ، بل إن هناك محاكم وقضاة أشبه بمحاكم

الحضر وقضاتهم فترى القاضي الابتدائي والاستئنافي والتمييزي كما نسميه نحن ، وهم لايعرفون هذه الاسماء ، إنما يعرفون ان هذا القاضي دون فلان مكانةً ، وفلاناً دون فلان ، فربما رجعوا الى الاول في القضية فان فصل بينهم بما يرضي الفريقين ويقنعهما اكتفوا به ، وإلا رفعوا القضية الى من هو أرفع منه ، فان لم يرو غليلهم قصدوا القاضي الاعلى (وهو كالتمييز) لايردون له حكماً ولا يعدلون عما يقضي به أرضاهم أو أغضبهم .

(٢٠)

طريقة المحاكمة

وطريقة المحاكمة في القبائل أن يتقدم المتداعون إلى القاضي فيقدم له كل من الخصمين شيئاً كخنجر (جنبية) أو بندقية أو بندق (رصاص) وقلّ فيهم من يقدم الدراهم لأنهم لايرونها جديرة بمقام القاضي . وبعد ذلك يدنو أحد الخصمين أو النائب عن أحد الفريقين ، فيرفع قضيته ويذكر ماله من الحق وأدلته عليه ويسمي شهوده . وبعد انتهائه يدنو الثاني فيدافع عن نفسه بما يكون لديه من الحجج والبراهين ويبدأ القاضي بعد أن يسمع أقوالهما ، فيسأل اسئلة تتعلق بموضوع القضية حتى يتبين له الحق فيعتدل ، ويقول : وضح الصواب — أوحصحص الحق — وقع مثل قضيتكما هذه في زمن فلان فقضي فلان بكذا ، ووقع مثلها في زمن فلان فقضى فلان بكذا وانا أقضي بينكما بما قضيا به ، ويفوه بحكمه الحاسم للخلاف .

ولا يقبل من القاضي حكمه مالم يذكر للحادثة نظيرين من حوادث العرب ، ويؤيد الحكم بمثالين من الوقائع الماضية . وعندها يأخذ المحكوم له ماقدمه الى القاضي خنجراً أو غيره ، ويأخذ القاضي ماجاء به المحكوم عليه كنفقات محاكمة أو أجرة .

والاجدر بالقاضي عندهم اذا تكلم ، ان يلتزم السجع في كلامه ، فلا ينحط الى درجة العامة بل يرتفع عنها ، ليكون لقوله التأثير المطلوب في المتداعيين .

(٢١)

قضاة عتيبة و ثقيف

قبائل عتيبة كلها ترجع في قضائها الاخير (التميز) الى آل هليل . وهم قبيلة منهم تتداول القضاء بالارث ، لايدرس أحدهم الحقوق في الجامعات ولا الكليات بل يتفقه في بدء نشأته بشيء من علوم الدين ، ثم يتلقى أخبار القضاة عن أبيه أو عمه القاضي ، ويصغي الى احاديث القضاء فيحفظ كثيراً من الوقائع اوالشواهد التاريخية القضائية عندهم ، حتى اذا انتهى اليه الامر كان حلاّلا للمشكلات كشافاً للمعضلات . وقضاء عتيبة الأعلى في بادية الحجاز منحصر اليوم بالشيخ تركي بن هليل ، وقوله القطع . وفي قبائلها عدة قضاة تختلف درجاتهم ولا يرجع الى أحد فيهم بعد ابن هليل ، وقد يماثله في درجته ابن دخين وهو من قبيلة الثبتة احدى بطون عتيبة . ولكن بني هليل أوسع شهرة وا كثر قصاداً :

وأما ثقيف فقد أصاب رابطتها شيء من الوهن على أثر شحناء قامت بين بعض فروعها فهي تكاد كل قبيلة منها ترجع الى شيخها وربما بلغ عدد شيوخ القضاء فيها الآن خمسة عشر شيخاً .

(٢٢)

الشعر في المحاكمة

كثيراً مايتكلم المترافعان بالسجع أو بالشعر ، فاما النثر فامثلته غير قليلة ، وأما الشعر فاليك نبذة منه :

اختصم ثلاثة رجال من ثقيف أحدهم يدعى حمدان القمش والثاني ديبان والثالث نافع ، في قضية، ثم انحاز نافع الى رأي ديبان فذهب حمدان وديبان الى الشريف فواز بن ناصر وهو في الطائف يرفعان اليه أمرهما ، فلما سألهما عن الشأن تقدم ديبان فقال مرتجلا :

ياسيدي أنا جيتك أشكي ... واهمّ في محضارك أبكي !
منقوص ، والمنقوص منكي ... إليا قرع من غير صايب

فاجاب حمدان :

ياسيدي ديبان علكي ! يبغى العرب يغدون هلكي
من دون حوض الحق مركي وميراد له شبا وشايب !

فقال ديبان :

ولد القمش بالزور يحكي وبوه وهابي وشركي
يبغى الرضى يمشي بسمكي ! وفي الحق اخذنا بالنهايب . . !

فقال حمدان :

نافع رضي وأعطيت ملكي وأصبحت ويا القوم شبكي
بالملح والمصبوب سبكي وعاننا الله في الغلايب !

قال راوي الحديث : فأمرهما الشريف ان يجلسا فجلسا وقد سر منهما . ثم أصلح بينهما واجازهما بجائزة حسنة .

تفسير الغامض في قوليهما :

(المنقوص)من سلب حقه . (واليا)اي واذا . (وقرع) اي أنذر . (وغير صائب) اي بغير حق .

(علكي) متعلل منحرف عن الحق . (مركي) متكي : يريد ان خصمه معتمد على غير حوض الحق . (ميراد له الخ) أي مع ان ذلك الحوض - حوض الحق - هو مورد الشيب والشبان . (والميراد) المورد .

(السمكي) نوع من النقود الجاوية . (في الحق) اي وفي الحقيقة . (اخذنا بالنهايب) أي انه قد أخذنا نهبا .

(الملح) البارود في عرفهم . و(المصبوب) الرصاص . و(السبك) نوع من الرصاص عندهم .

(٢٣)

القسم في المحاكمة

تختلف نصوص الاقسام واشكالها عند عرب البادية في محاكماتهم. فمن أشكالها أن يتحاكم المترافعان فمن انكر كانت اليمين عليه طبقاً لما في الشريعة السمحاء، ومنها ان تكون القضية تتعلق باشخاص متعددين، كقبيلة او فرع من قبيلة، فيقف خمسة وعشرون رجلا منها، على شكل هلالي يتقدمهم قليلا كبيرهم فيقسم أولهم قائلا « والله العظيم » ويعيدها الثاني « والله العظيم » فالثالث والرابع الى أن ينتهوا كلهم ولا يبقى غير ذلك المتقدم، فاذا وصل اليه المحلف زاد على قولهم (والله العظيم) قائلا : ان القضية كيت وكيت.

هذا ان كانوا متفقين على شهادة او فكرة واحدة، واما ان كانوا مختلفين فينقسمون ويحلف كل منهم على ما رأى او ما علم.

واما نصوص الاقسام عندهم فأكثرها مسجع فصيح، فقد يقول احدهم نافيا ما أسند اليه : « والله الواحد القهار، ما أنا لهذه الدعوى خبار » وقد يقول في تبرئة نفسه : « بحق باري البرية، قاطع المال والذرية، ان ذمتي من هذا برية » أي بريئة، وان كان يتكلم عن جماعة قال : « ان ذمتنا من هذا برية »

(٢٤)

الامارة في شمر

من غريب ما سمعته عن عشيرة شمر وهي أكبر عشيرة في نجد كالرولة في بادية الشام، ان اميرها اذا قتل او مات أسرع الناس الى صعود منبر منصوب في احدى بقاع نجد يسمونه « المثبر » فأول من يصل اليه ويتمكن من صعوده ينادي بأعلى صوته : ياناس ! يابني شمر ! مات الامير ! الحكم لي ! — فيولونه امارتهم ولو كان من أضعف بطونهم، ومن عصاه يقتل بلا دية ولا قود. ولم أتثبت من صحة هذا النبأ، لما بيني وبين نجد من البعد.

(٢٥)

يحاربون عراة

رأيت البدو يبالغون في العري أحياناً فظننت ذلك باديء الامر لشدة الحرّ في
بادية ثم علمت من خبرهم عجباً !

يعتقد ابن البادية ان الرصاص لا يقتله اذا دخل جسمه لان اطباءهم يخرجون
رمية من الاضلاع بمهارة اعتادوها تتحملها أجسامهم ، ويرى ان الرصاصة اذا
صابته وكان عليه ثوب ادخلت معها قطعة من ثوبه في جسده ، فاذا اخرجت البندقة
بقيت القطعة الملتهبة من الثوب فتتعفن وتمرضه ثم تقتله ، فلهذا يفضلون العري اذا
حلوا محتاطين لقتال ينشب بينهم وبين أحد في سبيلهم . اما اذا ارادوا اقتحام
معركة فانهم يتجردون من القميص ويستتر اكثرهم بقطعة ضيقة من القماش يربط
وسطه ويضع فيها مقدارا يسيرا من الارز حتى اذا طال أمد القتال واشتدجوعه
خرج شيئاً منه وهو وراء مترسه فيأكله نيئاً ويطحنه بأضراسه .

(٢٦)

الحمى

قرأت في « اتحاف فضلاء الزمن » نبذة هذا مجملها :

. . وفي ١١ شوال سنة ١٣٣٩ هـ حدث أن فخذاً من عتيبة يقال لهم الثبتة منازلهم
رب الطائف نزلوا بالحوية وهي حمى لآل طويرق من ثقيف ، فشكا الطويرقيون
رهم الى الحاكم فركب ومعه خيال من الترك وعبد ، فلما وصل اليهم سألهم عن
ولهم في حمى طويرق فاعتذروا بانهم لم يعلموه حمى ولو عرفوا لتجنبوه . فقبل
رهم وحل عندهم ضيفاً وشرب قهوتهم على أمل ان يحل القضية صلحاً . واتفق أن
ده اعتدى على بدوي منهم ، فقتل البدوي ، فنهض اخ له فقتل العبد واتسع الخرق
ى اضطر امير مكة يومئذ الامير عبدالله أن يحضر الى الطائف فجاء واصلح ذات البين .

قال صاحب الاتحاف : والحمى في عرفهم أن القبيلة من العرب تأتي الى احدى
هات وتبذر فيها الحنطة او الشعير فتكون تلك الارض حمى لها لا يمسها احد غيرها
دامت زروعها مقبلة فاذا ادبرت المزارع ابيحت الارض ويسميها بعضهم « الركيزة »

(٢٧)

حفاة

البدوي لا يلبس الحذاء ولا يستطيع ويحق له ذلك لكثرة جبال هذه البلاد ومنحدراتها ومزالقها ، فهو حاف أبداً ومثله المرأة البدوية . وقد كانوا يعجبون منا جد العجب اذا رأونا نصعد جبلا او نهبط من مرتفع وفي أرجلنا أحذية الحضر « الكنادر أو البوطات » فيطيلون التأمل فيما تحمل أقدامنا !

واعترضني أحدهم في انحدارنا من جبل كرا فقال : كيف تمشون بهذا ؟ قلت : تعودنا . قال : وتركضون ؟ قلت : وكيف لا ؟ قال : تسابق ؟ . . وشمر عن ساقيه فقلت : أما هذا فلا !

(٢٨)

الوان ابلهم

البدو هنا لا يلفظون همزة الابل ، يقولون « البل » . وابلهم منها ذات اللون المعروف الضارب الى الحمرة ويسمونها « الحمرا » ومنها نوع يضرب الى البياض ويسمونها « المغاتير » ومنها ما يضرب الى السواد أو هو اسود حالك كالغراب ويسمونها « الدهاميم » وهي قليلة في بادية الحجاز لم ارها .ولا يكون البعير الواحد ذا لونين بل هو ذو لون واحد . وقد شوهد جنس من الابل غريب جيء به الى الملك بعد النهضة ، مرقش ، يشبه في لونه بقر الوحش ، او النمر ، غير أن بقعه كبيرة وليس في الحجاز شيء منه ، وقد شغلتهم الحروب عن توليده في باديتهم .

(٢٦)

انواعها

والابل هنا نوعان : جبلية وسهلية . والاولى أشد وأصبر على الجوع والظمأ وهي دون الثانية جسوما وضخامة ، ولكنها أصلب وأحمل. وا كثر الابل في بادية

مكة من النوع الاول القوي . ومن أمثالهم « القوة في القلوب لا في الجنوب » يريدون ان القوة ليست في ضخامة الجسم وعرض الجوانب .

(٣٠)

الآركيات

في بادية مكة نوع غريب من الابل يسمونه « الآركيات » أكثر ما تقتات به الاراك وهو عيدان السواك ، ويسمونه الارك (بسكون الراء) ومنه احراج كبيرة في ظاهر مكة شديدة الاخضرار حتى أيام انقطاع المطر . ويقولون ان الابل الآركيات اذا منع عنها الاراك اربعا وعشرين ساعة هلكت . ويؤيد هذا أن أكثرها يتخذ للنقل بين مكة وجدة (مسيرة يومين للجمال) وقد رأيت رعاتها يجعلون في احمالها شيئا من الاراك فاذا أطعموها جعلوا قليلا منه في طعامها . وقد يطعم احدهم راحلته « الآركية » سواكه ، إذا لم يجد غيره من الارك (الاراك) فتأكله وإن كان يابساً .

(٣١)

الهيام

من الامراض المشهورة عندهم في الابل « الهيام » وهو أن يشرب البعير أو الناقة من الماء الراكد الفاسد فينتفخ طحاله فلا يلبث أشهراً حتى يموت فجأة . وهذا المرض مخوف على ابلهم جداً لقلة الماء في الحجاز وهو سريع العدوى بالاختلاط أو بشم الصحيح بول المصاب ويسمونه « المهيوم » . واذا تدورك المصاب بعد المرض بايام معدودات أمكن شفاؤه وذلك بان يطعموه الحمض (وهو نوع من النبات يكثر عندهم في أيام المطر والخصب) فان أطعموه منه بعد ستة أيام شفى . وهناك نبات آخر يعرفونه يشفى المصاب من الابل بأكله قبل مرور تسعة أيام . ونبات آخر يشفى به قبل انقضاء اثني عشر يوماً . وان زادت مدة المرض على هذه الايام

يئسوا من شفاء المصاب . وحكومة مكة تعاقب بشدة من تجد عنده مصاباً بهذا الداء ، وتكافيء من يخبرها به بخمسة مجيدات (نحو ٤٠ قرشاً مصرياً) تؤخذ ممن يوجد عنده . وهي تذبح حالا كل ما تجد من هذا النوع الا ما يؤمل شفاؤه فتعزله منفردا وتأمر بمداواته .

(٣٢)

بياطرة الهيام

وفي بادية الحجاز وتهامة رجال معروفون بالعلم في هذا المرض ومداواته ويمتازون بمعرفة المصاب عند رؤيته أو شم رائحته كما انهم يعلمون مدة مرضه ، فحين ينظرون اليه بامعان يذكرون منذ كم أصيب . والحكومة تستخدم بعض هؤلاء « البياطرة » في عداد أطباء الحيوانات وتجري لهم المرتبات كسائر موظفيها اذ هم يعينونها على حل كثير من المشكلات التي تنشأ بين أبناء البادية القريبة من العاصمة . وهؤلاء — بياطرة الابل — لا يتلقون علمهم بالدرس بل بالنظر الطويل والممارسة يتوارثونه سلفاً عن خلف . ومن تستخدمه الحكومة منهم تجرّبه قبل استخدامه حتى تتأكد من براعته ثم تحلفه الايمان المغلظة على أن يصدق ولا يتسرع ولا يمالئ ولا يحابي في جميع ما يحكم به . وهم يعرفون مدة مرض المصاب من الابل عقب ذبحه الى اربع ساعات اما بعدها فتتعذر عليهم معرفة المدة . والى هؤلاء البياطرة ترجع الحكومة في حل قضايا الابل المهيومة مثلا : ادعى فلان أمام الحكومة انه اشترى ناقة من فلان منذ شهرين واتضح له أخيراً أنها مصابة بالهيام منذ ثلاثة أشهر فذبحها وهو يطالب بائعها له بقيمتها فترسل الحكومة احد بياطرة الهيام (بفتح اوله) أو اثنين منهم فان صح ما يقوله حكمت على البائع بالتعويض وإن كان مرض الناقة بعد شرائها فلا يؤاخذ البائع . وقد حدث شيء من هذا وأنا في مكة .

(٣٣)

الخيل تحمي الابل

وعندهم أن صاحب الابل لا بد له من الخيل خصوصاً إن كان من سكان السهل لان الابل لا تحمي نفسها من الغارات وانما يحميها فرسانها . ومن أقوالهم في الخيل « بطونها نار وظهورها عار » أي ان بطونها كالنار تلتهم كل ما يدخلها أو كانها تحرق الطعام احراقاً ، كناية عما يحتاج اليه صاحبها من وفير النفقات . وأما ظهورها فيرون ان على الفارس حماية فرسه من أن يلحق بها العار اذا فر أو سقط عنها في المخاوف . وقد يفسرون كلمة العار في هذا المثل بمعنى الحريم والعرض فيكون المعنى : وظهر الفرس عرض الفارس لان العار في اهماله .

(٣٤)

الجرة

الجرّة - بفتح الجيم - من أشهر العابهم في الطراد والرمي . وهي ان يضعوا جرة مملوءة ماء في مكان وتمر الفرسان في طرادها راكضة خيولها حتى تحاذي الجرة من اليمين أو اليسار على بعد مئة متر تقريبا فتلوي نحوها رؤوس الخيل العادية كالبرق الخاطف وتطلق رصاص البندقيات باشد ما يكون من السرعة والخيل تضطرب من كبح جماحها ، فيصيبون الجرة من ذلك البعد . وانما اختاروا جرة الماء لان شهود الرمي البعيدين يرون اندلاع الماء من الجرار ويسمعون دوى صوتها حين تصاب فيهتفون للرماة . وبذلك سميت هذه اللعبة من الرمي باسم « الجرة » وأكثر لاعبيها يجيدونها فيندر فيهم من يخطيء الهدف .

(٣٥)

من امثالهم

من أمثال البادية « لا تحاذف راعي معز ولا تصارع راعي بقر ولا تسابق راعي ابل » لان الاول يضطر دائما الى رمي ماعزه بالحصى وغيره ليجمعها فيقوى

ساعداه ، والثاني يكثر من تحويل البقر وسوقها فتقسو عضلاته ، والثالث يتبع إبله ويرد ما يشرد منها فيشتد على الجري .

ومن أمثالهم « اللي يبغي الشر يصلح شوره » أي : من أراد الخصام فليصلح رأيه .

(٣٦)

الجهات الاربع

يختلف أهل بادية الحجاز عن غيرهم في تسمية جهتين من الجهات الاربع ، هما الشمال والجنوب ، فيسمون الشمال « شاما » والجنوب « يمنا » لوقوع بلاد الشام في في شمال الحجاز ، وبلاد اليمن في جنوبه ولا يختص البدو في هذا الاصطلاح بل يشاركهم فيه أهل الحواضر وفيهم العلماء والأدباء . وقد اتفق لي بعد الاوبة من الطائف ان تذكرت أمراً فاتني البحث فيه هنا لك وهو ما تعدّه حكومة ذلك البلد اليوم حدوداً صحيحة (رسمية) له ، فكتبت الى قاضيه الشيخ عبد الله كمال اسأله بيان ذلك فأجابني بكتاب يقول فيه : « بلغت سلامكم حضرة أمير الطائف وأطلعته على محرركم ، وهو يبلغكم السلام ، وتذاكرت معه في الكلام على حدود الطائف حسب مرغوبكم فما رأينا أحسن من حدوده المعلومة المذكورة في التواريخ وهي أن يحده شرقاً وادي لية ، وغرباً وادي قرن ، وشاماً لقيم ويمناً الوهط . . الخ » فاذا هو يسمي الشمال شاماً والجنوب يمناً كما يسميهما البداة . وفي أهل الحجاز أيضا من يسمي المشرق « المبدا » والمغرب « المغيب » فتكون عندهم الجهات الاربع : المبدا والمغيب والشام واليمن . يعنون : الشرق والغرب والشمال والجنوب .

(٣٧)

الجيش

يفهم ابن بادية الحجاز من كلمة الجيش غير ما نفهمه نحن . فهو يسمي ركبان الابل الجيش ، وقد يقول : جاء الجيش . فتلتفت فترى قطاراً من الجمال . وأما القوة العسكرية التي نسميها نحن بالجيش فاسمها في البادية « اقوم » .

(٣٨)

سلمت

كان قدماء العرب يقولون للعاثر : لعًا ! وأهل مصر اليوم يقولون : ياساتر ! وأهل الشام يقولون : الله ! وأما في الحجاز فقد أعجبني قولهم للعاثر : سلمت !

(٣٩)

فصول السنة

فصول السنة في بادية الحجاز خمسة ، يزيدون على الاربعة المعروفة فصلا خامساً هو « القيظ » ويلفظونها بالضاد (القيض) فيكون العام في عرفهم : الربيع اربعة أشهر ، والصيف شهران ، والقيض شهران ، والخريف شهران ، والشتاء شهران .

(٤٠)

المدعى عليه

قرأت للسيد محب الدين الخطيب فصلا في جريدة القبلة بعث به من الطائف قال فيه :

« ومن أعجب ما علمته أن المدعى عليه قد يكون في أقصى البادية ، على مسيرة أيام من الطائف ، فاذا طلب المدعي استدعاء خصمه أخذ الامير [١] عصا ووسمها باشارة وأرسلها مع المدعي الى المدعى عليه ، فاذا عرضها الخصم على خصمه لم يستطع ذلك أن يتأخر عن حضور مجلس الحكم ساعة واحدة .. »

---

(١) يريد امير الطائف وكان يومئذ الشريف حمود بن زيد

ادب البداة

قضت الامية السائدة في بادية الحجاز على ركن عظيم من اركان الأدب هو الانشاء ، وناب عن الخطابة في سكانها ما رزقته ألسنتهم من حسن البيان ،وأصبح الشعر وحده هو المظهر البارز من مظاهر الادب ، فاذا بحثنا في آدابهم فانما نريد الشعر المألوف نظمه عندهم اليوم وما يتعلق به من معرفة أوزانه وتفسير كلماته وطرق روايته وأخبار قائليه ، ولكل من هذه الابحاث شواهد نأتي عليها في مواضعها ان شاء الله

الماضي والحاضر

ما كانت لتصح المقابلة بين أدبي العرب في ماضيهم وحاضرهم، لولا وجوه شبه لا تزال مرتبطة بها حلقات السلسلة بين الاسلاف والاخلاف ، على ما بينهما من شاسع البون وواضح الفرق .

وليس من الخطأ في شيء أن يقول قائل إن عرب الجاهلية وصدر الاسلام وما بعد هذين العصرين اللذين أينعت فيهما ثمار الادب والشعر ، وأتت قرائح أبنائهما بالمعجب والمطرب ، لم يبرحوا يراهم من يرى عرب هذا الجيل، في الكثير من عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم وآدابهم الا ما فقدوه وهو الخسارة الكبرى أعني الاعراب في لغتهم والاحتفاظ بفصيح البيان في منظومهم ومنثورهم ، فهذا مالا مجال للمقابلة فيه بين العهدين .

أما الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنه اللسان ، فانه لم يزل مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالابداع فيه عن الحواضر ، دع ما بين سكان المدن وسكان الخيام ، من الفرق في قدرة الاول على الاختراع ، وقوة الثاني في الوصف والصنعة .

يقف الشاعر البدوي اليوم ، فيسامر الآثار ، ويصف السحاب ، وينعت الجبال ، أو يحن الى حبيب ، أو يبكي لفراق ، أو يرثي كريماً ، أو يمدح عظيماً ، فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوي الذي كان يقصد عكاظاً قبل أربعة عشر قرناً ، حاملا في صدره ما قال من وصف أو حنين أو رثاء أو مديح .

وبالجملة فان الشاعرية الفطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم ، ولا أرى ما قد يراه سواي من انتقاص هؤلاء أو بخسهم أدبهم لشيوع العامية فيهم أو لاعتمادهم عليها في شعرهم ، فما كان الشاعر الجاهلي لينطق بغير اللغة الشائعة المتداولة في أيامه وما كان - ولن يكون - من الانصاف أن نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره ، بلغة غير لغته التي تلقاها عن أمه وأبيه وعشيرته وأهليه . فالبدوي الجاهلي قبل الاسلام ، والبدوي المعاصر من أبناء هذا العهد ، سواء من حيث الافصاح والابانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة . فما كان ذلك بالمتكلف إعراباً غير إعرابه ، فنكلف هذا ، وما كان ذلك بمتلق عروض الخليل اونحو سيبويه فنعيب على هذا اجتنابهما .

على أن من يكثر من سماع شعر البادية في عصرنا الحاضر ، وينعم النظر فيه لا يعدم العثور على كثير من مبتكر المعاني والتشابيه مما لو أعرب ونسج على منوال ما ألفناه من الاوزان لرأينا فيه حسنات غير يسيرة .

ولئن عد من أعظم خصائص الشعر في الجاهلية تأثيره في النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد ، وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لاغير .

ذلك لان شعر البدوي اليوم يؤثر في عقول البداة كما كان يؤثر شعر الجاهلي في الجاهليين ، وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلدها شعر ابن تلك العصور الخالية ، ولو أقبل أهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلا ، على تدوين شعر البداة ، لحفظ لهم تاريخ هؤلاء كما حفظ تاريخ اولئك ، ولما ذهب ضياعاً ما لمجاورينا في صحرائهم من خبر أو أثر أو معنى مبتكر .

بل لو ولع العربي في هذا الزمن باخبار بداة العرب في الازمنة المتأخرة بعض ما كان له من الولوع باخبارهم قبيل العصر الاسلامي و بعده بقليل ، لاضطر الى رواية شعر هؤلاء كما يروي شعر أولئك ، ولاضيف الى الادب العربي أسلوب جديد اختارته هذه البداوة كما اختارت ذلك تلك ، ومعاذ الله أن أقول باحلال هذا منزلة ذاك أو بالرضى عن قبول هذا الادب المشوه بالعجمة واللحن ، يتغلغل بين حنايا الادب الصحيح ، أدب العرب الخالد ، فان في ذلك لجناية على لغة القرآن وسهماً في كبد البيان .

وإن المختلط بالبداة اليوم ليعجب مما لبضاعة شعرهم فيهم من الرواج ، وايراهم في تعلقهم بها واقبالهم عليها يفوقون الحضر في عنايتهم بشعرهم الصحيح وأدبهم القويم .

ينظم الشاعر المبدع من أهل مصر أو سورية أو العراق القصيدة ، وينشرها في احدى الصحف ، مشكولة كلماتها ، مفسرة ألفاظها ، موضحة معانيها ، ثم ينظر اليها عن بعد يترقب ما يكون لها من الاثر في نفوس القوم ، فاذا قارئوها ثلاثون في المئة من قراء الصحيفة ، وفاهموها عشرة في المئة منهم ، ولا يحفظها واحد في الالف .

ويرتجل الشاعر البدوي القصيدة ارتجالا لا يتعمل فيها ولا يتكلف ـ ولا يرجع الى قاموس ـ فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل وقريبها ، يتناشدونها ويتغنون بها . ولا اغالي اذا قلت انها تعيش في أدمغة هؤلاء قبل أن تكتتب ، أكثر مما تعيش تلك في أدمغة أولئك وقد نشرت وكتبت .

وكأني أرى في ما يسمونه « الادب العصري » اليوم مظهراً من مظاهر الاسفاف الى العامية ، يحدو بأنصاره اليه زهد العامة في أكثر ما تقوله الخاصة ، وايثارها ما تفهم بالبداهة على ما يعوزها في تفهمه الرجوع الى المعاجم . ولا لوم على هذه الطبقة من الناس في عملها هذا ولا تثريب ، وانما الامر معضلة يخشى استمرارها من يحرص على بقية الادب النقي ويحاذر أن تهمل بعد حين ، وباهمالها ما لا مناص منه آنئذ من فوضى الاقلام وانقسام هذه اللغة الواحدة الى لغات متعددة ولهجات مختلفة وأقسام ، آية الهرم وبلوغ العتي من الكبر !

شعر البداة

وبعض أنواعه

لا يختص سكان الخيام في بادية الحجاز بنظم الشعر، بل هناك كثيرون من أبناء الحواضر يقولونه كما يقوله أبناء البوادي، ولهم عناية كبيرة به، وفيهم المبرّزون بنظمه، المشار اليهم بالاجادة فيه، ولكن الفرق المعروف عندهم بين البدوي والحضري أن الاول أقوى على الارتجال بل اكثر شعره ينشده غير متكلف فيه ولا متصنع، خلافاً للحضري فانه يصنعه صنعاً فينمق ألفاظه ويهذب أبياته ولا يقوى على ارتجاله في الغالب.

وقلّ في شعراء البادية من يتفق له أن يتلقى في صغره شيئاً من مباديء علوم العربية. أما من تهيأ له ذلك فيستعين بسليقته الشعرية على نظم شيء من الشعر الصحيح، قد تكون فيه معان جديدة توحي بها اليه بداوته وصفاء قريحته.

وهم يقسمون الشعر الى نوعين: الاول الصحيح الاوزان واللغة، ويسمونه «القريض». والثاني الشعر البدوي المختلف في لغته وأوزانه عن الشعر الصحيح او القريض كما سترى، و يسمونه «الحميني» ولم اعلم اشتقاق هذه اللفظة ولا أصلها.

ويسمون المساجلة بين الشاعرين منهم «قصيداً» كما يسمون القصيدة الطويلة أو القصيرة «نشيداً» ويسمون القصائد على الاطلاق «مجالسيات» ويعرف عندهم اللغز باسم «الغبوة»

وكما يقول العرب الاقدمون للشاعر المجيد: «لافض فوك» يقول البداة اليوم لشاعرهم اذا أحسن: «صح لسانك»!

.·.

فاما «القريض» عندهم فمن أمثلته قول الوقداني من قصيدة رثى بها أمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون:

الملك لله والدنيـــا مـــداولة	وما لحيّ على الايام تخليـــد
والناس زرع الفنا والموت حاصده	وكل زرع اذا ما تمّ محصـود

وما يدوم سرور لا ولا كدر	وهكذا الدهر تصدير وتوريد
والناس : ذا فاقد يبكي أحبته	وذاك يبكي عليه وهو مفقود
وذاك أبدت له الايام زينتها	وذاك أيامه همّ وتنكيد
للدهر وجه عبوس في تقلبه	وللمنايا سهام صيدها الصيد
ما يمنع الموت أبراج مشيدة	ولا دروع ولا بيض ولا خود
لو يدفع الموت سلطان بقوته	لكان حياً سليمان وداوود !

وهذه القصيدة طويلة جيدة ، رأيتها مكتوبة بخط واضح جميل ، معلقة على أحد الجدران في قبة الحبر ابن عباس بالطائف. وستأتي كلمة عن ناظمها الوقداني .

∴

وأما الحميني فكثير جداً ، أو هو اسم عام لكل ما ينظمه البداة نظماً مرسلاً لا إعراب فيه ولا صناعة .

وأما « القصيد » أو ما نسميه المساجلة ، فقد تقدم نموذج منه في كلمة « الشعر في المحاكمة » [١]

∴

ومن « النشيد الحميني » او « المجالسيات » قول مقيبل الوديود يصف وقعة :

يا الله يا الله تصلح شاننا يامصلح الشان	وتردنا سالمين وتهون الامر الصعيب
كل معيد وأنا في هم ، عيدي يم عسفان [٢]	وأقول ياالله تجيب القوم نصلح من قريب
عيوا الجونا وجيناهم على صاعق وبيشان [٣]	ثم التقينا على فيده بنيران الحريب [٤]

---

(١) صفحة ١٥٢ من هذا الكتاب

(٢) يقول : كل انسان في عيد ، واما أنا ففي هم دائم ، لان عيدي في جهة عسفان ! وعسفان واد على طريق المدينة بعد وادي فاطمة بمرحلتين

(٣) عيوا : امتنعوا . وصاعق : صائح . وبيشان : هتاف . يقول : امتنعوا ان يجيئونا فجئناهم صائحين هاتفين .

(٤) فيده : بئر في جهة المدينة . وقعت بين الشاعر وخصومه وقعة بقربها .

والملح مثل الرعد ، وامست طريح بغير دفان

ستين منا ومنهم ، ذبحوا غـير الصويب (١)

ياذيب فيده تعشى من بعدما كنت طيان (٢)

واعوي ونادي الذياب اللي تعاوى في الشعيب

نعمين يابشر ومعبد ، حموا مدعوج الاعيان !

عيوا على العار ، والميلان ما راحت كسيب (٣)

.:.

ومن الاحاجي أو المعميات والالغاز ، وهم يسمونها « الغبوات » الواحدة « غبوة » ما لهم فيه براعة وصنعة . أنشدني أحدهم « الغبوة » الآتية :

انشدك غبوه ، عن غرسة بالعدّ مسقيه　　متنكس راسهـا والعرق فوقاني

إن جيت في ظلها في داجي الفيّـه　　وإن رحت في سدهـا ما أنت ببردان

ونثر البيتين : أسألك ملغزاً عن غرسة تسقى بالعدد ، رأسها منكس ، وأصلها مرتفع . إن تفيأت بها أظلك سترها ، وإن ذهبت متمابلا لها لم تخش اذى البرد .

واليك حل هذا اللغز : الملغز به هو اللحية . يقول الشاعر : انها غرسة تنمو بالسقاية من عدد السنين ، وفروع هذه الغرسة مخالفة لفروع الاشجار لان أصلها مرتفع وفروعها منخفضة ! فان لجأت الى ظلها فانت في حماها ، وان ذهبت في حمايتها لم تخف برداً ولا أذى . .

---

(١) الملح : البارود . والصويب : المصاب . يقول : البارود يقصف قصف الرعود ، وأمسى ستون منا ومنهم مذبوحين طريحين ليس لهم من يدفنهم ، عدا الجرحى والمصابين .

(٢) طيان : طاو . يقول : تعش ياذئب فيده بعد جوعك .

(٣) بشر ومعبد : من رفاقه . يقول : انعم بكما يا بشر ويامعبد . ثم يلتفت فيتكلم عن اصحابه قائلا : انهم حموا ذوات الاعين الدعج ، وامتنعوا على العار ان يلحق بهم . ولم تذهب الاموال (الميلان) كسبا للعدو .

∴

وأنشدني آخر « غبوة » ثانية ، هي :

أنشدك عن غمر ، شبابه سبوعين ومن بعد سبوعين يصبح الغمر شايب

كلّ فرح به ، غير قضاية الدين ومدوّرين الفيد فوق النجايب

ـ الغمر في اللغة الشاب الذي لم يجرب الامور . والفيد في عرفهم الكسب .

ونثر البيتين : أسألك عن فتى لا تتجاوز مدة شبابه الاسبوعين ثم يشيب ، فرح به كل انسان ما عدا « قضاية الدين » أي الواجب أن يقضوا دينا عليهم ، وما عدا الباحثين عن كسب .

يريد بالغمر الهلال ، لان مدة شبابه أسبوعان ثم يكتهل . ولا يخفى ان من عليه ديناً يحزنه قرب انتهاء الشهر ، ومن أراد الكسب في ظلمات الليل فوق النجائب يفضحه نور الهلال .

∴

وقال شاعر منهم لآخر :

أنشدك عن بحر طويل ما ينشرع فيه صعب على ذهين الرجال ويشرعه خبل الرجال

فأجابه :

هداك الكذب لا عوّد الله طاريه راعيه دايماً يمشي على الجرف الهيال

ـ ذهين الرجال : ذو الذهن والعقل . وهداك : ذاك . وطاريه : خبره . وراعيه : صاحبه

∴

وأنشدني أحدهم « الغبوة » الآتية ، في « يونس بن متى » :

أنشدك عن مخلوق في قبره مسيد في القبر حي ويطلب الغفران

والقبر يمشي حيّ سرع وبالرويد ياكل ويشرب صنعة الرحمن

ـ يشير الى قصة يونس بن متى عليه السلام ، وابتلاع الحوت له حياً . وقوله « مسيد » أي ملقى . و« سرع وبالرويد » أي اسراعاً ورويداً .

الرواية

وطرائق النقل

قلّ ان يجد الباحث عن شعر البادية ما ينقله عن كتاب او مجموعة أوأوراق ، ولكنه متى عرف الطريق اهتدى للكثير الغزير من « مجالسياتهم » و«قصدانهم» و « غبواتهم » وغيرها من انواع الشعر عندهم .

ينتشر شعر البادية اليوم بالواسطة التي كان يذيع بها قبل ظهور الاسلام ، وهي الرواية والحفظ في الصدور لا في السطور .

وزواة الشعر من البدو كثيرون ، ترى في كل قبيلة نفراً منها ، يسمعون فيحفظون ويستنشدون فيروون .

ولا يختص هؤلاء الحفظة ، وان شئت فسمهم الرواة ، بحفظ أحد نوعى الشعر — القريض والحميني — بل حيث رأيت كثير الحفظ روى لك من كليهما ما يعلم .

سمعت أدباء الطائف يلهجون ببيتين ، يكثرون من تشطيرهما ، لا اذكر اسم ناظمها ، وهما :

أحمامة الوادي بشرقيّ الغضى	إن كنت مسعفة الكئيب فرجعي
إنا تقاسمنـــا الغضى فغصونه	في راحتيـك وجمره في أضلعي

واتفق ان خرجت صبيحة يوم الى المثناة يرافقني أحد فضلاء الطائفيين ، فمررنا برجل من أهل الطائف أهرمته السنون ، ما إخاله يقل عن الخامسة والثمانين أوالتسعين ، وقد حمل طبقاً صغيراً على رأسه وفي يده عكاز يتوكأ عليه . فسلم عليه رفيقي واستوقفه ، فأجاب ووقف ، فكلمه فاذا هو تمام عقل الكبر لسانه ، وسأله هل يروي البيتين (أحمامة الوادي) فقال : نعم . وانشدنا تشطيراً لهما قال هو للوقداني ، ثم أسمعنا تذييلا عليهما للوقداني ايضاً في قصيدة طويلة لم نستطع فهمها من لسانه فكتبها وبعث بها الينا .

وسألت هذا الشيخ الهرم عن بعض شعراء البادية فحدثني بما يعلم عنهم فقيدته قبل مفارقته وسألت رفيقي عن اسم الشيخ فقال : عبد الله ابو دايخ

∴

وممن أعانني على بعض ما رويت وما نقلت ، من شعر البادية ، مدير شرطة الطائف الشيخ درويش بن محمد بن عبد الواحد الحدائي من قبيلة قحطان. والحدائي نسبة للحدا وهو مكان في اليمن شرق صنعاء . وقد حرفت نسبته فيقال الحدايذي . وهو من حفاظ شعر البادية المكثرين ، وله منه بضع «مجالسيات» اليك نموذجاً منها:

خرجت رصاصة من بندقية أحد الاشراف قضاء ، فأصابت عنق الشيخ درويش ، فاهتم به من حوله من ذوي ناصر ، فعولج حتى شفي ، فقال من قصيدة طويلة :

ما سجع قمري على غصن البشام	أو ترنم طايراً فوق الغصون
او تزرّم صوت رعد في الغمام	ثم أسبل من سنى برقه مزون
عد هذا مني أقريكم سلام	ياذوي ناصر مجودة الطعون
اليا (١) ركبتوا الخيل ايام الزحام	كم عدو يشتكي منكم غبون
انتم أهل الفعل في شبك العسام (٢)	يشهد الله والخلايق يشهدون

ومنها :

ان بدعت القاف (٣) او قلت الكلام	ما استعرته من رجال يدعون

∴

ومن المعروفين بروايته رجل يدعى عيضة الذويبي وهو من قبيلة الذويبات ، من بني سعد ، توفي مؤخراً . كان واسع الروايه يحفظ كثيراً من شعر الشريف زيد بن فواز ، وقد مات ما يحفظه بموته الا ما نقل عنه

والمشهورون بالرواية والحفظ كثيرون في مكة والطائف اما القبائل فالرواة فيها لا يحصون كثرة ، ولا فائدة من تتبع اسمائهم .

---

(١) اليا : اذا (٢) العسام : الغبار ودخان البارود (٣) القاف : القافية

الحميني

لغته وامثلة منها

من القواعد المعروفة في أدب كل أمة ينطق شعراؤها بلسان خاصتها وعامتها ، كما كانت حال الأدب في صدر الاسلام وقبله ، ان لغة الشعر فيها تمتاز قليلاً أو كثيراً عن اللغة الشائعة ، بحيث يجد القاريء والسامع الفاظاً مصقولة وتراكيب مقبولة واستعارات وكنايات وتشابيه وايماآت لا يعثر عليها في غير لغة الادب والشعر .

ولما كان قائلو الحميني من أولئك الشعراء الذين يخاطبون اقوامهم بلغاتهم لم يكن من الغريب أن يدخل شعرهم دخيل جديد أو استعمال لم يسبقهم اليه غيرهم من أبناء باديتهم .

فهم اذاً حملة مقاليد اللغة فيهم ، يتصرفون في أساليبها وجموعها ومحدثاتها وموضوعها كما تشاء لهم قرائحهم وكما تدعو اليه أوزانهم الشعرية .

ترى أحدهم يريد أن يقول « اذا » فيقول « لا » أو « اليا » ومثالها « لا جاك فلان » أي اذا جاءك فلان . « واليا نصيت الربع » اي اذا قصدت الربع و« نصاه » عندهم بمعنى قصده ويشتقون من هذه اللفظة فعلا مضارعاً « ننصى » ويقولون « منصاك دار فلان » أي قصدك ووجهتك . ويقولون « يافعلت كذا » أي اذا فعلت كذا . ويكسرون ياء المضارعة في كل مضارع . ويقولون « اللي » بمعنى الذي و « برضه » بمعنى أيضاً أخذوها من عامة مصر . ويكثرون من وصل همزات القطع في الافعال وغيرها . والسكون في أواخر الكلمات يكاد يكون عاماً . ويسمون الجواب « رداداً » . وفي لغتهم كثير مما لا تنطق به العامة في مصر والشام وغيرهما شأن كل لغة عامية في أقطار العرب خاصة . وهم يجمعون « مارتينه » — البندقية — على موارت ومواريت . والموزر على ميازر الى غير ذلك مما يحتاج الى معجم كبير !

اوزان الحميني

قد يسبق الى ذهن من يسمع القليل من الحميني أن شعراء البادية لا أوزان للشعر عندهم ، وهو ليس بصواب . فهناك بحور (لا تفاعيل) ومقاطع (لا أسباب وأوتاد) غير أنهم أشبه بشعراء الجاهلية قبل أن يعرف البسيط والطويل والوافر ، والمقصور والمجزوء والمشطور !

وكما كان الشاعر الجاهلي يقول الشطر الاول أو البيت الاول من القصيدة وهو لم يسمع بتفاعيل الخليل فيجري الى آخر القصيدة على نظام واحد ونسق واحد ، كذلك تجد الشاعر البدوي يبتدىء بلالاته (أي يقول قبل الشروع بالقصيدة : يالا لا لا لا للى ، لي لا لا لا لا للا - أو ما يوافق النغم الذي يريد أن ينظم القصيدة فيه) ثم يرتجل القصيدة لا يختلف البيت عن الآخر وزناً وقافية وانما دليله النغم واللالات لا غير .

وقد يقول أحدهم الشعر (الحميني) دون أن يبدأ باللالات أو يضع نغماً ، متكلاً على سليقته الشعرية فيأتي بالموزون الذي لا عيب فيه عندهم .

وشعراء البادية أقرب الى الطريقة الافرنجية في أوزان شعرهم فانهم يعتمدون على المقاطع وهي كالاسباب في عروض العرب ، يدل على هذا انهم لا تكاد تمر بهم كلمة ذات ثلاثة متحركات الا سكنوا أحدها فليس في شعرهم (متفاعلن) ولا (مفاعلتن) وهذه الطريقة - اي طريقة المقاطع - هي العامة في شعر أكثر اللغات بل جميع لغات اوروبا كالانكليزية والفرنسوية والالمانية وغيرها . ولقد حاول منذ سنين أحد متأدبي العرب ان يعتمد في تقنين علم العروض على المقاطع فيهمل التفاعيل فلم ينجح لما في الشعر العربي من الكلمات الكثيرة الحركات ولان المد في غير موضعه خطأ معيب في اللغة العربية

وخلاصة القول في أوزان الحميني ان قائليه يشبهون شعراء العرب قبل وضع العروض باخراج القصيدة متساوية مع المطلع . وإن وزنوا الشعر فميزانهم المقاطع (لا لا لا) وتسكين المتحرك ومد أحد المتحركين كثير في شعرهم .

وقد يسمون بعض انواع الشعر باسماء اصطلحوا عليها كتسميتهم (المجرور) لما يلتزم فيه ناظمه التسميط - وقد تقدم من نوعه بيتان من الحميني في الكلام على جبلي شرقرق وعكابه -

وأوزانهم كأوزان شعر العامة في مصر والشام اي كالزجل والمعنى والقراديات فكلاهما معتمد على المقاطع

الحضر والبدو

والتمييز بين شعريهما

مهما حاول الحضري المجاور للبادية ان ينسج على منوال البدوي في شعره «الحميني» لم يستطع ان يخفي ما هناك من الفرق الذي يدركه منعم النظر في نظميهما فان في حميني" الحضري صنعة ظاهرة لا تبدو في حميني" البدوي ، كما ان الشاعر البدوي أجرأ على التصرف بلغته من الشاعر الحضري الذي يتكلفها تكلفاً ، ويقلد بها أهلها تقليداً ، وان اختلط بهم كثيراً وعاشرهم طويلا .

وقد يستطاع التمييز بين النظمين بملاحظة يسيرة ، هي أن شعر ابن الحواضر يبدو قريباً من لغة الحواضر ، فلا يعسر على الاديب الحجازي مثلا أن يفهم جل ما يقوله الشاعر الحجازي من النوع الحميني ، أما شعر ابن البوادي ففيه وعورة على الحضري لا يكاد يفهمه الا بعد السؤال واطالة الامعان .

وقد يكون مما يتعمده الاول ترقيق ما ينظمه ، فيجيء حاملا برهانه على انه من غير النفس البدوي ، لان ما يتناوله هـذا من الالفاظ المولدة في البادية وبين الشعاب وعلى ضفاف العيون والآبار ، لا يطوله ذلك البعيد عن الفلاة المستعيض عن الخيام بالقصور وعن الاحقاف والتلاع بالشوارع والاسواق. وهذا النوع من الشعر لا توصف فيه على الاكثر حدائق المدن وجناتها ولا أثاثها ورياشها ، وانما تذكر في أبياته المضارب والمفاوز والنجود والايفاع والتهائم والبطاح .

وبينما تسمع الحداة يتغنون بوصف الناقة ورحلها والفرس وسبقها ، اذا بك تسمعهم يتغنون بذكر حبال اللؤلؤ وعقود الماس ، فتدرك لاول وهلة ان الاول

لشاعر بدوي قح ، والثاني لشاعر حضري مقلد ، وتمر بك قصة ابن الرومي الشاعر المشهور وقد قيل له : ما لك لا تجيد اجادة ابن المعتز في وصف القصور وزينتها ؟ فقال : ذلك يرى منزله فيحسن وصفه !

خذ مثلا قول زيد بن هويشل من « نشيد » له :

الظفر لا بدّ من صغره يبين (١)	ظفر ، ويكرمْ سبال الغـانمين
كل قالات الرجال الها فطين (٢)	قبـل يبلغ بالعـدد عشرين عام
ياعرب فكرت في خبث وطيب	واشهد ان الفقر للظفران ذيب (٣)
قد عرفت المخطيه واللي تصيب	ياعرب من لامني جعـله يلام
الفقر مثل القوي من السهوم (٤)	كلما راعيه ناض أزرى يقوم (٥)
والغناوى صنعة الحمرا العزوم	ما يريعـها رسنها واللجام (٦)
ذا ، ويارا كب على ناب المتون	منوة اللي دايماً يقضي الديون (٧)
طول صيفه مكتلي نبت الفنون	ما يعشي غير في روس العدام (٨)
أشقر زايد على جمـع الحـرار	لو تشوفه ما على وصفه خيار (٩)
ينلقى وسمه على الخـد اليسار	مثل رسم النيل في راعي الذمام (١٠)
والرقيبه مثـل منحوف الجريد	ما تقول الا ضياحيّ فريد (١١)
والعظام مرا كبات من حديد	كنّ مبروم الحديد اله عظام (١٢)

---

(١) الظفر بفتح فكسر — الشاب . (٢) قالات : أقوال . (٣) الظفران : الشبان . (٤) السهوم : السهام . (٥) راعيه : صاحبه . ناض : نهض . ازرى : عجز . (٦) الغناوي : جمع للغني عندهم . وصنعة : مثل وشبه . العزوم : القوية . يريعها : يردها . يعني : ان الغنى كالفرس الحمراء القوية لا يردها رسنها ولا لجامها . (٧) المنوة : الامنية — واحدة الاماني . (٨) المكتلي : آكل الـكلأ ، ويريد هنا السمين . ما يعشي الخ : اى لا يتعشى في غير التلال الرملية المنبتة . (٩) اشقر الخ : يصف جملا أصيلا . (١٠) النيل : النيلة . راعي الذمام : يريد ربة الخدر الموشومة . (١١) الرقيبة : تصغير الرقبة . الضياحي : الغزال . (١٢) اي كأن مبروم الحديد عظام له

والبطين ضويمر كنـه هـلال   وسعدانته الذي مثل الريال (١)
والخفاف صغيره فيهـا احمال   وارد السنسون مركوز السنام (٢)

وخذ قول الشريف عبد الله بن محمد بن هزاع من « نشيد » أيضا .

آه من قلب تعـنى وانقسم   أتعب الاعيان وأغداني سقيم (٣)
في هوى من فاق حسنه واستتم   فاق جمع الخود لم جاله حتيم (٤)
إن عفا وأصلح وفي عبده رحم   هو هوى روحي ولا غيره نديم
وإن حصل لي قتل من بعد الالم   هو غريمي ليس لي غيره غريم

فاذا قابلت بين القولين اتضح لك جليا أن الاول شعر بدوى والثاني شعر حضري .

∴

ومن أمثلة البدوي قول الشريف حامد بن عبد الله من « نشيد » طويل يوصي به أبنًا له اسمه « سعد » :

يقول حامد يوم هجرس بالغنـا   حديث أحلى من حليب القود (٥)
تهيضت وابدع من خيار المثايل   اغنّي بها يوم العـباد رقود (٦)
عسى الله يخلي لي «سعد» يحتضي بي   لا استوي في قبري الملحود (٧)
أنا أوصيك مني ياسعد واستمع لي   افطن ولا تنسى وصـاة العـود
اوصيك في اصناع الشكاله تفيدها   ترى الشكاله حبلهـا ممدود (٨)
واوصيك في ضيفك الياجاك حشمه   تجمل ورحب به على الماجود (٩)
تراك اذا رحبت به ما يذمـك   والياقفيته يلحقك منقود (١٠)

---

(١) سعدانة البعير : ما دون صدره ، يرتكز عليها عند القعود . (٢) الوارد : الطويل . والسنسون : الظهر . يريد : طويل الظهر مستقيم السنام

(٣) الاعيان العيون . (٤) لم جاله : لم يجيء له . حتيم : شبيه ونظير

(٥) هجرس بالغنا : رفع صوته بالغناء . «٦» تهيضت : تفكرت . المثايل : كأنها جمع امثولة . «٧» يحتضي : يحظى . لا استوي : الى أن استوي «٨» الشكاله الشجاعة . «٩» اليا : اذا . الماجود : الموجود . «١٠» قفيته : اعرضت عنه .

وصيك جارك ورّه القدر والغلى ... ترى الجار لا بدك عنه منشود (١)

خليك لطيف له وزد في وجوبه ... يشهد لك الله والعباد شهود (٢)

واحذر على جارتك من همزة الردي ... ترى الردي ما فيد منه رشود (٣)

أوصيك في عز الرفاقه وحبهم ... ارفق لهم واحذر تجبي حسود

ترى الرفاقه درع جنبك وسيفك ... وهم حشمتك لاجا عليك ضهود (٤)

هم ضلعك اللي لا زبنته يزينك ... وان جا العدو يرقى معاه سنود (٥)

خليك لربعك سهل واسهل من العسل ... تراهم عضودك يوم ماش عضود (٦)

ووصيك حط الصمت والصدق شرعتك ... وادرن ترى الثنتين منها الفود (٧)

ووصيك في عانيك لا ترتخي له ... خليك كما حد الشبا المحدود

واليا تبين لك خصيم فاخصمه ... إكسر مقامه مثل كسر العود

لا تنكر الصايب ولا تقبل الخطا ... وتصير حيد اليا نصاك حيود (٨)

واترك مولفة الهروج الضايعه ... لو كان زالوا في نظرك صهود (٩)

ضرابة المجالس كثير هدرهم ... ما ينعرف لعلومهم ردود

وابعد عن اهل الشذب واهل النمه ... تراها تورّد لاهب الوقود (١٠)

واحذر عدوك لو تشوفه ضحك لك ... لا تامنه لو عاهدك بعهود

ولا تستمع فى شار من لا يعزك ... خليك وثيق السد فرد فرود (١١)

«١» وره : اره . لا بدك الخ : لا بد لك من ان تكون مسؤولا عنه . «٢» الوجوب : جمع واجب . «٣» فاد : كسب . رشود : جمع رشد . «٤» لاجا : اذا جاء . ضهود : اضطهادات . «٥» زبنته : صنته . سنود : جمع سند . «٦» عضود جمع عضد . يوم ماش عضود : يوم لا يوجد من يعضدك . «٧» وادرن : واذا بك . الفود الفائدة . «٨» الحيد : الجمل . «٩» الهروج : الاقوال ، يقولون : فلان يهرج اى يتكلم . وزالوا : ظهروا . صهود : كبار عظام . يعني : واترك من يألفون سدى القول ولو ظهروا امامك كباراً . «١٠» الشذب : الكذب . النمه : النميمة . «١١» شار : مشورة

ادرنت تواصيف الرجال عديمه | واهل الشكاله علمهم ماكود (١)
فيهم صبيّ يحرز العلم كله | كما حد سيف باتع قصود (٢)
فتال نقاض العلوم العسيره | طهطام لطام العدى صندود (٣)
وفيهم غني مايشح بماله | يكرم ولو كان الزمان طرود
وفيهم غنيّ مايضيف ضيفه | ها ذاك يا كل رأسه العبرود (٤)
وفيهم صبيّ لا لفوه ضيوفه | يفرح وينشط مايجيه الكود (٥)

الى ان يقول :

درت الفكاير في تواصيف النسا | الياهن بالحلايا والطبوع جنود (٦)
فيهن من تسوى من الخيل أصيله | وفيهن من لاتسوى مقصى جلود!

وهذه القصيدة نحو مئة بيت أملاها عليّ ناظمها .

∴

ومن أمثلة الحضري قول الشريف زيد بن فواز بن ناصر ، وكان حاكم الطائف ، من قصيدة يرثي بها اخاه الشريف راجحاً :

ثارت احزاني بعد كلّ رقد | واشتعل في داخل الجوف التهاب
وانسكب دمعي على خدي جدد | إنسكاب الوبل من غر السحاب (٧)
آه واوجدي ومن مثلي وجد | بعد ماواريت راجح في التراب
جلّ مفقودي ومن مثلي فقد | ياابن ابوي امسيت بعدك في عذاب
يامتين الدين ياناقي الجسد | ياخي ياعبد هيشال الركاب (٨)
ياعزيز الجار وان قلّ الجهد | ياصدوق اللفظ ياحلو الخطاب

(١) ادرنت : إدرأنت . الشكاله : الشجاعه . ماكود : مؤكد (٢) صبي : يريد فتى . (٣) صندود : صنديد . (٤) العبرود من اسماء البندقية عند بعضهم (٥) لالفوة : اذا دخلوا عليه . الكود : الكسل . (٦) الياهن : فاذاهن . الطبوع : الطباع . يقول : اجلت الفكر في اوصاف النساء فاذا هن في صفاتهن وطباعهن انواع وجنود مجندة (٧) جدد: متتابع . (٨) الناقى : النقي . هيشال الركاب : تتابع الضيوف من الركبان يريد: ياعيد الضيوف.

ياشقيقي بعـــد حليت اللحد إختفى زولك وطاوات المآب[١]
حالفاً ماانساك لو طال الابد لوتغيب الشمس ويشيب الغراب

والامثلة على النوعين ، من شعر البداة وأهل الحواضر ، كثيرة تضيق عن استيعابها المجلدات .

الردح

الرّدح — وتسميه هذيل الرجز — وكلاهما بفتح أوله وثانية ، — هو في عرفهم : أن يسير جمع من الناس ، اويصطفوا وقوفاً يتوسطهم شاعرهم ، فيبـدأ باللالات (السابق ذكرها في بحث الاوزان) ثم يرتجـل البيت من الحميني ، فيعيدونه جميعهم هازجين ، ويستمر يرتجل ماتجود به قريحتـه حتى ينتهي من نشيده (قصيدته) فان شاء ابتدأ نشيداً ثانياً فافتتح باللالات الموافقةلوزنةالمنوي وإلا تقدم شاعر آخر، وهلم جرّاً . وقبل ان يبدأ الشاعر « يبيشنون » كلهم والبيشنة في لغتهم الهتاف ، وهي مثل « الشوباش » في لغة عوامّ الشام ، يرفعون بها اصواتهم وسلاحهم ترحيباً بالشاعر بعد أن يرفع يده مشيراً الى انه سيبدأ .

وقد شهدنا كثيراً من هذه المشاهد في الحجاز ، غير أن بطء فهمنا عن ادراك معنى مايقوله الشعراء كان كثيراً مايمنعنا عن كتابة الفاظ الشاعر وهو يرتجل على أن « الردح » لايشترط فيه الارتجال على الشاعر عندهم، بل يباح له أن يتلو ماحفظه من نظمه أو نظم غيره اذا كان يتفق مع الموضوع الذي دعاهم للانشاد بخلاف « القصيد » في عرفهم وهو المساجلة كما قدّمنا فان الشاعرين يضطران فيه الى الارتجال.

اختلاف الاساليب

لـكل بادية من بوادي الحجاز واليمن والعراق والشام اسلوب خاص في شعرها ، وقد يبين هذا الفرق في اوزانها او في لغتها او في بيانها .

فاما الارزان فتابعة للانغام أو الموسيقى الطبيعية ، ولـكل من بوادي هذه

(١) زولك : ظلك .

الاقطار ألحان خاصة وهوى في الانشاد لا يتفق مع هوى غيره ، فنشأ عن ذلك اختلاف الاوزان في أشعارهم .

واما اللغة فالبادية لا تقتصر على اختلاف كل قطر عن الآخر في لغته اولهجته بل كثيراً ماتجد في بادية القطر الواحد فروقاً واضحة بين القبيلتين المتجاورتين سكناً او المختلطتين لبناً . ولا يكون اختلاف ابناء البادية الواحدة في اكثر من كلمات يسيرة ، ويتسع الاختلاف باتساع مسافة البعد بين الاقطار . فكلما كانوا امتقاربين ازدادوا تساهلا في اللهجتين فتناسى كل اناس كلمات او نبرات لاتجيء في كلام غيرهم .

ولا ينفرد سكان البوادي في اختلاف لهجات بعضهم عن بعض بل ذلك شأن كل لغة لاضوابط لها ولا قواعد، من لغات العامة في كل أمة وكل مكان ، خذ مثلاً لهجة عامة الحضر ففي كلام المصري العامي مالا يفهمه الشامي وفي كلام الشامي العامي مالايفهمه المصري وكذا يصح القول عن العراقي والحجازي واليماني وغيرهم من عوام الحواضر العربية .

واما البيان ففي المعاني وصور التعبير ، حيث ترى التباين لائحاً وان لم تختلف هيأة البوادي بعضها عن بعض . ويكون ذلك على الغالب في خصائص عني بها بدوي قطر وأهملها بدوي قطر آخر ، فجرت في سليقتهم الشعرية معان يتعاورونها ويتوارثونها خلفاً عن سلف .

مثال هذا التباين ان بداة اليمن اعتادوا أن يعتنوا بتجانس الالفاظ ، فكثر الجناس البديعي في اشعارهم ، فاختلفت صورة التعبير فيهم عن صوره في غيرهم . وعني بداة الحجاز في معانيهم فجنحوا الى الاكثار من الكنايات وعابوا الشاعر منهم اذا هجا فصرّح ، حتى ان احدهم اذا اراد التشوق الى نشوب الحرب ربما قال : « متى تنزل يامطر ؟ » وفي الكناية بالمعاني والتورية بالالفاظ دقة تدل على صفاء الفهوم ونقاوة الاذهان . وهذا النوع كثير في شعر بادية الحجاز قد لاينتبه اليه غير احدهم أو من الف حل معمياتهم من المختلطين بهم .

تداول الحميني

في كثير من سكان البادية تهيؤ طبيعي لحفظ مايستحسنون ممايسمعون ،وهو شأن الامية في كل امة . وحامل القلم قل ان يجاري الامي في حفظه لما يسمع، وسبب ذلك اعتماد الاول على مايكتب واعتماد الثاني على مايعي فضعفت ذاكرة الأول وقويت ذاكرة الثاني .

اما الشعر فهم مضطرون الى حفظه على الخصوص ، لامور : منها أن فيه مايذكرهم بوقائعهم . وانه موضوع سمرهم في كثير من مجالسهم وأوقات فراغهم . وانه غناؤهم الذي به يترنمون ، وحداؤهم الذي تحن اليه إبلهم وتشتد في جريها . وأنه لاينشر في كتاب اوصحيفة . فان لم يقيد في ادمغتهم ضاع ونسي ولم يعمر طويلا

ومن اعظم الاسباب الداعية الى تداول البداة اشعارهم، وحفظهم لها، ان جل امراء القبائل وشيوخها يحفظون الشعر البدوي ويروونه ، وكثيراً منهم يقولونه ويجيدونه .

وكثيراً مارأينا احد الامراء أوالاشراف أو الكبراء تنشد بين يديه القطعة من الحميني اوتجول في خاطره فلا يذكر بقيتها ، فيقول : هذا النشيد يحفظه فلان او فلان ، فيستدعيهما اليه او يكتفي باحدهما فيستنشده ، ولايخفى مايكون لهذه العناية من التأثير في نفوس القوم اذ يعلمون ان مايحفظونه قد يدعو الى ارسال الأمير أو الكبير رسلاً اليهم يدعونهم الى حضرة من لايروقهم شيء كالتقرب منه والتحبب اليه .

والغناء أيضاً سبب عظيم من اسباب انتشار الشعر وتداوله . فلقد أثر في الشعر الصحيح وأضعف العناية به في الخواضر ، عدول المنشدين والمغنين عن رقيقه ونقيه الى مايلفقونه من هراء العامة ومستنكر عجمتها، وأما البادية فهي على أميتها وعاميتها محافظة ابداً على التغني والحداء بما تسميه شعراً ، بل بما هو الشعر في عرفها واتفاقها .

شعراء البادية

في فلوات الحجاز الآن وحواضرها عدد كبير من قائلي شعر البادية ، ليس من شأني ، في هذا البحث ، احصاؤه واستيعابه . وانما اذكر جماعة ممن علت شهرتهم وعرفت شيئاً من آثارهم أو قليلا من أخبارهم ، أواجتمعت بهم . ومجال الاستقصاء رحب امام من يتصدى له أو يرى وضع كتاب منفرد لهذا الموضوع يعرضه بضاعة جديدة في سوق الادب أو فكاهة مستطرفة للادباء والمتأدبين .

∴

من أشهر قائلي الحميني الآن في بادية الحجاز « جمهور العدواني » وهو في سن تناهز الخمسين ، من قبيلة عدوان في شرقي الطائف ، منازلها في العقرب والفريدة — وهما قريتان تبعدان عن الطائف مسيرة ست ساعات — وجمهور هـذا هو الشاعر من سكان الفريدة .

∴

ومن مشاهيرهم الشريف حامد بن عبد الله بن راجح العبدلي من أمراء تربه[1] وهو بدوي قح في لغته و نشأته وله حميني كثير . وقد كف بصر هذا الشاعر منذ اثنى عشر عاماً وهو الآن في نحو الخامسة والخمسين من عمره

اجتمعت به واستنشدته فأنشدني كثيراً من شعره وشعر غيره ، ولا سيما نمر بن عدوان ، وما كنت استطيع فهم كلامه لما فيه من غريب كلم البداة لولا أن أسعفني أحد أشراف مكة بان كان يترجم لكل منا ما يقوله الآخر !

ولهذا الشاعر قوة عجيبة على الارتجال ، يقول المئة من الابيات وقد يزيد عليها ، ولا يتلكأ ولا يتعلثم ، وانما يستعين بفاصلة صغيرة بين البيتين . وقدسبق

---

(١) بثلاث فتحات متوالية كما هو الشائع اليوم وهي قرية كبيرة تبعد عن الطائف الى شرقه مسيرة ثلاثة ايام وفيها نخيل وآبار كثيرة و واد متسع . وفي معجم البلدان أنها بضم ففتحتين ، قال : و بها ولد ملاعب الاسنة .

لي ايراد شيء من شعره . وله من قصيدة تناهز ١٢٠ بيتاً أنشدها بين يدي الملك حسين على أثر النهضة :

ابو علي اللى كال كيله بالوفا   واهل الخيانة ناقص مكيالها
اليانوى يعطي العطايا الوافيه   يعطي الفلوس جنيهها وريالها
بحراً عميقاً يوم يصفق موجه   يعبي بخاتيخ السهل واجزالها[1]

∴

ومن المشاهير ايضا الشريف هزاع بن عبد الله من ذوي حسين . مكثر من قول الحميني ، يسكن وادي فاطمة بجوار مكة .

∴

ومنهم مقيبل الوديود الحمدي [2] الثقفي . كان فقيرا معدماً واتى الطائف فتعلم مبادىء القراءة والكتابة . واقام فيه يقرىء الاطفال (ويسموتهم البـذورة والورعان) ويكتب الرسائل للبدو بالاجرة . مات حوالي سنة ١٣٢٥ هـ . وقد تقدم شيء من نظمه .

∴

ومنهم الشريف زيد بن فواز . قال أحد عارفيه : كان بارعاً في القصيد (المساجلة) لا يقف أحد أمامه . وعرف بعده ابناه الشريفان حمود وشاكر ابنا زيد بن فواز بنظم الحميني . وقد اجتمعت بشاكر ثاني يوم وصولي الى مكة قبل سفره مع الامير عبد الله الى الديار الشامية .

وكان الشريف زيد بن فواز ، حاكم الطائف ، وأشهر شعره الحميني ، مراثيه في أخيه الشريف راجح وقد سبق لنا ذكر أبيات منها . ومن أقواله في رثائه :

ياقبر سيدي سقاك الغيث من عز الفؤاد
خليتني في عنـــا والقلب في نار شبيبه

---

(١) التخاتيخ والاجزال : يريد الاخاديد والهضاب

(٢) نسبة الى قبيلة الحمدة من بقايا ثقيف في مدينة الطائف

لاني بسامع نداك، ولا مجيبك لو تنادي[1]

بيني وبينك هيال القوز وصخار صليبه[2]

واتصل هذا البيتان بالوديود الشاعر فقال يجيبه بلسان المرثي :

أنا نزيل فسوح اللى رؤوف بالعبـــاد

في جنة الخلد والفردوس وثمـاراً عجيبـه

كتب لي الله في دار البقـا شرباً وزادي

عند النعيم المقيم ، وكل مسلم له نصيبـــه

إن غاب شخصي فان النصر مثل الشمس بادي

والعز ماجود فايح للعرب مسكه وطيبه[3]

عندك رجال ، لهم طول البقا، شجع الايادي

وأنت كما الحيت مالك عن ظلالتهم مغيبه[4]

يازيد خليك صبور ، وكلّ زرع للحصاد

واليا وفي العمر سهم الموت مايخطي الضريبه[5]

انا اعرف انك محب وسال دمعك في ودادي

والعمر محتوم وأمر الله ماضي في الغصيبـــه

ولا تجزع هداك الله ربي خـــير هادي

يبشر الصـابرين بصبرهم عنـد المصيبـه

. . .

ومن أكثر شعرائهم أخباراً ، وأوفرهم أشعاراً ، ناظم الفنين القريض والحميني المجيد فيهما معاً ، الشيخ بديوي الوقداني ، من قبيـلة وقدان . كان في بدء أمره مشهورا بنظم الحميني ثم قصد مكة فقرأ قليلا من النحو والادب وعاد الى بادية الطائف فنظم القريض وفاق فيه أقرانه وتوفي سنة ١٢٩٦ هـ

---

(١) لاني : لست (٢) الهيال التراب المهيل على القبر . والقوز : المقـبرة . والصخار . صخور (٣) ماجود : موجود

(٤) الحيت : ضلع الجبل ، يقول له . وانت كضلع الجبل لا تغيب عن إظلالهم.

(٥) واليا . واذا

وقد سبق ذكره في الكلام على القريض . وأما الحميني فمن قوله فيه يشكو انحباس الغيث :

ضاقت بنا الارض واشتبت شبابيها — والغيث محبوس يامعبود ياوالي !
يا الله من مزنة هبت هبايبها — رعادها بات له في البحر زلزال (١)
ريح العوالي من المنشا نجاذبها — جذب الدلي من جبا مطوية الجال (٢)
تسقي دياراً شديد الوقت حاربها — ما عاد فيها لبعض الناس منزال
ديمومة سبلت وارخت ذوايبها — وانهل منها غزير الوبل همال
المال يحيي رجالا لا حياة بها — والوبل يحيي مكان المنبت البالي!

وله من قصيدة

دنياك هذي كلها هز قاووق — ماتعرف الصاحب من اللي معاديك
واكثر كلام الناس بالمكر والبوق (٣) — يهرج معك واليا تقفيت يرميك (٤)
والمال دايم صاحبه مرتفع فوق ! — والقل خايب لو ترفعت يرخيك (٥)

وهو القائل :

انفكت السبحه وضاع الخرز ضاع — بغيت ألمه ياسليمان وزريت
صار الذهب قصدير والورد نعناع — أنكرت ريحه مختلف يوم شميت
الباب طايح والمسامير خلاع — والحب فيه السوس والفار في البيت
أمسيت أكيل الراي بالمد والصاع — قست الامور وعفتها لما اتوريت
لافاقد الحيلة ولا قاصر الباع — ويا الله يامولاي فيك استعزيت
الذيب رزقه في مبادية الارواع — وانا برزقي في زماني تعنيت
وأنا مربى من زماني ومطواع — ربتني الايام حتى تربيت !

.·.

(١) يا الله من مزنة : هل من مزنة ؟ . رعادها : رعدها

(٢) ريح العوالي : التي تهب من اعالي الاماكن . المنشا : يريد السحاب الناشيء من جهة البحر . الدلي : الدلاء . الجبا : فم البئر . جال البئر : بطنها

(٣) البوق : الخيانة . (٤) يهرج : يتكلم . اليا : اذا (٥) القل : الفقر

ومن شعرائهم زيد بن هويشل العصمي . من قبيلة العصمة. مات سنة ١٣٢٠هـ شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وهو غير ذي شهرة في شعراء البادية . ولكن فيهم من يراه على ابواب النبوغ . وقد تقدم شيء من شعره .

وممن عرف بنظم الحميني في ايام صباه الشريف عبدالله بن محمد بن هزاع ، احد اعضاء مجلس الشيوخ بمكة اليوم . وقد سبق ايراد شيء من نظمه .

∴

ومنهم عابد بن فهيد الزيادي من قبيلة ناصرة . وعيضة بن مستور الزيدي من ناصرة ايضاً . وبنية المولد من موالي بني سعد . وعطيه وجاد الله من بني سعد . وعبد الله بن سفرة الطويرقي .

ومن المشهورين فيهم « العبد » واسمه سليم ، راعي الافلاج ، وهي على مقربة من الحسا ، كان يلي بها وكالة الزكاة للحكومة . ويكثر ابناء تهامة والحجاز من حفظ مجالسيات « الهزّاني » وهو شاعر مشهور من قبيلة هزان في اطراف نجد .

∴

شعر الملك

ويحسن بي أن اختتم هذا البحث ، باثبات قصيدتين من الحميني ، لجلالة الملك حسين . احداهما قالها لما اوعزت اليه حكومة الاستانة بمغادرة مكة سنة ١٣٠٩هـ وهي :

يامن لقلب به هواجيس وافكار	وامسى يكايلها بصاع ومدّا
عذّر ولا عذّر ولا جاتها ازمار	مثل الغريق اللي بحبله نجدا (١)
نجلي ولا نرضى الهوينا ولا العار	ونجوز عن ماها ولو كان شهدا (٢)
وعلى نوال العز نسخى بالاعمار	وفيمانا المصقول لطام لعدا (٣)
ماعزّلونا منه بمجار ومجار	معزوزة محداً عليها تعدى (٤)

(١) عذر : الاولى بمعنى ترك ، والثانية بمعنى انه لم يترك مجالا للمعذرة . جاتها جاءتها . ازمار : أخبار . نجدا : تعلق . (٢) الهوينا الهوان . ماها : ماؤها (٣) بالعمار : بالاعمار . وفيمانا : وفي أيماننا . لعدا : الاعداء (٤) عزلونا : اخرجونا : بمجار : الاولى من الجور والظلم ، والثانية من الاجارة والحماية . محداً : لأحد .

يوم انو بعض الناس قد عزّل مرار   وامسى يعانى كل همّ ووجدا (١)

والثانية قوله قبيل رحلته الى اليمن :

كيف البصر يال الحسن وال بزكات   نزالة المشرق ومن في تهامه (٢)

نسمع طواريكم تسوّون خيرات   ومن لامشى تغشاه منا ملامه (٣)

وان جا من المقدوركم جاوكم فات   والعمر له في اللوح خط وعلامه

ننصي اعادينا على كيف ماجات   والموت دون العز مابه ندامه (٤)

من مكة

الى هليوبوليس

يوم الاربعاء ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٣٩ — ١٩ كان الثانى سنة ١٩٢١

كنت ويوسف ياسين على اهبة السفر ، فدخلنا على جلالة الملك فودعناه ، وافضى الينا ببعض ماتحدثه به نفسه ، ثم ختم كلامه ببيت القائل :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن أن لاتلاقيا !

فقبلنا يده ، وانصرفنا من حضرته داعيين له بطول البقاء . وبرحنا مكة عصر النهار يصحبنا « بواردي » وهو عبد راكب يحمل بندقية ، ورأيت رجلا من البدو حاملا بندقيته على عاتقه ، وشيئاً ملفوفاً بمنديل على رأسه أظنه طعاماً ، يعدو أمامنا مستمراً ، فسألت رفيقنا « البواردي » عن شأنه فقال : هو دركي من عسكر سيدنا . ولم ألبث ان رأيته بعد ساعة من مسيره قد وقف بعيداً ، وصاح صيحتين عاليتين قائلا : عن أمر سيدنا ، بالنهار واحد ، والياهودّ الليل ، يأخذون ثلاثه .. وغاب عنا فلم نمض خطوات حتي طلع آخر . ومررنا بموضع يسمونه « المرقد » تبتدىء فيه تلال رملية يرقشها الهواء وتتنقل مع الرياح ، رافقتنا الى أن بلغنا

(١) انو : انه . عزل : بضم اوله : انتقل مكرهاً (٢) البصر : بضم اوله وثانيه : الرأى . (٣) طواريكم : اخباركم . خيرات : بكسر أوله : استخارات (٤) ننصي : نقصد . ماجات : ماجاءت . ويلفظون « به » في شعرهم بضم الباء وسكون الهاء وكذلك « له »

« الشميسة » وقد اقبل الليل ، فنزلنا بها . وهي متنزه حسن في تلك الصحراء فصلينا المغرب بعد أن كنا صلينا العصر في قهوة قبلها يسمونها « قهوة سالم »

وبعد ساعتين ونصف من مغادرتنا الشميسة بلغنا « بحرة » وهي مقاه (قهاوي) متصلة وفيها بضعة بيوت . وقد رافقنا اليها فتى عتبي من الدرك العربي لايزيد عمره عن خمس عشرة سنة فاراد العبد فوزان (رفيقنا) أن يعبث به فناداه : ياورع ! (اي ياغلام) وأنت ماتصنع في هذا البر ؟ فقال : — وهو يعدو أمامنا — أنا الورع والله باثنين من حرب !

وحرب قبيلة كبيرة منازلها بين الحرمين ، ومنها كثيرون في درك مكة ، رافقنا بعضهم ايضاً .

وسألت الفتى : تجري ياعتيبي ؟ (وا كثر من في بادية الحجاز يقولون جرى ولم اسمع منهم ركض) فقال العتبي : إي بالله إعدي ! — فعرفت أن عتيبة أو بعض بطونها يقولون : عدا —

وفي عتيبة ذكاء مفرط وشجاعة خارقة . وفيها من يقلب القاف جيما فيقولون « الصدج » بدلا من الصدق .

وبتنا في « بحرة » على كرسي مستطيل تظللنا السماء واللحاف ، وقد وضعت خرجي وأمتعتي قريبة مني ، وقيدتها من أسفلها بخيط ثخين عقدت طرفه على مرفقي وسترته باللحاف حتى اذا طرقنا سارق وأراد استلابنا شيئاً شعرت به ، وكنت كثيراً ما أصنع هذا في القفر .

ونهضنا قبيل طلوع الشمس ، فصلينا الصبح وسرنا ، فبلغنا مكاناً (وهم يقولون وصلة) يدعى « حصاة أم البومة » رأينا منه البحر ، بعد مسيرة ساعتين ونصف من « بحرة » ثم انتهينا الى قهوة « الرغامة » فمكثنا بها قليلا واتجهنا نحو « جدة » وقد لاحت لنا منازلها والشمس تلذع رؤوسنا ، فبلغناها قبيل الظهر نركب تارة ونمشي حيناً ، وللتعب وحرّ الشمس في أجسامنا أوفى نصيب .

***

بتنا هذه الليلة في جدة ، ونهضنا في الصباح فذهبنا الى موظف الجوازات (الباسبورتات) ومعنا أمر مطاع من صاحب الجلالة يوجب اعطاءنا جوازين هاشميين حجازيين ، فلبي الموظف الامر ، ونادى كاتباً عنده أملى عليه صفاتنا (لان الصور غير إجبارية هناك) وانتهى الى لحيتي ، فقال للمستملي : اكتب : حليق فتردد الكاتب .. وقال : بلحية ياسيدي . فأدار الموظف وجهه وقال متأففا : يحلقها فى الباخرة يا ابني ! .. فضحكنا ، وتناولنا جوازينا فبعثنا بهما الى المعتمد البريطاني ليمضيهما ، وهناك العقدة ..

اضطرب الهاتف (التلفون) في دائرة مدير الرسومات ونحن عنده ، وقد أرسلنا الجوازين مع أحد رجاله ، فأخذ السماعة وهو يقول : خير ! - بدلا من كلمة « آلو » التي لم أسمعها في الحجاز قط — فاذا ترجمان المعتمد يسأله عني : أليس الذي جاء من مصر بغير جواز ؟ فسئلت ، فقلت بلى ! فقال : لينتظر الباخرة الثانية ! .. - ومن أصعب الامور على المتهيىء للسفر أن يقال له رويدك ! -

فأعاد عليه مدير الرسومات السؤال عن السبب ، فأجاب بأن المعتمد يريد أن يستأذن حكومة مصر ..

وهنا لم يسعني الا أن طلبت مركز (سنترال) مكة وخاطبت الامير زيد بالامر ، وكان في مخلوان صاحب الجلالة ، فتناول جلالته الهاتف وطلب المعتمد الانجليزي بجدة ، فأجابه ، وتداولا حديثاً عرفت بعد ذلك ان جلالته أخبره فيه بأنني موظف في الديوان الهاشمي وانني مرسل فى أمر رسمى وان عليه تبعة تأخيري ..

وبعد أخذ ورد" وارخاء وشد" ! ، أفتى المعتمد بجواز الجواز ، وأصحبني بكتاب الى موظف الجوازات في السويس يزعم انه يوصيه بي خيراً . ولكني طويت الكتاب ولم أدر مافيه لجهلي بالانكليزية ، ولم أر في الباخرة من آمنه على قراءته فخفت أن يكون صحيفة المتلمس ، فأخفيته في حقيبتي ...

***

ركبنا الباخرة «دقهلية» صباح السبت ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٢١ - ١٣ جمادى الاولى ١٣٣٩ وكانت ليلة الاحد شديدة الرياح ابتدأت العواصف عند منتصفها. وبلغنا «ينبع البحر» ضحى الاحد، فمكثنا خمس ساعات نزلنا في خلالها الى هذه البلدة بل القرية، واخترقنا سوقها الضيقة المستطيلة، وراعنا مافيها من تكاثف الذباب كالضباب!.

وجرت بنا «الدقهلية» عصر النهار، والرياح تميل بها يمنة ويسرة، وهناك شعرنا بالبرد الذي فارقناه منذ رافقتنا اللحية، ورافقناه حين فارقناها!

ولم تهدأ العواصف قبل طلوع صباح الثلاثاء، وقد أرست بنا السفينة في ميناء الطور، التي أبحرنا منها بعد وقوف ساعة ونصف، واليم هادىء. وأصبحنا يوم الاربعاء ٢٦ يناير، والخدام ينادوننا: السويس، السويس. فنهضنا الى ملابسنا ونحن نقول معهم: السويس. السويس!

ونزلنا بعد هنيهة، فشرح موظف الجوازات على جوازينا، وأردنا الانصراف فاذا بانسان يقودنا أو يرافقنا، رابنا أمره، فسألته عن شأنه فأجاب ـ والتبجح ملء شدقيه ـ مأمور بايصالكما الى القطار.. فازددنا ريبة، وبلغنا المحطة وقد بقي لموعد السفر نحو ساعة، فوقفنا وصاحبنا ملازم لنا لايفارقنا، فأعدنا عليه السؤال قائلين: هاقد قد قمت بما أنت مأمور به! فهل من حاجة لك؟ قال: نعم! الامر يقضي بأن لا أدعكما حتى تركبا القطار وتسافرا أمامي.. فلم يداخلنا شك في انه «بوليس سري» ولكننا أردنا أن نتثبت، فسألناه عمن أوحى اليه.. فقال: لا يعنيكما! قلنا: أأنت موظف في الحكومة؟ فقال: نعم! وهاهي شارتي.. وأرانا جانباً من قطعة بيضاء مكتوبة قد أخفاها في باطن معطفه ولم يسمح لنا بقراءة مافيها..

صبرنا على حكم القضاء. وقد أردنا أن نبرح المحطة قليلا لشراء حاجات فحاول ان يمنعنا، بل منعنا بكل عنف، فخضعنا لارادته، ثم دخلنا احدى عربات القطار الواقف وانسللنا من جانبها الآخر، وكم كان سرورنا عظيماً حين شعرنا بلذة الانفلات والانطلاق والحرية.. فتجولنا قليلا وعدنا فركبنا وصاحبنا يبحث عنا، فرآنا والقطار على أهبة السير فقفز نحونا متعلقاً بالقطار، وهو يقول: أين

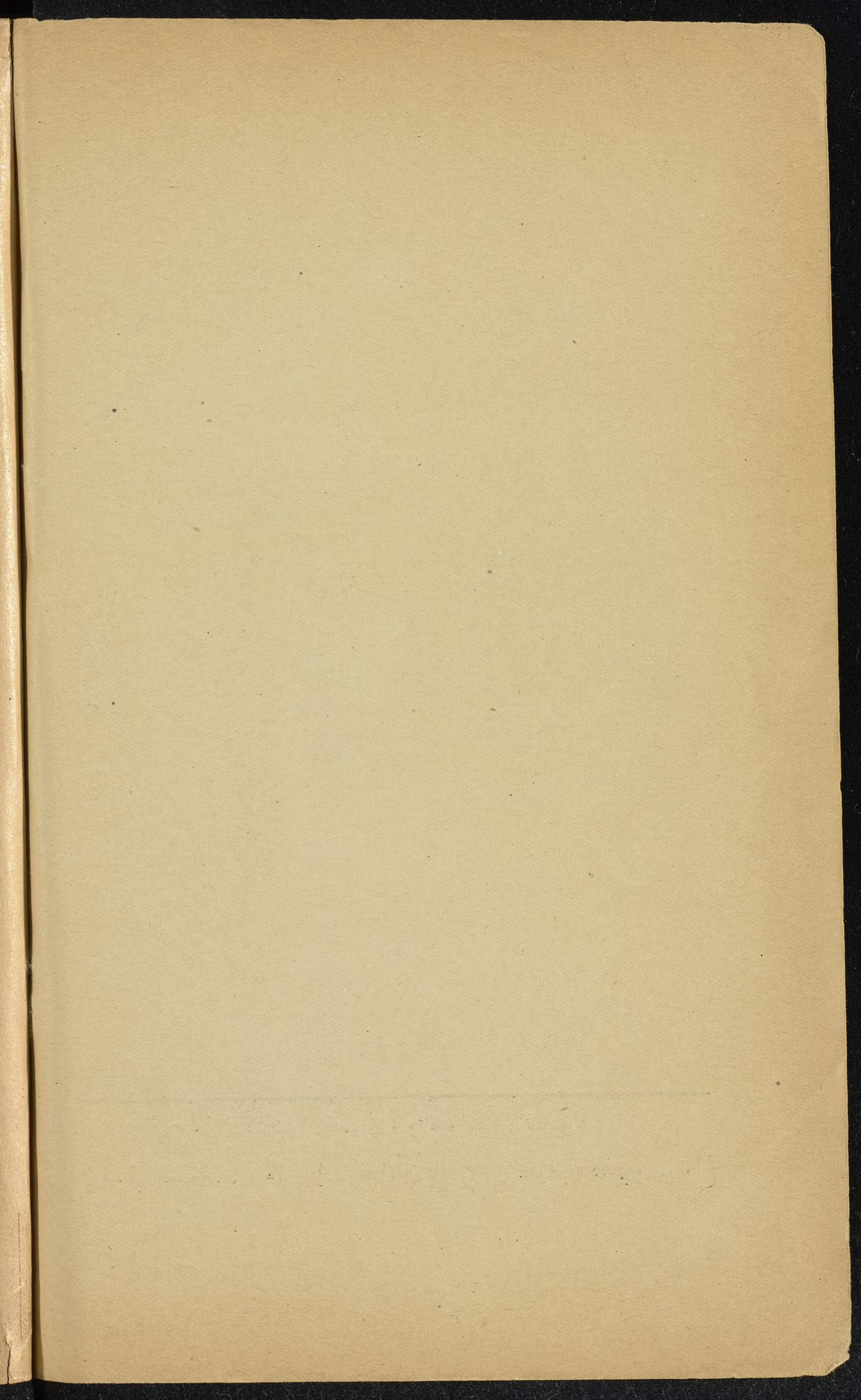
كنتما ؟ لقد أتعبتماني .. قلنا : هانحن مسافران فأعلم من ارسلك .. فقال : واجرتي ؟ قلنا : على اي شيء ؟ . قال : على مرافقتي لكما ساعتين ! .. وهنا غلب علينا الضحك . فدعونا شرطياً قريباً منا — كنا نخشى ان نكامه قبل ذلك — فحدثناه بخلاصة الواقعة فقبض عليه . ومشى القطار بغتة فلم نعلم ماذا حدث .

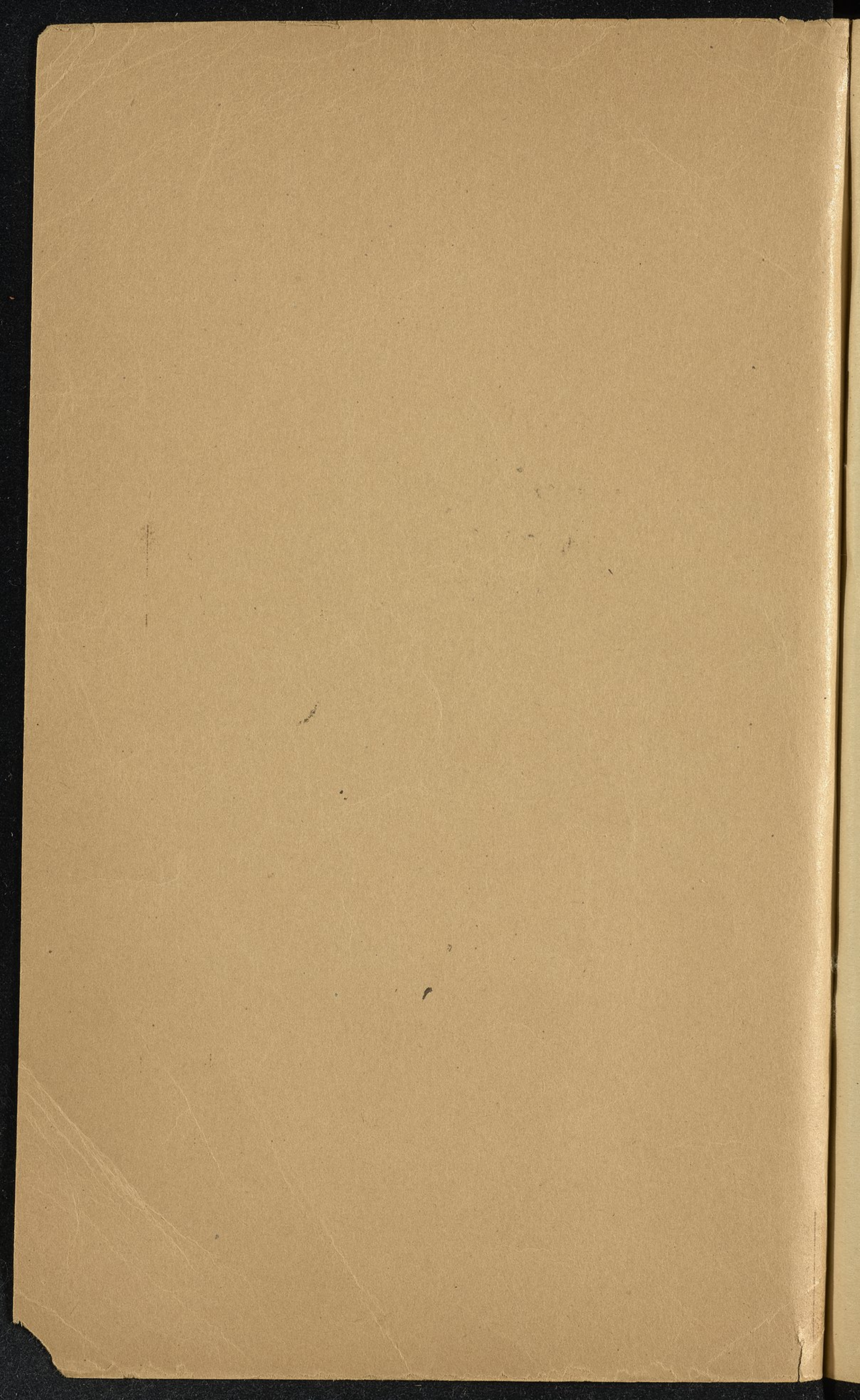
وبعد خمس ساعات وعشرين دقيقة كنا في القاهرة . فركبنا سيارة حملتنا الى مصر الجديدة « هليوبوليس » حيث كان بعض اصحابنا . وأقبل علينا من نعرف يهنئوننا بالسلامة !

خير الدين الزركلي

جاء في فاتحة الكتاب «وتقمحوا» والصواب «وتقحموا»

وفي الصفحة ٤٨ «هو ما يسمونه الآن بالسور» والصواب «كالذي يسمونه الخ





المطبعة العربية ومكتبتها
مصر - شارع المزين بالموسكي
صندوق البريد ٦٩٨

